

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



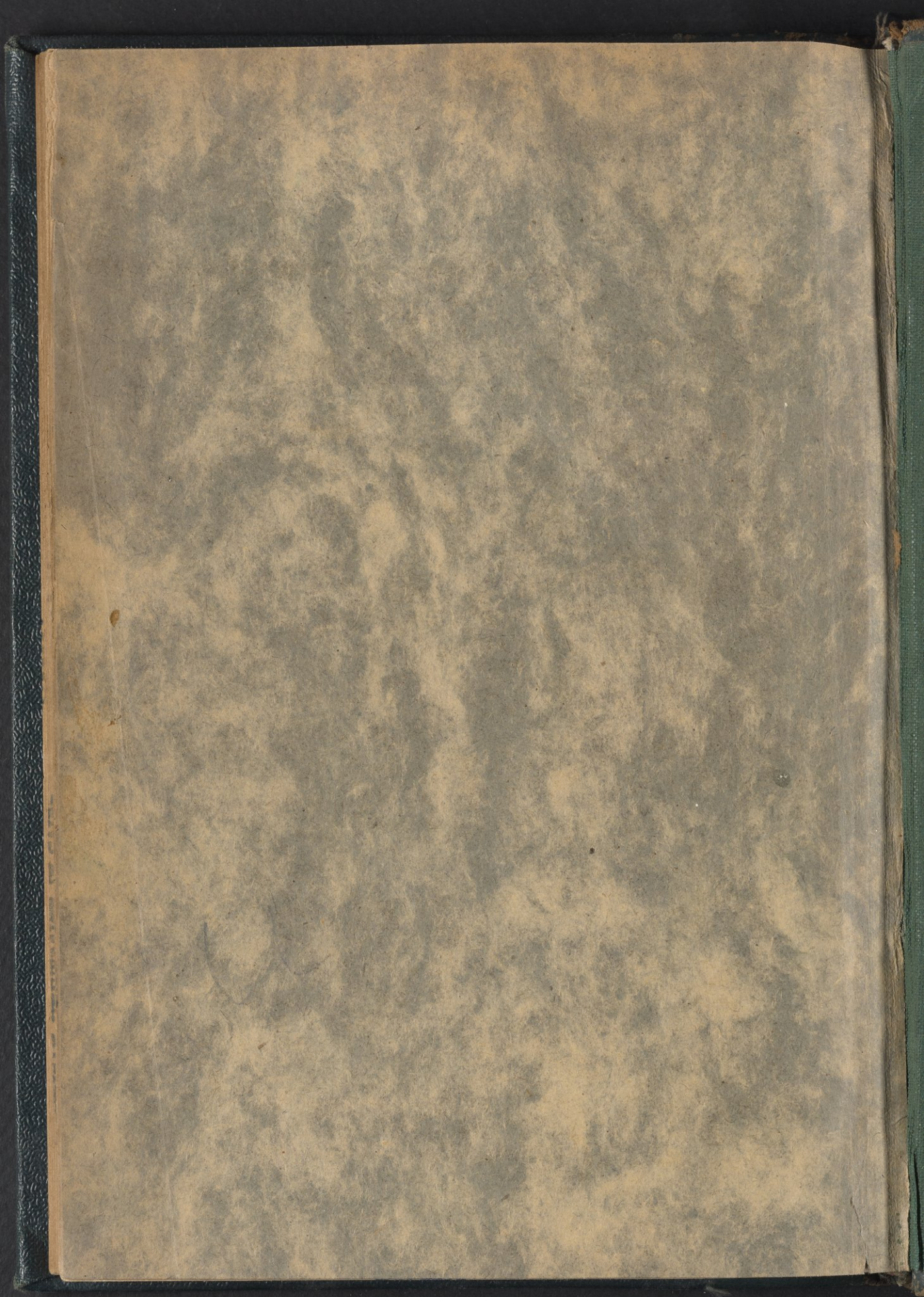
3 8534 01030 5070

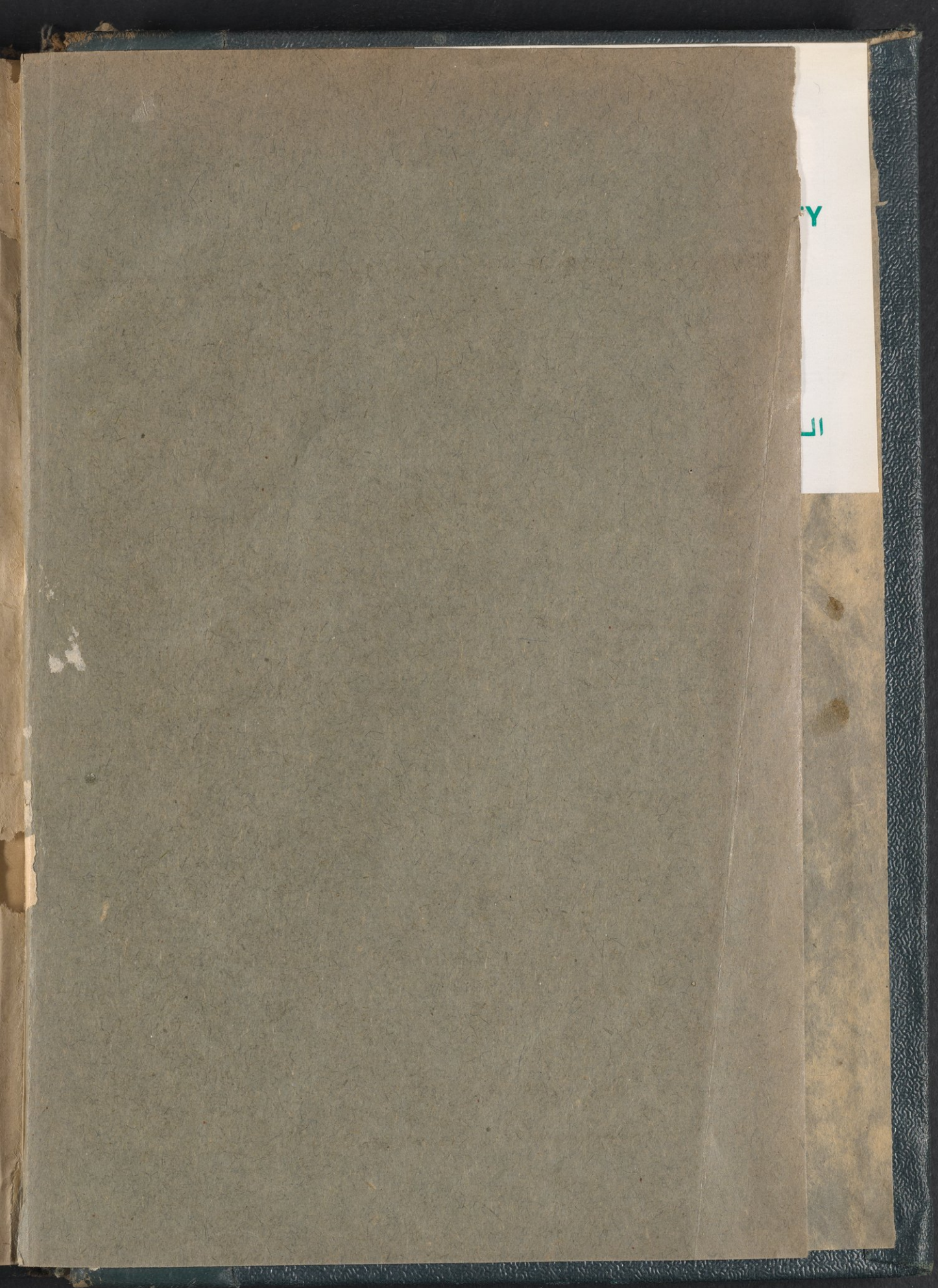
U
S
W
V



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة





حياة المجتمعات

«٦»

GT
99
W3X
V-2

غرائب النظم والتقاليد والعادات

تأليف

الدكتور علي عبد الواحد وافي

دكتور في الآداب من جامعة باريس

عضو المجمع الدولي لعلم الاجتماع

رئيس قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية
بجامعة القاهرة سابقا

الجزء الثاني

مستند الطبعة والنشر

مكتبة النهضة المصرية بالجيزة

١٨ شارع كامل صدقي

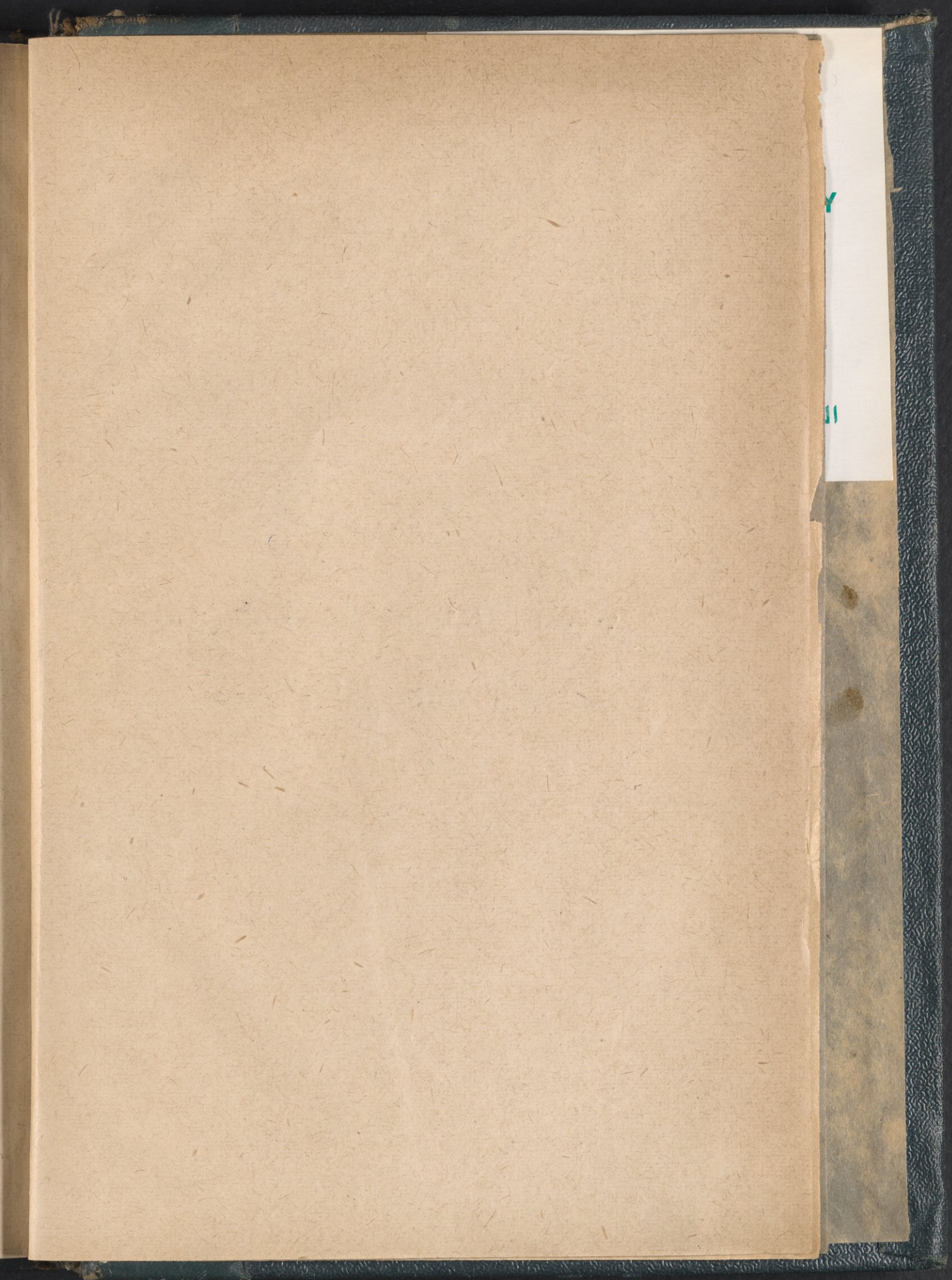


٤٩٠
١٩٠٤
٢٥

٥٤٧٣٢

الباب الخامس

من غرائب الانحراف في الغرائز
تحت تأثير النظم والتقاليد والعادات



الفصل الأول

أكل لحوم البشر

(الانحراف في غريزة الغذاء)

— ١ —

مدى انتشار هذه العادة
واختلاف مظاهرها وطرانقها باختلاف الشعوب

انتشرت هذه العادة لدى عدد كبير من الشعوب البدائية وغيرها ، وخاصة في جنوب أفريقيا وغربها ووسطها (السكنفو البلجيكية والفرنسية وأقصى السودان الجنوبي وخاصة في عشائر نيام نيام Niams - Niams)^(١) ، ولدى طائفة من عشائر السكان الأصليين لأستراليا وأمريكا وخاصة أمريكا الجنوبية والوسطى ، وطائفة من عشائر السكان الأصليين الأرخيبيل الملايو وميلانيزيا وبولينزيا وأندونيسيا وبعض شعوب آسيا . وتوجد أدلة كثيرة على أن هذه العادة كانت منتشرة في بعض المناطق الأوربية كذلك .

(١) عشائر نيام — نيام أو زندي Niams - Niams, ou Nyams - Nyams ou Zandé . يبلغ عدد أفرادها زهاء مليونين اثنين يسكنون السودان الشرق بين النيل والسكنفو وبحيرة تشاد . ويمتازون بشعورهم الفاحشة المجددة ، وطول قامتهم وأطرافهم السفلى . وقد ظن بعض الرحالة أن لهم ذيو لا ، لأنهم كانوا يسترون عوراتهم بجلود تتدل من أطرافها الخلفية قطع مبرومة طويلة تشبه الذبول وتبدو كأنها جزء من جسم الإنسان . وهم يسكنون الغابات ، ويتجه قسما يسير من نشاطهم إلى الزراعة ، أما معظمه فيتجه إلى الصيد وصناعة الفخار والصلال والخناجر والسوف والحراب . وكان لحم البشر من أزكى اللحوم لديهم . ولكن يظهر أنهم قد أفلحوا الآن عن هذه العادة أو قلت رغبتهم في هذا النوع من الطعام .

وقد اختلفت طرائقها ومظاهرها اختلافا كبيرا باختلاف الشعوب التي أخذت بها .

ففي بعضها كان يؤكل جميع أجزاء الجسم الإنساني ماعدا العظام ؛ بينما كان آخرون لا يأكلون إلا أجزاء خاصة من الجسم كالقلب والكبد والكليتين .

وفي بعضها كان يقتصر على جثث المتوفين والمحتضرين من الناس ، بينما كان آخرون يفترون كذلك الأحياء أنفسهم ويأكلون لحومهم .

وفي بعضها كان يقتصر على أكل جنس الذكور أو جنس الإناث ، أو على أكل الآدمي في مرحلة خاصة من مراحل العمر كالطفولة والشيخوخة ؛ بينما كان آخرون لا يفرقون بين جنس و جنس ولا بين مرحلة وأخرى .

وفي بعضها كان لا يسمح بأكل لحم البشر إلا للذكور ، أما الإناث فكان هذا النوع من الطعام محرما عليهن إلا في حالات خاصة حددتها التقاليد ، وفي بعضها كان لا يسمح بذلك إلا للعجائز من الذكور والإناث ؛ ولكن عند معظم آكلي لحوم البشر كان ذلك مباحا للجنسين على السواء في مختلف مراحل العمر .

وفي بعضها كان يقتصر على أكل لحوم الأعداء وأمرى الحرب والأجانب عن القبيلة ؛ وفي بعضها كان يقتصر على أكل لحوم الأقرباء ؛ وفي بعضها كان الغالب أن يكون الماء كحل من الأجانب مع جواز أن يكون من غيرهم ؛ وفي بعضها كان الغالب والأفضل أن يكون الماء كحل من الأقرباء مع جواز أن يكون من الأجانب ؛ بينما كان آخرون لا يفرقون بين قريب وبعيد . ولعل أشد هؤلاء غرابة هم الذين كانوا يقتصرون على أكل لحوم الأقرباء . ومن أظهر أمثلتهم عشائر البينغال وطائفة من قبائل السكان الأصليين لأستراليا . ففي عشائر البيرهور Birhors في البنغال (المناطق الوسطى من الهند) كان لا يؤكل لحم العدو ولا الأجنبي ، وإنما كان يقتصر على أكل من يصل إلى مرحلة الشيخوخة من الأقرباء . وفي بعض العشائر الأسترالية كان يقتصر على أكل المتوفى

من الأقرباء . وفي عشائر الدييري Dieyerie الأسترالية كان لا يؤكل كذلك إلا لحوم المتوفين من الأقرباء ، ولكن بحسب نظام خاص يحدد قرابة الآكل من الماء كقول : فكانت الأمهات يأكلن لحوم أولادهن ، والأولاد لحوم أمهاتهم ، وأخو الزوجة وزوجها يأكل كلاهما الآخر عقب وفاته ، وأخت الزوج وزوجته تأكل كلتاها الأخرى ... ووضع لغير هؤلاء من الأقرباء كالأعمام والأخوال وأولاد الأخ وأولاد الأخت والأجداد والجندات والأحفاد نظم أخرى تحدد الآكلين منهم والماء كولين . وما كان يسمح لغير من حددته هذه النظم أن يأكل جثة متوفى من أقربائه . فما كان يسمح مثلاً للأب أن يأكل أحد أولاده ، ولا لأحد من الأولاد أن يأكل جثة أبيه .

وفي بعض هذه الشعوب تبدو هذه العادة طبعاً أصيلاً من طباع أهلها ؛ وفي بعضها ما كان يلجأ إلى ذلك إلا في سنى المجاعات والجذب ؛ بينما كان آخرون لا يمارسون هذه العادة إلا في مناسبات خاصة كالمناسبات الدينية وما إليها .

أسباب هذه العادة وما ترمى إليه

وقد نشأت هذه العادة أو تطورت عند بعض الشعوب نتيجة لعدم وجود غذاء حيواني آخر أو لندرة هذا النوع من الغذاء أو لحدوث قحط أو مجاعة . فتوالى المجاعات وإفقار المنطقة من غذائى حيوانى كاف هو الذى أدى - فى نظر الرحالة إليس Ellis - إلى نشأة هذه العادة لدى السكان الأصليين فى جزر بحار الجنوب Iles des mers du sud (بولينزيا) . وفى عشائر النوكاهيفى Naukahiviens (أستراليا) كان يقتصر فى الأوقات العادية على أكل جثث من يقتل من الأعداء فى أثناء الحروب ؛ ولكنهم كانوا فى سنى المجاعات القاسية يقتلون نساءهم وأولادهم ويأكلون لحومهم . ولوحظ كذلك لدى بعض القبائل فى شمالى أستراليا وغربها ولدى قبائل الهنود الحمر التى تسكن شمالى البحيرة العليا

Lac Supérieur (أمريكا الشمالية) أنه لا يلجأ إلى أكل لحوم البشر إلا في سني المجاعات وفي أوقات الحصار الحربي. وحينئذ قد تدعو الضرورة الآباء أنفسهم إلى أكل لحوم أولادهم.

ولوحظ كذلك أن بعض عشائر الإسيكمو التي تسكن سواحل خليج هدسون لم تلجأ إلى أكل لحوم البشر إلا بعد أن أصيبت بسني مجاعة وقحط شديدين وبعد أن أكلت جميع مالهيا من كلاب وملابس وجلود.

وقد وصف الرحالة المؤرخ الطبيب العربي الشهير عبد اللطيف البغدادي في كتابه «الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر» (وهو وصف لرحلته إلى وادي النيل في نهاية القرن السادس الهجري ونهاية القرن الثاني عشر الميلادي) مشاهدته من مظاهر المجاعة التي ألمت بمصر فيما بين سنتي ٥٩٥ و ٥٩٨ هـ (١١٩٨ - ١٢٠١ م) فذكر أن الفقراء، لشدة المجاعة عليهم، كانوا ينبشون قبور الموت ويلتهمون جيفهم، وكانوا يقتلون أولادهم ويأكلون لحومهم، وأن هذه الفظائع كانت لغرابتها في مبدأ الأمر موضع دهشة الناس وحديثهم الذي لا ينقطع في غدوم ورواحهم وساعات عملهم وسهرهم. ولكن لم يلبث المصريون، لامتداد المجاعة لديهم وطول ممارستهم لأكل لحوم البشر، أن أصبحت هذه الفظائع أمورا عادية، بل أخذ كثير من الناس يجدون لذة في هذا النوع من اللحوم. فأصبحت لحوم الأطفال من أذكى أنواع الطعام عند كثير من الطوائف، وأصبحت تؤكل للذة لا لضرورة المجاعة، واخترع الناس طرقا عديدة لطهو هذه اللحوم وسلقها وشيها وتقديمها وتعبئتها وحفظها في التوابل. وانتشر ذلك في جميع أرجاء البلاد حتى لم تبق قرية من قرى مصر لم يصبح فيها أكل لحوم البشر أمرا مألوفا. وحينئذ انقطع حديث الناس عن ذلك. ولم تثر هذه الأعمال لديهم نفورا ولا اشمئزا، ولم تعد مقصورة على الفقراء والمعوزين من الناس، بل إن كثيرا من أغنياء القوم أنفسهم الذين كان من الميسور لديهم الحصول على أطعمة أخرى كانوا يؤثرون اللحم الإنساني، ويعتبرونه من

مظاهر الترف والابهة . بل لقد كانوا يستأجرون بعض المجرمين والسفاحين ليصيدوا لهم الأطفال والشبان لتزدان موائدهم بلحومهم . وكان أرقى ما يقيمونه من مآدب هي المآدب التي يقدمون فيها هذا الصنف الفاخر من اللحوم ، وكانوا لا يكتفون عن أصدقائهم من المدعوين حقيقة الأمر ، بل كانوا يفخرون بذلك ويعدون مبالغته في الخفاوة بالمدعوين وفي إكرامهم . ويختم حديثه هذا بقوله .
« ولو أخذنا نقص كل ما نرى ونسمع لوقعنا في التهمة أو في الهذر . وجميع ما حكيناه مما شاهدناه لم نتقصده ولا تتبعنا مظاهره ؛ وإنما هو شيء صادقناه اتفاقاً ؛ بل كثيراً ما كنت أفر من رؤيته لبشاعة منظره . »

ويصف المقرئ في كتابه « إغاثة الامة » ، بكشف الغمة (١) ، إحدى المجاعات التي حدثت في مصر في أيام المستنصر (خامس الخلفاء الفاطميين في مصر ٤٢٧ - ٤٨٧ = ١٠٣٥ - ١٠٩٤ م) واستمرت نحو سبع سنين كان أشدها وطأة سنتي ٤٥٩ و ٤٦٠ هـ ، فيذكر أنه قد استولى الجوع ، وأكل الناس القطط والكلاب ، واختطف الإنسان من الطرقات ليؤكل ، فوقف الناس في الطرقات يأكلون من ظفروا به ، ويخطفون الأدميين بالكلاليب ، وبيع لحم الإنسان عند الجزارين ، وأكل الناس الجيف وأكل بعضهم بغلة الوزير نفسه ، فلما شفق الذين انهموا بأكلها لم يتورع الناس عن أكل جثثهم تحت ظلام الليل .
ولكن شعوباً أخرى كثيرة ظهر لديها أكل لحوم البشر في صورة عادة أصيلة غير مرتبطة بفحط أو مجاعة أو ندرة في الغذاء الحيواني . فكان الإنسان عندها في عداد الحيوانات مأكولة اللحم ، بل كان عند كثير منها من أزكى هذه الحيوانات طعاماً ، وألذها مذاقاً . فقبايل الفيدجيين Fidjiens (تسكن أرخبيل

(١) تناول المقرئ في هذا الكتاب تاريخ المجاعات في مصر وأسبابها ، فذكر منها ستاً وعشرين مجاعة وقع منها قبل الإسلام هبت مجاعات ووقع منها بعد الإسلام عشرون مجاعة ، ولا يذكر المقرئ هذه المجاعات على سبيل المحصر ، فهناك مجاعات أخرى كثيرة حدثت في مصر ولم يعرض لها في كتابه .

فيدجي Fidji في ميلانيزيا بين هيريد الجديدة وجزائر تنجا) — التي تعد في مقدمة
أكل لحوم البشر، والتي يضرب أفرادها المثل في حديتهم بلحم البشر في لذة الطعم
وحسن المذاق، فيقولون إن طعم هذا الشيء لذيق كطعم لحم آدمي — تسكن
مناطق غنية بخيراتهما وما تجود به من غذاء حيواني ونباتي. — وكذلك الشأن
عند آكلي اللحوم من قبائل السكان الأصليين للبرازيل: ففي منطقتهم تعزr الأسماء
والحيوانات وتزيد كثيراً عن حاجة السكان للغذاء الحيواني. — وفي أفريقيا
تنتشر كذلك هذه العادة في مناطق غنية كل الغنى بثرواتهما في الحيوان
والنبات. فقبايل البنغالا في أعلى الكونغو لا ينفكون يشنون الغارات على
القبايل المجاورة لهم للحصول على أسرى يأكلون لحومهم، مع أن منطقتهم
من أغنى مناطق العالم في النبات والحيوان والأسماء. وقبايل الهوتنتوت Hottentot
(على ضفاف نهر أورنج بجنوب أفريقيا) لا تكفي بحظف الآدميين من القبايل
المجاورة لأكل لحومهم، بل كثيراً ما يقع التخاطف بينهم هم أنفسهم للغرض نفسه،
على الرغم من سعة مناطقهم وغناها بالثروة الحيوانية وخصوبة أرضها.

وقد يكون الباعث على أكل لحوم البشر مجرد الرغبة في التشفي والانتقام
والأخذ بالثأر من القاتل. فقبايل التيبى Typies التي تسكن جزر الماركيز
Marquises لا يأكلون إلا جثث أعدائهم ولجود إشباع رغبتهم في الانتقام. —
والسكان الأصليون لجزر سليمان Salomon بميلانيزيا لا يأكلون كذلك إلا لحوم
خصومهم ولا يفعلون ذلك إلا بقصد الإمعان في إذلالهم والتشكيل بهم، إذ يرون
أن أكل لحم الكائن هو أقصى ما يمكن أن تصل إليه إهوانته وتحقيره. — ولوحظ
هذا الباعث كذلك عند طوائف أخرى كثيرة من آكلي لحوم البشر، وخاصة
الساموائيين والماوريين وبعض عشائر السكان الأصليين لزيلندة الجديدة. — ومثل
هذا كان يحدث عند العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، فقد أكلت هند امرأة
أبي سفيان وأم معاوية كبدة حمزة عم الرسول عليه السلام بعد أن قتل في غزوة
أحد انتقاماً لمن قتل من أهلها في غزوة بدر.

وفي بعض الشعوب كان يعتبر أكل لحم الإنسان عقوبة توقع على مرتكبي بعض الجرائم الخطيرة . فكان في نظرها طريقة من طرق الإعدام أو ملحقا لازما من ملحقاته ، كالشنق والضرب بالرصاص وقطع الرأس بالمقصلة أو السيف والصعق بالتيار الكهربائي وما إلى ذلك من الوسائل المستخدمة في الوقت الحاضر .

ففي بعض جزر هيريد الجديدة *l'île des Lépreux, Nouvelles Hebrides* لم يكن المأكل لحومهم من أسرى الأعداء ولا من قسلاهم في الحروب ، وإنما كانوا من مرتكبي بعض الجرائم الخطيرة كالقتل وما إليه . — وعند قبائل الباتاك *Bataks* في سومطرة ، يوقع هذا الجزاء كذلك على المحكوم عليهم بالإعدام في بعض الجرائم الخطيرة وخاصة بعض جنایات القتل والزنا والحياة الوطنية ، وكان الموتورون وأقرباؤهم هم الذين يعهد إليهم بأكل المجرمين . — وفي ميلانيزيا ، حيث تقضى التقاليد بأن يؤكل أجزاء من الضحية الأدمية التي تقدم إلى الآلهة ، ينتهز فرصة وقوع جريمة ، فيعمد إلى من تثبت عليه ، أو من تلصق به على وجه ما ، ويقدم قربانا للآلهة ، ويؤكل بعض أجزائه .

وقد يكون الباعث على أكل لحوم البشر مجرد الرغبة في إضعاف الميت وجعل روحه عاجزة عن إحداث ضرر أو إلحاق أذى بالأحياء . فهو في هذه الحالة وسيلة للوقاية من الشر والقضاء على مصادره . فعند قبائل البوتوكودو *Botocudos* يعتمد المحاربون إلى أكل لحوم القتلى من أعدائهم لا شيء إلا لجرد الرغبة في وقاية أنفسهم مما عسى أن تلحقه بهم أرواح هؤلاء القتلى من أضرار لو بقيت أجسامها سليمة . فالقضاء على الجسم بأكله ينطوي في نظرهم على القضاء على الروح نفسها .

وعند كثير من آكلي لحوم الأعداء يقتصر على أكل الأعضاء التي يعتقد أنها مقر الروح أو مركز القوة والإفدام ، ويعتقد أن ذلك يجعل روح صاحبها عاجزة عن أن تشار لنفسها من الأحياء أو تلحق بهم ضرراً ما . ففي جزيرة جروتلاند يعتقد أن روح القتل مزودة بقوى تستطيع بفضلها أن تشار لنفسها من القاتل على أفسى وجه وأعنفه ، وأنه لا يمكن انتقام أذاها إلا بأكل قطعة من كبدها . —

وقد جرت العادة عند السكان الأصليين لسكويشاند Queensland عند ما يقتلون عدوا لهم أن يأكلوا كليته لاعتقادهم أنهما مركز القوة والحياة. — وعند قبائل الماؤورى Maoris يشرب دم الأعداء وتؤكل قلوبهم ويحتفظ للرؤساء بعيونهم اليسرى ، لاعتقادهم أن الدماء والقلوب والعيون اليسرى هي مقر القوة والجرأة والحياة . وأن أكلها يجعل أرواح الأعداء عاجزة عن أن تلحق أى ضرر بالأحياء وقد يكون الباعث على أكل جسم العدو أو القريب أو جزء خاص من أحدهما رغبة الآكل في أن تنتقل إليه صفات المأكول جميعها أو القوى التي يعتقد أنها كامنة في بعض أجزائه . فقبائل الشوشون Chochone (من الهنود الحمر) كانت تعتقد أن شجاعة العدو وجرأته تنتقلان إلى آكل لحمه . وقد جرت العادة عند الهورونيين Hurons (إحدى عشائر قبيلة الإيروكوا Iroquois من الهنود الحمر بأمريكا الشمالية) عند ما يعجبون بشجاعة أحد أعدائهم في القتال أن يحرصوا على أسره وينزعوا قلبه وبشوره ، ثم يقطعوه إربا صغيره يوزعونها على شبانهم وفتياتهم ليأطعموها حتى تنتقل إليهم صفاته . ويعتقد سكان ساحل العبيد Côte des Esclaves (على ساحل أفريقيا الغربي بجوار ساحل الذهب) أن القلب موطن الحكمة والذكاء والشجاعة معا ، ولذلك يحرصون على أكل قلوب من يقع أسيراً في أيديهم عن عرف عنهم عمق التفكير وحدة الذكاء وقوة الإقدام. — وجرت العادة في عشائر الكينبوند Kinbunda بأفريقيا الجنوبية الغربية عند ما يتوج ملك جديد ، أن يختار من بين الأسرى أكثرهم شجاعة ، ويقطع جسمه ، ويأطعم منه الملك الجديد وأفراد أسرته ، لتنتقل إليهم صفاته ، ويتسم العهد الجديد بقوة الإقدام والظفر على الأعداء. — وفي بعض عشائر أستراليا الوسطى لا يأكل لحم البشر إلا العجائز من الرجال والنساء ، ولا يأكل هؤلاء إلا لحوم الأطفال الصغار ، معتقدين أن ذلك ينقل إليهم نضارة ضحاياهم ويعيد إليهم شيئاً من شبابهم. — وفي عشائر أخرى من هذه المنطقة نفسها تذبح البنت ليأطعم منها أخوها إذا انتابه هزال أو ضعف لتنتقل إليه حالتها الصحية السليمة وبشفي من علته .

وقد يكون الباعث على أكل اللحم الإنسانى أن تنتقل إلى الآكل البركة التي يتلبس بها من يقدم قربانا إلى الآلهة من الآدميين . فعند السكان الأصليين لفلوريدا (أمريكا الشمالية) لا يؤكل لحم البشر إلا في مناسبات تقديم القربان الإنسانية . ولا يؤكل لحم إنسانى إلا من هذه القرايين . — وفي جزر هوايا (بولينزيا Hawaï archipelde Polénisie) لا يعد الإنسان من الحيوانات المأكولة اللحم ، ولا يتناول الناس اللحم البشرى في غذائهم العادى ، وإنما يفعلون ذلك في المناسبات الدينية فحسب ، فيتناولون قطعة من الأضحية الإنسانية التي تقدم للآلهة بقصد التبرك بها والإفادة مما تلبست به في أثناء تقديمها من قوى وخصائص وصفات . — وفي نييجيريا كانت طقوس الأضحية الإنسانية التي تقدم إلى الآلهة لا تعد كاملة إلا إذا أكل منها الرؤساء الدينيون وبعض طوائف الشعب . — وفي عشائر الأزتك Aztèques (السكان الأصليون للمكسيك) حيث كان يبلغ عدد من يقدم ضحايا للآلهة من الآدميين زهاء خمسين ألفاً كل عام (١) كانت تؤكل من كل أضحية إنسانية الأجزاء التي انبثق منها الدم في أثناء تقديمها في المذابح الدينية . — وقد جرت العادة لدى السكان الأصليين لنيكاراغوا Nicaragua (بأمريكا الوسطى) أن توزع الأضحية الإنسانية التي تقدم إلى الآلهة بنظام خاص على طبقات العامة والخاصة ليطعموا منها : فيعطى قلبها لكبار رجال الدين ؛ وأطرافها للملك ؛ وفخذاها لمن أسرها ؛ وأمعائها لمن يدقون طبول الحرب ؛ ويفرق ما بقى منها على طبقات الشعب الأخرى .

وفي بعض الأحوال كان يعتقد أن أكل لحم الإنسان أو شرب دمه يحقق فوائد روحية أو طبية للآكل أو الشارب ، وكان الناس لا يقدمون على ذلك إلا لتحقيق لديهم هذه الفوائد . فعشائر البنسكين بميلانيزيا (سكان جزائر بانك Banks بميلانيزيا) كانوا يعتقدون أن ذلك يزود الآكل أو الشارب بقوى

(١) انظر ص ٨٩ من الجزء الأول من هذا الكتاب .

وخصائص لا تقل كثيرا عن قوى الآلهة وخصائصهم . — وفي أستراليا كان يعتقد أن السحرة والأطباء قد اكتسبوا القدرة على السحر وشفاء المرضى من أكلهم للحوم البشر . — وقد جرت العادة لدى السكان الأصليين لتسمانيا Tasmanie أن يحفظ الدم الإنساني وتتناول جرعة منه للتقوية والشفاء من بعض الأمراض . — وفي الصين القديمة كان الناس يأكلون قلوب المحكوم عليهم بالإعدام وأكبادهم ويشربون دماهم معتقدين أن ذلك يفيدهم في تقوية أجسامهم وسلامة صحتهم . — وفي بكين يجمع الدم المنبثق من المحكوم عليه بالإعدام عندما تقطع رأسه ، ويغمر في دمه بعض أنواع النخاع ، ويباع هذا المزيج — الذي يطلقون عليه اسم « الحبز الدموي » ، Pain de sang — على أنه دواء ناجع للصابين بفقر الدم (الأنيميا) .

وقد يكون الباعث على ذلك شدة العطف على الشخص ؛ والشفقة عليه ، والتفاني في حبه ، والحرص على أن يمتزج جسمه بجسم الآكل ، وأن يتخذ مقره الأخير في جوفه وأحشائه فلا يذهب شيء منه إلى التراب . وتبدو هذه البواعث على الأخص عند الشعوب التي يأكل فيها الناس المتوفين من أبنائهم وآبائهم وأهلهم وأحبائهم وذوى العاهات من أقربائهم ومن يبلغون منهم أرباب العمر . فقبايل الدييري Diyerie الأسترالية تعتقد أنه إذا لم يؤكل المتوفون من الأقرباء فإن أرواحهم لا يستقر لها قرار ولا تنعم بهدوء . وتصبح مصدر شر مستطير للعشيرة . — وعشائر الباتاك بسو مطره Les Bataks de Sumatra يعتقدون أنهم إذا يأكلون العجائز وذوى العاهات من أقربائهم لا يفعلون ذلك لإشباع نفوسهم الغذائية ، وإنما يفعلونه رحمة بهؤلاء وإشفاقا عليهم . — وعند عشائر البوتوكودوس Botocudos تأكل الأمهات المتوفين من أولادهم بدافع من العطف والحنان . — وتعتقد عشائر الميورونا Maycrunas أنه أكرم لجثة القريب أن يأكلها قريبة من أن تترك طعاما للودود والحشرات .

أكل لحوم البشر لا يستلزم التوحش ولا قسوة الطبع إشراف هذه العادة على الانقراض

وقد لاحظ الباحثون أن هذه العادة ليست ملازمة للتوحش ولا لقسوة الطباع ، وأن معظم الشعوب التي تمارس أكل لحوم البشر شعوب سوية تمتاز بالوداعة ولين الخلق واحترام النظام الاجتماعي ؛ بل لوحظ أن انتشار هذه العادة عند البدائيين الذين وصلوا إلى مستوى لا بأس به من الثقافة والنظام أوسع من انتشارها عند العشائر الممعة في البدائية والبعيد عن أسباب الحضارة . فعشائر الكابر والجويونافي والكارايب Cabres, Guipunavis, Caraïbes (من السكان الأصليين لأمريكا) تعد من أقوى عشائر الأورينوك Orénoques وأرقاها وأدناها إلى الحضارة . ومع ذلك فهي وحدها ، من بين عشائر الأورينوك جميعا ، التي انتشر فيها أكل لحوم البشر ؛ بينما أخواتها المتأخرة عنها في الحضارة تنفر منه كل النفور . — ومع أن عشائر التويس التي تسكن أواسط البرازيل تعد من أرقى عشائر هذه المنطقة حضارة ونظاما ، فإنها تمتاز بعراقها في أكل لحوم البشر . — وعشائر الفيدجيين (تسكن أرخبيل فيدجي Fidji في ميلانيزيا ، بين هبريد الجديدة وجزائر تنجا) والماورين Maoris (السكان الأصليون لزيلندة الجديدة) ، التي تعد في مقدمة آكلي لحوم البشر ، كانت قد وصلت إلى درجة كبيرة من الحضارة ، وكانت أرقى كثيراً من جيرانها الذين كانوا لا يمارسون هذه العادة . — وعشائر الباتاك بسومطرة Bataks ، التي تأصل فيها أكل لحوم البشر ، قد وصلت في سلم الحضارة إلى درجة جعلتها تخرج حروفاً أبجدية لتدون بها منتجات أفكارها ، متأثرة في ذلك بحضارة جيرانها الهنود . — وما لاحظته الباحثون بهذا الصدد في أمريكا وآسيا وأستراليا لوحظ مثله في أفريقيا . فعشائر الأقزام في أواسط أفريقيا les tribus naines de l'Afrique Centrale ، التي تنفر

كل النفور من أكل لحوم البشر، لا تعد شيئاً مذكوراً في الحضارة والتقدم إذا قيست بعشائر النيام نيام Niams - Niams والمنبوتو Monboutu التي يضرب بها المثل في النهم إلى هذا الصنف من اللحوم .

وفي هذا يقول شاليه Félicien Challaye في كتابه عن الكنفو الفرنسية Le Congo Français (الذي ظهر سنة ١٩٠٩) : « إن آكل لحم البشر ليس انساناً متوحشاً مجرداً من طبيعته الإنسانية ، بل إنه إنسان عادي ، بل قد يكون رحيماً دمث الأخلاق ، ولكنه يعد أخاه الإنسان في جملة الحيوانات مأكولة اللحم ، بل يفضل أحياناً لحم الإنسان على لحم غيره من الحيوان . » وقد ذكر قصة رويت له ، لم تجر حوادثها - على حد قوله - في أدغال أفريقيا ولا في قراها النائية ، وإنما جرت في مدينة من أشهر مدن أفريقيا الوسطى وهي برازافيل Brazzaville عاصمة الكنفو ، ولم يكن أبطالها من متوحش هذه القارة ، بل كانوا جنوداً إفريقيين في الفرقة الأجنبية في الجيش الفرنسي ، حصلوا على حظ لا بأس به من الحضارة والثقافة ، حتى إنهم كانوا يجيدون الحديث باللغة الفرنسية . وملخص هذه القصة أن هؤلاء الجنود قد حملوا يوماً إلى أحد جراحي الجيش زنجياً قد أصيب منذ أيام في فخذه بجرح عميق أهمل علاجه حتى سرى فيه القسَم وانتنت رائحته . فلم يجد الجراح وسيلة لإنقاذ حياته إلا بتر فخذه . وبعد أن فرغ من عمليته طلب إليه الجنود أن يعطيهم الفخذ المبتورة لياًكلوها . فقال لهم الجراح إن راحتها مننته كريمة وأنها لذلك لا تصلح للآكل . فأجابوه بأنه لا أثر لرائحتها في صلاحيتها للآكل ، لأنه لا تؤكل رائحة اللحم وإنما يؤكل اللحم نفسه . وقد حاول عبثاً أن يثنىهم عن رغبته ، ويبين لهم مضار اللحم الآدمي على العموم . ولما رأى منهم إصراراً على ما يريدون ، وعلم أنهم في حالة دفن الفخذ سينبشون عينا فناء المستشفى ليخرجوها ويأكلوها ، لم يسعه إلا أن يغمرها أمامهم بسائل يعرفون أنه سام يقتل لساعته (١) .

هذا ، وقد انقرضت الآن عادة أكل لحوم البشر عند معظم الشعوب التي كانت تمارسها ، وذلك تحت تأثير الاستعمار الأوروبي ، ومحاربة الأوروبيين المستعمرين لها ، واختلاط هذه الشعوب بغيرها . - ولكنها مع ذلك لا تزال إلى الوقت الحاضر متبعة عند بعض العشائر في أواسط أفريقيا وغيرها .

من أهم مراجع هذا الفصل

Westermarck : L'Origine et le Developpement des Idées Morales
T. II. Chap - XLVI (trad - française, p.p. 537 - 566).

وكان هذا هو أهم مرجع لنا في هذا الفصل . وقد رجع مؤلفه إلى مئات من المراجع الهامة في مختلف اللغات ، وأحال القارئ إلى هذه المراجع في تعليقاته .

Challaye : Le Congo Français (Paris 1909).

Letourneau : L'Evolution de la Morale.

: La Sociologie d'après l'Ethnographie.

عبد اللطيف البغدادي : الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر
المقريزي : إغاثة الأمة ، بكشف الغمة .

الفصل الثاني

انحراف الغريزة الجنسية

- ١ -

اختلاف مظاهر هذا الانحراف

قد يتخذ إشباع الغريزة الجنسية صوراً شاذة خارجة عن طرق الإشباع الطبيعي . ومن بين هذه الصور صورة كان لها شأن كبير في تاريخ الأخلاق الإنسانية ، وهي التي تتمثل في اتصال شخصين من جنس واحد أحدهما بالآخر ، أى في اتصال الذكر بالذكر والأنثى بالأنثى . وهذه الصورة هي التي يطلق عليها عادة اسم الشدوذ الجنسي ، وهي التي ستقتصر عليها دراستنا في هذا الفصل .

* * *

ويبدو هذا النوع من الانحراف الجنسي من وجهة النظر الاجتماعية والخلقية على ثلاثة وجوه . فيبدو في مجتمعات قليلة في صورة تفرها العادات السائدة والقوانين والعرف الخلقى على السواء . ويبدو في مجتمعات أخرى قليلة كذلك في صورة تحتملها العادات السائدة وإن حاربتها القوانين وتنافرت مع العرف الخلقى . ولكنه في معظم الشعوب الإنسانية يبدو في صورة مسلك شاذ لا تقره قوانين الشعب ولا نظمه الخلقية ، ويتنافر كذلك مع عاداته وتقاليده .

وسنقف فيما يلي على كل مظهر من هذه المظاهر الثلاثة فقرة على حدة ، ثم نتكلم بعد ذلك على العوامل التي تؤدي إليه .

الانحراف الجنسي

حيث تقره نظم الشعب وأخلاقه وعاداته

يبدو الشذوذ الجنسي في هذا الوضع الممغن في الغرابة لدى عدد قليل من الشعوب الإنسانية . فالتوراة والقرآن يحدثاننا عن قوم لوط (أهل مدينة سودوم Sodom بفلسطين) ، وأنهم كانوا يأتون الذكران من العالمين ، ويذرون ما خلق لهم ربهم من أزواجهم ، وأن هذه العادة كانت شائعة لديهم جميعا ، فلم يكن منهم رجل رشيد ، وأنهم كانوا يفضلون إتيان هذه الفاحشة مع الغرباء عن بلدتهم ، وأن نظمهم القانونية والخلقية كانت لا ترى غضاضة في مسلكهم هذا ، ولذلك كانت نصائح لوط لهم بالإفلاع عن هذا المسلك موضع سخريتهم وازدراؤهم ، بل لقد احتمل منهم في سبيل رسالته كثيراً من صنوف العنت والأذى ، وأن الله تعالى ، بعد أن أملى لهم لعلمهم يزدجرون ، أخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فأهلكهم جميعا ، ودمر مدينتهم فجعل عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل ، بعد أن نجي لوطاً والمستقيمين من أهله (١) .

ومع أنه لا يوجد في قصائد هوميروس (الإلياذة والأوديسيا (٢)) ولا في قصائد هيزيود (النيوجونيا والأعمال والأيام (٣)) ما يدل على انتشار هذه

(١) انظر على الأخص آيات ٧٧ — ٨٣ من سورة هود (وهي سورة ١١) وآيات ١٦٠ — ١٧٤ من سورة الشعراء (وهي سورة ٢٦) ، ومن آيات هاتين السورتين اقتبسنا كثيراً من عبارات هذه الفقرة . — وانظر الإصحاحين الثامن عشر والتاسع عشر من سفر التكوين .

(٢) انظر كتابنا في « الشعر الحماسي عند اليونان ومبلغ دلالاته على عقائدهم ونظمهم الاجتماعية » .

(٣) انظر كتابنا في « أقدم البحوث الاجتماعية عند قدماء اليونان — هيزيود والشعر التعليمي ... » .

الفاحشة عند اليونان في عصورهم السابقة للتاريخ ، فإنه من المحقق أنها قد شاعت لديهم شيوعا كبيرا في عصورهم التاريخية القديمة حتى أصبحت قريبة من النظم المقررة في العلاقات الجنسية . صحيح أن قانونا من قوانين أثينا يقرر أن الغلام الذي يفعل هذا الفعل للحصول على المال يجرّد من جنسيته ويحظر عليه أن يشهد حفلة من الحفلات التي تنقام في الأعياد الوطنية وأن يجلس في الساحة الشعبية العامة للمدينة (التي كانت تسمى لديهم أجورا = Agorat = principale place publique dans les villes) ، وأنه إذا تسلل إلى حفلة من هذه الحفلات أو إلى ساحة من هذه الساحات يحكم عليه بالإعدام . وصحيح أن قانونا من قوانين إسبرطة يعد عمل الغلام الذي يقبل الفاحشة للحصول على المال جريمة يحكم فيها قضاة المدينة (الأفور Les Aphores) بالنفي أو الإعدام . ولكن كلا القانونين يفيد أن هذا الفعل لا يعتبر جرما إذا كان قد ارتكب بمحض الاختيار وبمجرد إشباع الرغبة لا للحصول على المال ، ويفيد كذلك أنه لا مسئولية على الطرف الموجب في هذه الفاحشة . هذا إلى أنه من الثابت أنه قد جرت العادة عند قدامى اليونان ، سواء في ذلك الأثينيون والإسبرطيون ، ألا يبحث في طبيعة هذه العلاقات ولا في تفاصيل الباعث عليها للوقوف عما إذا كانت منبعثة عن رغبة أو عن غرض مادي ، وأنها كانت محتملة في جميع أوضاعها ، بل لقد كانت موضع نخر واعتزاز من مرتكبيها وموضع تحميد من الشعب ومن مشرعيه وحكائه وفلاسفته إذا كانت منبعثة عن حب متبادل . ففي محاوره الكبير فلاسفتهم أفلاطون عن الحب والجمال وهي التي سماها فيدر Phèdre باسم أحد أبطالها ، يقول أفلاطون على لسان فيدر : إنه لا يتصور منزلة من السعادة لغلام في مستقبل حياته أرقى من أن يحظى بعشيق فاضل ، ولا منزلة من السعادة لرجل أرقى من أن يكون عاشقا لغلام جميل ؛ لأنه لا يوجد ما هو أقدر من هذا النوع من الحب في غرس العادات النبيلة الفاضلة (١) . وكان الشائع عند قدامى اليونان والمتداول على أقلام كتّابهم

Platon, Symposium, p. 178, cité par Westermarck op. (١)
cit. II, 461,

وفلاسفتهم ان أشد الشعوب مقاومة وصلابة في الحروب هي التي ينتشر فيها حب الشبان للشبان حبا جنسيا ، وأن جيشا يتألف من شبان يحب بعضهم بعضا هذا النوع من الحب ، ويقاثلون صفا واحدا جنبا لجنب ، لا يقف أمامه أى عدو مهما كان بأسه وقوته ، بل إنه ليستطيع أن يفزو العالم أجمع ويدوخه .

ويدل الأدب اليونانى القديم كذلك على انتشار حب النساء للنساء حبا جنسيا . صحيح أن الانحراف بين النساء لم يوجه إليه من الملاحظة وتقرير الاحكام عند اليونان — ولا عند غيرهم من الشعوب — ما وجه إلى نظيره بين الرجال . ولكن هذا لا يدل على أنه كان أقل انتشاراً منه . فالانحرافات النسائية التي من هذا النوع لا تعرف ولا تستوقف النظر كما تعرف وتستوقف النظر نظائرها عند الرجال . — هذا إلى أن العرف الخلقى لا يعنى بهذا النوع من الانحراف بين النساء كما يعنى بنظائره عند الرجال .

ومع أن قانونا قديما جدا من قوانين روما يسمى قانون « سكنتينيا » أو « سكاتينيا » Lex Scantinia, au Scatinia يعاقب من يرتكب الفاحشة مع غلام حر بغرامة مالية ، فإنه من المحقق أن هذا القانون قد ظل معطلا غير معمول به ، وأنه لم يرد في قوانينهم الأخرى الصادرة في عصورهم القديمة ذكر لهذا الجرم ولا لعقوبته . على أن هذا القانون نفسه يفيد أنه كان من المباح أن يرتكب هذا الفعل مع رقيق . وتدل روايات الثقات من المؤرخين أن هذا الانحراف كان شائعا شيوعا كبيرا عند قدامى الرومان ، حتى إن معظم بيوت الأغنياء والمترفين ، بل بيوت المتوسطين من الناس ، كانت تزدان بطائفة مصطفاة من الرقيق تتألف من غلمان مخنثين بارعى الجمال يستخدمون في اللهو والشراب وفي اشباع النزوات المنحرفة لمواليهم . وقد ارتفع ثمن هذا الصنف من الغلمان لشدة الطلب عليه عند قدامى الرومان حتى بلغ في أواخر القرن السادس الميلادى ، بحسب رواية المؤرخ بوليبي Polybe أكثر من ستة آلاف جنيه

بعملتنا الحاضرة (= à peu près 56000 francs or = 1140 livres or ^(١)). وفي عصر الإمبراطورية الرومانية جرت العادة في الأسرات الأرستقراطية عندما يبلغ الغلام الحلم أن يمنح رقيقا جميلا مقاربا له في السن ليُشبع به نزواته الجنسية الناشئة . بل كثيرا ما كان يحدث في هذا العهد أن يتزوج رجل بغلام وأن يجري هذا الزواج الغريب في حفل يشبه الحفل الذي يقام للزواج العادي .

ولهذه الأوضاع أشباه ونظائر لدى كثير من الشعوب البدائية نفسها . فقد لاحظها الرحالة وعلماء الإثنوجرافيا لدى السكان الأصليين لأمريكا ، وذكروا أنه يوجد في كثير من هذه القبائل غلمان مختشون يلبسون زي النساء ، ويقومون بوظائفهن ، ويعيشون أحيانا مع الرجال في صورة منظمة دائمة كما يعيش الزوجات والخليلات مع بعولتهن وأخذانهن . ولاحظوا كذلك أن هذا المسلك لا تقره العادات السائدة فحسب ، بل يساير كذلك النظم المقررة ولا ينبو عن العرف الخلقى . - وقد جرت العادة عند السكان الأصليين لمنطقة كاديلاك Kadiak (على سواحل بحر بيرنج) عندما يجد الأب أن أحد أبنائه يبدو عليه مظاهر أو اتجاهات نسوية أن ينشئه كما تنشأ البنات ، فيلبس لبسهن ، ويقوم بأعمالهن المنزلية ، ولا يسمح له بأن يزاول عملا من أعمال الرجال ، ولا أن يصاحب في طفولته إلا الفتيات والنساء . وفي سن العاشرة إلى الخامسة عشرة يزوجه أبوه برجل من الأثرياء . وكان كل من يحصل على واحد من هؤلاء الغلمان يعد نفسه ويعده الناس ذا حظ عظيم . وكان هؤلاء الغلمان أنفسهم موضع تقدير الشعب ، حتى إن الناس كانوا يعتبرونهم من طوائف السحرة والكهان . - وفي بعض عشائر الإسكيمو الشرقية وبعض عشائر السكان الأصليين للبرازيل ينتشر الشذوذ الجنسي بين النساء . فيوجد نسوة مسترجلات ،

لا يزالن أى عمل من أعمال النساء ، ويتشبهن بالرجال فى كل شىء ، فيلبسن لبسهم ، ويخلقن رهوسهن كما يخلقون ، ويذهبن للصيد وساحات القتال مزودات بالنبال والسهم كما يفعلون . وتفضل الواحدة منهن أن تموت على أن تكون لها صلة جنسية مع رجل ما . وتحصر كل واحدة منهن على أن يكون لها زوجة من الأنثى تعيش معها عيشة دائمة منظمة كما يعيش الزوج مع زوجته . ولا تجد أعمالهن هذه أية مقاومة من نظم الشعب ولا من تقاليده ولا من عرفه الخلقى . —

ولاحظ لاس كازاس Las Casas أن الشذوذ الجنسى بين الرجال منتشر لدى السكان الأصليين للمكسيك فى كثير من أريافه ، وأن الجمهور ينظر إليه هناك على أنه أمر مباح . ويظن هذا الباحث أن هذه التقاليد كانت سائدة فى جميع بلاد المكسيك فى أقدم العهود ، وأن محاربة هذه الأعمال قد حدثت فيما بعد .

وعند السكان الأصليين لبعض جزر الملايو وأندونيسيا يبدو الشذوذ الجنسى كذلك فى صورة يقرها العرف العام والعادات والتقاليد . ف لدى عشائر الباتاك Batak بسومطرة كان الشذوذ الجنسى لا يعتبر جرما ولا يعاقب مرتكبوه . — وفى جزيرة بالى Bali (من جزائر أندونيسيا يفصلها عن جاوة بواغاز بالى) كان يمارس هذا الشذوذ فى نطاق واسع بين الرجال بعضهم مع بعض وبين النساء بعضهم مع بعض ، بدون أن يكون فى ذلك ما يتنافر مع القانون ولا مع الأخلاق ؛ بل لقد كان يسمح هناك باتخاذ الشذوذ الجنسى السلبى مهنة للحصول على الرزق وإشباع الشهوات . — وفى عشائر الدياك Dayaks يوجد صنف من الرجال يسمون البازير Basir يتزويون بزوجات النساء ، ويتصل بهم الرجال فى الأعياد وغيرها ، بل يتزوج معظمهم بالرجال بالطقوس نفسها التى يتم بها الزواج العادى .

وفى عشائر الشنجالى Chingalis التى تسكن المنطقة الجنوبية من أستراليا الوسطى ، يظل عدد كبير من شيوخ القوم عزابا ، ولكن يتخذ كل منهم لنفسه خدنا أو خدنين من صغار الغلمان . ولاحظ الرحالة أنهم يساكنون هؤلاء الغلمان ويفارون عليهم ويعاشرهم معاشرمة الزوجات من جميع الوجوه . — وفى

جزر تاهيتي أو جزر الشركة ببولينزيا Tahiti, ou Tati ou archipel de la Société
يحد الشذوذ الجنسي تشجيعاً من رجال الدين أنفسهم ، وتروى
أساطيرهم أن الآلهة أنفسهم يمارسونه فيما بينهم .

وفي مدغشقر كان يوجد صنف من الغلمان المختلئين يعيشون عيشة النساء
ويتصلون بالرجال . وقد كتب عن هؤلاء باحث قديم من رجال القرن السابع
عشر هو دوفلاكور de Flacours في كتابه عن تاريخ الجزيرة الكبرى
مدغشقر ، يقول : « يوجد صنف من المختلئين فاقدى الرجولة يسمون تسيكات
Tsekats يكرهون النساء ويفارون منهم ، ولكنهم يتشبهون بهن في زين
وحركانهن ، بل يسمون أنفسهم أحياناً بأسماء الإناث . ولا ينفكون يبحثون عن
الشبان ويغرونهم بالهدايا ليتصلوا بهم . ومن الغريب أن العقيدة السائدة لديهم
ولدى طوائف الشعب أنهم بذلك يرضون آلهتهم (١) » .

الانحراف الجنسي حيث تحتمله عادات الشعب

وإن حاربه القوانين ونظم الأخلاق

يبدو الشذوذ الجنسي على هذا الوضع لدى عدد غير يسير من الشعوب
الإنسانية البدائية وغيرها في شتى أنحاء العالم وفي مختلف مراحل التاريخ .

فقد انتشر الشذوذ الجنسي في بلاد الصين في العصور الحديثة نفسها انتشاراً
كبيراً حتى أصبح الناس يفضون النظر عنه ، وأصبح محتملاً من العادات الشعبية
السائدة ، وحتى لقد أنشئ في كثير من المدن الصينية بيوت للبقاء تركب فيها

de Flacours : Histoire de la Grande Isle Madagascar, (١)
p. 86; cité par Westemarck, op. cit. II, 445.

الفاحشة مع المخشئين من الغلمان . وكثير من الآباء المعوزين في الصين كانوا يبيعون أبناءهم في سن العاشرة يبيع الرقيق لنخاسين يتجرون بأعراضهم في أعمال الشذوذ الجنسي . ولكن القانون الصيني يعد هذا الفعل جريمة ويوقع عليه عقوبات قاسية . فإذا كان الطرف السالب في الجريمة بالغاً أو جاوز الثانية عشرة وحدث ذلك برضاه فإنه يجلد مائة جلدة ويعاقب مدة شهر كامل بعقاب « الكنج Gang » (ويتمثل عقاب الكنج في أن يؤتى برميل أو ما شاكله ويشق في قاعه ثقب تمر منه رأس المجرم ورقبته ، ويظل حاملاً هذا الثقل في هذا الوضع على كتفيه طول المدة المحددة لعقابه) . وإذا كان الفعل حدث على الرغم منه وبوسائل العنف والإكراه وهو في هذه السن فجريمة الطرف الموجب جريمة اعتداء على العرض توقع عليها العقوبات القاسية التي توقع على هذا النوع من الجرائم . وإذا لم يكن الطرف السالب بالغاً وكان دون الثانية عشرة اختلفت كذلك عقوبته وعقوبة الطرف الآخر تبعاً لمبلغ رضاه بالفعل أو مقاومته له وتبعاً لسوابقه في هذه الفاحشة . — غير أن الشعب لا ينظر إلى هذه الأمور على أنها جرم كبير ولا يوجه إلى مرتكبيها أي ازدراء أو احتقار . بل لأنه لينظر إليها أحياناً على أنها من أعمال العظيمة الأريستقراطية ؛ حتى لقد كان ثمة غلمان من هذا الصنف في بلاط الإمبراطور نفسه ومن بين حاشيته . وكل ما هنالك أنه كان يعتقد أن هذه الأعمال قد تسبب بعض أمراض العيون (١) .

وتاريخ الشذوذ الجنسي في اليابان يرجع إلى عصور سحيقة في نظر بعض الباحثين ؛ بينما يرى آخرون أنه لم ينتشر في هذه البلاد إلا بعد دخول البوذية فيها في القرن السادس عشر الميلادي . ومهما يكن من شيء بشأن نشأته الأولى في اليابان فإنه مما لا شك فيه أنه قد انتشر في هذه البلاد انتشاراً كبيراً ، وأخذ الشعب ينظر إليه على أنه أمر عادي . بل إن كثيراً من القساوسة البوذيين كانوا — ولا يزالون — يعيشون في اليابان مع أخدان لهم من الغلمان يتفانون

في حبهم والحدب عليهم . وحتى منتصف القرن التاسع عشر كان في اليابان بيوت خاصة لهذا النوع من الشذوذ . وفي عصر الفروسية اليابانية كان أدعى للفخر والعظمة للرجل أن يكون عشيقه غلاماً من أن تكون عشيقته امرأة . ولا يزال كثير من اليابانيين في الوقت الحاضر يعتقدون أن هذه الأعمال تكسب الرجال قوة وعافية ، وأن المناطق التي تنتشر فيها أعمال الشذوذ الجنسي يمتاز رجالها عن رجال المناطق التي لا تنتشر فيها هذه الأعمال ببسطة الجسوم وقوتها وجمالها . بل إن القانون الياباني نفسه لم يعرض لهذه الأعمال ولم يضع لها عقوبات إلا بعد ثورة اليابان سنة ١٨٦٨ . ومع ذلك فإنها لا تزال في الوقت الحاضر منتشرة في معظم بلاد اليابان ، وإن كان انتشارها في جنوبيه أكثر من انتشارها في شماليه . غير أنه توجد مناطق في اليابان تكاد تكون خالية منها .

وكانت العادة جارية في بعض مناطق ألبانيا ، عندما يتجاوز الغلام السادسة عشرة من عمره ، أن يخادن غلاماً جميلاً تتردد سنه بين الثانية عشرة والسادسة عشرة ، وكانت العلاقات بينهما لا تخلو من هذا الشذوذ .

ويظهر من كثير من الشواهد التاريخية أن الشذوذ الجنسي كان منتشراً انتشاراً كبيراً في جزر اسكنديناوة (السويد والنرويج) منذ أقدم العصور . ولا أدل على ذلك من اشتغال اللغات الإسكنديناوية القديمة على مجموعة كبيرة من الألفاظ الخاصة المعبرة عن عمليات هذا الشذوذ وأوضاعه . ويبدو أنه في عصورهم القديمة ما كان ينظر بعين الازدراء إلا للطرف السالب في هذا الشذوذ ؛ أما الطرف الآخر فلم يكن عمله جريمة في نظر الناس بل كان موضع فخر واعتزاز ، بدليل أنه في بعض ملاحمهم القديمة يفتخر بطل القصة بأنه قد أنجب أولاداً من غلام جميل اتصل به ! ويظهر كذلك أن هذا الشذوذ لم ينتشر في أي بلد أوروبي في الوقت الحاضر مقدار انتشاره في السويد والنرويج حتى كاد الناس هناك لا يرون فيه خروجاً كبيراً على مبادئ الأخلاق .

ويروي كثير من أقاموا بواحة سيوة المصرية أن كثيراً من الرجال هناك

يتخذون من الغلمان أخداما لهم ويستخدمونهم فيما يستخدم فيه النساء ، وأن ذلك يتم أحيانا في صورة زواج متفق عليه ، على الرغم من أن القانون والعرف الخلقى يحرمان هذه الأعمال .

وعند السكان الأصليين لجمهورية بيرو وأمريكا الجنوبية يوجد في بعض المعابد غلمان مختشون ينظر إليهم على أنهم قسيسون ورهبان ، ويشاع أن الآلهة أنفسهم يتصلون بهم في بعض أيام الأعياد ، وتنزل أعمالهم هذه منزلة تضحية وقربان يقدمونها للآلهة . غير أن حكام بيرو وأمراءها الذين كانوا يسمون الإنكا Incas كانوا يتجاهلون هذه الأمور ، وكانوا يوقعون على من تثبت عليه جريمة من هذا القبيل عقوبات شديدة ويحرصون على أن يشهد عذابه طائفة كبيرة من أفراد الشعب ليكون عبرة للجميع .

ومع أن الشذوذ الجنسي كان منتشرا انتشارا كبيرا لدى السكان الأصليين للمكسيك ، ومع أنه في الأرياف المتطرفة كان الجمهور يكاد ينظر إليه على أنه أمر مباح ، ومع أنه يظن أن هذه التقاليد كانت سائدة في المكسيك في أقدم عهوده كما سبقت الإشارة إلى هذا كله (١) ، فإنه من المحقق أن شرائع هذا الشعب وعرفه الخلقى في العهود اللاحقة قد اعتبرته من كبريات الجرائم ، حتى لقد كان يوقع على مرتكبيه عقوبة الإعدام . ولكنه كان على كل حال أمر تحتمله العادات السائدة في البلاد .

وفي منطقة كمبرلي Kimberly في غرب استراليا (وهي غير مدينة كمبرلي في اتحاد جنوب أفريقيا) لا يقر العرف الخلقى للسكان الأصليين أعمال الشذوذ الجنسي ، ويتظاهر الناس هناك بالاشمئزاز منها ، وينظرون إليها نظرتهم إلى فاحشة محرمة . ومع ذلك فإن العادة قد جرت عندهم ، حينما لا يجد الشاب فداء يتزوجها ، أن يتزوج غلاما صغيرا بين الخامسة والعاشرة من عمره . ويطلقون

(١) انظر السطور ٧ — ١٠ من ص ٢٣ .

على هذا الصنف من الغلمان اسم « الشوكادو » Choukadou أو الملاونجا Mullawonga . ويراعى في هذا الزواج جميع الطقوس التي تراعى في الزواج بالإناث ، وتترتب عليه جميع نتائجها ، حتى إنه ليحرم على الزوج أن يتزوج أو يقرب أم « الشوكادو » الذي تزوج به ، كما يحرم عليه ذلك حينما تكون الزوجة أنثى . — ولما كان الرؤساء وكبار القوم في هذه العشائر يستأثرون بالنساء فإن كثيراً من الشبان قد يصل الواحد منهم إلى الثلاثين أو الأربعين من عمره بدون أن يتيسر له الحصول على زوجة من النساء . ومن ثم نشأت هذه العادة ، واتجه كثير من الشبان إلى الزواج بصغار الغلمان . ومع أنهم يسمون الزوج « حاميا » (بيلالو Bilalou) للغلام ، ويتحاشون أن يصرحوا بحقيقة ما يحدث بينهما من علاقات ، فإنه بما لا شك فيه أنه يحدث بينهما ما يحدث بين الزوج وزوجه .

— ٤ —

الانحراف الجنسي حيث لا تقره العادات السائدة

ولا القوانين ولا العرف الخلقى

يبدو الشذوذ الجنسي على هذا الوضع كما قلنا عند معظم الشعوب الإنسانية بدائياً ومتحضرها في مختلف مراحل التاريخ .

فع أن هذا الشذوذ منتشر عند الإيرانيين انتشاراً كبيراً منذ أقدم عهودهم في صورة عادة أصيلة لهذا الشعب على ما يرجحه بعض الباحثين ، ^١ أو في صورة عادة دخيلة انتقلت إليهم من اليونانيين على ما يرجحه هيرودوت ، فإن قوانينهم وعاداتهم ونظمهم الخلقية لم تفتر عن محاربته في مختلف عصورهم ، حتى قبل اعتناقهم للإسلام . فالديانة الزرادشتية التي كانت سائدة لديهم قبل الإسلام تقسو كل القسوة

في عقاب هذا الشذوذ كما تدل على ذلك أسفارها المقدسة . ففي كتاب د. القانديداد Vendidâd (وهو قسم من سفر الأستاق أو الأستا Avesta ، وهو أهم أسفار زرادشت) أن هذا الجرم لا كفارة له ولا تقبل من صاحبه توبة ، وأن مرتكبه يعاقب في الدنيا بالإعدام ، ويدخر له في الآخرة عذاب دائم أليم . وحتى إذا كان هذا الفعل قد ارتكب مع آخر بطريق الإكراه فإن هذه الأسفار لا تعفي المجنى عليه من الجزاء ، وتوجب أن توقع عليه عقوبة بدنية . وتعتبر هذه الأسفار هذا الشذوذ أشد تعديا على حدود الله من قتل رجل عادل مستقيم ، كما توجب على كل شخص يصادف رجلين يرتكبان هذا الجرم وهو مسلح أن يقطع رأسيهما ويفقأ بطنيهما ويخرج أمعاءهما ، — وغنى عن البيان أن تشديد العقوبة لجريمة معينة بالذات في شعب ما دليل على انتشار هذه الجريمة بين أفرادها وعجز المشرع عن القضاء عليها .

وهو كذلك منتشر انتشاراً كبيراً عند اليهود منذ أقدم عصورهم . ولكن شريعتهم تنظر إليه نظرتها إلى كبريات الجرائم ، وتسوى بينه وبين قتل النفس في الجزاء . فبحسب هذه الشريعة يحكم بالإعدام على مرتكب هذا الجرم سواء أكان إسرائيلياً أم أجنبياً مقيماً في بلد إسرائيل . وتقرر أسفار التوراة أن شيوخ هذه الفاحشة عند الكنعانيين هو الذي دنس بلادهم وأنزل عليها سخط الإله ونقمته ، فدمرها تدميراً وجعل عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود (١) .

ومع انتشاره في الأمم الأوروبية المسيحية ، فإن ديانتهم تعتبره من كبريات الجرائم . فالرسول بولس يرى أنه أقصى ما يمكن أن يصل إليه الانحلال الخلق والحروج على تعاليم الدين . والقديس بازيل Basile يرى أن يعاقب مرتكب هذا الجرم بمثل ما يعاقب به القاتل والساحر وعابد الأوثان ، أي بأقصى عقوبات الإعدام . وقد أصدر مجمع إليفرا Concile d'Elivra ، قانوناً يقضى

(١) انظر سفر اللاويين لإصحاح ١٨ فقرات ٢٢ ، ٢٤ ؛ وإصحاح ٢٠ فقرة ١٣ .

بأن الذين يعتدون على الغلمان إشباعاً لرغباتهم الجنسية المنحرفة لا تقبل منهم توبة ولا يجوز للقسس أن يحضروا ساعات احتضارهم . وعندما تأصلت المسيحية ورسخ قدمها في الإمبراطورية الرومانية أخذت الشرائع ونظم الأخلاق تشن حرباً شعواء على هذا الشذوذ ، بعد أن كان يعد من قبل من الهنات الهيئات ، بل من الأمور المباحة ، كما ذكرنا ذلك فيما سبق (١) . فالإمبراطوران كوستانس وكونستانت Constance et Constant جعلوا عقوبته الإعدام ضرباً بالسيف . والثلاثينيان Valentinien ذهب إلى أبعد من ذلك فقرر أن يحرق المجرمان حرقاً وأن يشهد عذابهما الجمهور ليكونا عبرة للناس . وقد اعتقد جوستينيان Justinien أن ما أصاب البلاد في عهده من مجاعة وأوبئة وزلازل قد أصابها بسبب شيوع هذه الفاحشة بين أهلها ، فأصدر منشوراً بإعادة العمل بالقانون الذي يقضى بأن يقتل مرتكب هذا الجرم ضرباً بالسيف . وعلق المنشور على ذلك بأن هذا لإجراء وقائي حتى لا تدمر المدن على أهلها ، لأن الأسفار المقدسة تنبئنا بأن الله قد عاقب بذلك أهل مدينة سودوم (أهل لوط) . وقد أصبحت جريمة الشذوذ الجنسي في ذلك العصر أفظع جريمة يمكن أن يتهم بها الفرد ، وأخذت المحاكم تصدر العقوبات القاسية على المتهمين بها لأقل شبهة وأضعف دليل ، حتى لقد كانت شهادة طفل أو خادم كافية في توقييع عقوبة الموت على المشهود ضده ، وحتى لقد أصبح هذا الاتهام أيسر وسيلة يُلجأ إليها الناس من أفراد الشعب ومن الحكام للإيقاع بخصومهم حينما لا يجدون سبيلاً لاتهمهم بشئ آخر يمكن إثباته .

وقد تأثرت القوانين الأوروبية في العصور الوسطى بهذه الشرائع الرومانية . ففي إنجلترا كانت العقوبة المقررة لهذا الجرم أن يدفن المجرم حياً أو يحرق ؛ وإن كان الراجح أن العقوبات التي كانت تطبق بالفعل كانت أخف من العقوبات المقررة . وفي فرنسا كان يحكم عليه بالحرق ، وظلت هذه العقوبة تطبق وتنفذ حتى

(١) انظر الفقرة الأخيرة من ص ٢١ ونوابها .

منتصف القرن الثامن عشر . — ثم أخذ المشرعون في مختلف البلاد الأوروبية يخففون من غلوائهم في هذا الصدد حتى انتهى الأمر بالقانون الجنائي الفرنسي الحديث إلى إعفاء مرتكبي هذا الجرم من كل عقوبة ما دام الطرف السالب بالغا رشيداً ووقع الفعل برضاه وفي صورة لا تسيء إلى الآداب العامة . وقد انتقلت هذه النظرة إلى معظم الشرائع الأوروبية الحديثة وإلى الشرائع غير الأوروبية المقتبسة من القانون الفرنسي . ولكن عدم توقيع العقوبة على هذا الفعل لا ينفي أنه في معظم بلاد أوروبا لا يزال معتبرا في عداد الجرائم والمنكرات من النواحي القانونية والحلقية ومن ناحية العادات نفسها ، وإن كان الناس قد أخذوا ينظرون إليه في هذه البلاد نظرة أخف كثيراً من النظرة التي كان ينظر بها إليه أجدادهم في العصور الوسطى وصدر العصور الحديثة . — وقد نشرت الصحف أخيراً (١) أن وكيل وزارة الخارجية البريطانية مستر دو جلاس هارثي قد اعتقله البوليس بينما كان يرتكب عملاً فاضحاً في متزه سان جيمس مع أحد جنود الحرس الملكي المسكفين بحراسة قصر بكنجهام ، ويدعى هذا الجندي ولتر بلانت وسنه تسع عشرة سنة . وقد قدم البوليس إلى محكمة الآداب وكيل الخارجية والجندي الذي مثل أمام المحكمة بملابسه الرسمية وهي ملابس الحرس الملكي ، فأفرج القاضى عنهما بكفالة ٢٥ جنيه ، ولم تستغرق قضيتهما أكثر من دقيقتين . وقد علقت الجرائد الإنجليزية على ذلك بأن الجرائم الأخلاقية التي ترتكب بين الذكور في بريطانيا مشكلة إجتماعية خطيرة ، وأنه قد ألفت لبحثها لجنة اسمها لجنة ولفندن نسبة إلى رئيسها جون ولفندن ، وأن اللجنة قد وضعت تقريراً قالت فيه إن الجرائم الجنسية بين الذكور لا تعد جريمة جنائية مادامت برضا الطرفين . ومع بشاعة الفعل الذي ارتكبه وكيل الخارجية الإنجليزي مع هذا الجندي ومع أنه قد قبض عليهما وهما متلبسان بالجرم على قارعة الطريق في متزه عام ، فإن الحكم الذي انتهت المحكمة بإصداره في هذه القضية ينطوي على عقوبة نافذة وهي غرامة خمسة جنيهات

(١) انظر جريدتي الأهرام والأخبار الصادرتين في ٢١/١١/٥٨ وفي ١١/١٢/٥٨ .

على كل منهما عدا أربعة جنهات وأربعة شلنات رسوم القضية ، ويلاحظ إن الغرامة لم توقع للفعل نفسه وإنما وقعت لارتكابه في متزه عام وفي أوضاع مخلة بالآداب . ولذلك كانت مرافعة المدعى العام تدور كلها حول إثبات « أن البوليس شاهد الرجلين في وضع مخل بالآداب في إحدى حدائق لندن في الشهر الماضي ... أما محامي هارفي فلم تبد منه أية محاولة للإنكار أو التستر على موكله أو حتى تلس الأعذار . وإنما اكتفى بأن يقول : « إنه ان يحاول أن يغير من الحقائق فهي تتحدث عن نفسها بنفسها ، . — ولا يخفى ما ينطوي عليه هذا الحادث وملا بساته ، ومسلك المحكمة والمدعى العام ومحامي الدفاع حياله ، وموقف الفتور وعدم الاهتمام الذي قابله به الرأي العام ، وتعقيب الصحف عليه ، لا يخفى ما تنطوي عليه هذه الأمور من دلالة على أن القوم هناك ينظرون إلى هذه الأمور نظرهم إلى الهنات الهيئات .

وقد سرت هذه النظرة إلى رجال الدين أنفسهم . فقد نشرت جريدة « الجمهورية » الصادرة في ١٦ نوفمبر سنة ١٩٥٧ تحت عنوان « الشذوذ الجنسي عمل مشروع يوافق عليه مجلس الكنائس الإنجليزية ، مايلي : « وافق مجلس الكنائس الإنجليزية بعد مناقشات حامية على التوصية التي كانت تقدمت بها إحدى اللجان الحكومية باعتبار الشذوذ الجنسي الذي يحدث بين البالغين وبرضاهم عملاً مشروعاً لا يعاقب عليه القانون . وكان كبير أساقفة كنتربري وهو جوفري فيشر هو الذي قاد الحملة لتأييد هذه التوصية التي تمت الموافقة عليها في مجلس الكنائس بأغلبية ١٥٥ صوتاً ضد ١٣٨ . وقال كبير الأساقفة إنه كان يشعر بالقلق لما يصيب الشخص المصاب بالشذوذ الجنسي من ظلم القانون ، في حين يستطيع أي شخص آخر أن يدمر أسرة ويشردها بدون أي عقاب .

ويظهر أن اللواط والمساخقة (وهو اسم يطلقه فقهاء المسلمين على اتصال المرأة بالمرأة اتصالاً جنسياً) كانا منتشرين انتشاراً كبيراً عند العرب في عصور حضارتهم بعد الإسلام ؛ حتى إن الغزل بالمذكر يؤلف باباً هاماً من أبواب الأدب في العصر العباسي ، وحتى إن فقهاء المسلمين قد قرروا عقوبات شديدة

اللواط والمساخقة ، فقررروا في اللواط عقوبة الحرق بالنار أو هدم الجدار على المجرم وتركه تحت الانقراض حتى يموت ، أو القذف به من مكان مرتفع ، أو الرجم ، أو الجلد مائة جلدة ، حسب اختلافهم في ذلك ، وحسب الحالة المدنية التي يكون عليها مرتكب الجرم (١) . وذهب بعض المفسرين إلى أن « الفاحشة » التي يشير إليها القرآن الكريم إذ يقول : « واللذان يأتيانها (أى الفاحشة المذكورة في الآية قبلها) منكم فآذوهما ، فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما » مقصود بها اللواط (٢) . وقرر فقهاء المسلمين في المساخقة عقوبات شديدة حتى لقد ذهب الشيعة الإمامية إلى أن حد المساخقة كحد الزنا أى الرجم إن كانت المرأة محصنة والجلد مائة جلدة إن كانت غير محصنة (٣) . وذهب بعض المفسرين إلى أن الفاحشة التي يشير إليها القرآن الكريم إذ يقول « واللاقي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا ، مقصود بها المساخقة (٤) . وفي صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال « لعن النبي صلى الله عليه وسلم المخمشين من الرجال والمترجلات من

(١) انظر تفصيل ذلك في كتب الفقه . وقد ذهب أبو حنيفة إلى أنه لا حد في اللواط ، وإنما يعزر مرتكبه أى توقع عليه عقوبة أخف من عقوبة الزنا (وعقوبة الزنا هى الرجم إن كان الجاني محصنا والجلد مائة جلدة إن كان غير محصن) . وقال أبو يوسف ومحمد هو كالزنا ويوقع فيه حد الزنا سواء بسواء (انظر الميداني على القدروري ص ٢٩٨) .

(٢) آية ١٦ من سورة النساء . وقد قيل في تفسير هذه الآية أقوال أخرى منها أن المقصود بكلمة الفاحشة الزنا ، وإن عقوبة الإيذاء التي تنص عليها هذه الآية كانت عقوبة الزنا في الإسلام ثم نسخت بعقوبة الحبس في البيوت التي ذكرت في الآية السابقة لهذه تلاوة وإن كانت لاحقة لها نزولا بحسب هذا الرأي ، ثم نسخت عقوبة الحبس بعقوبة الجلد والرجم (انظر تفسير البياضى) .

(٣) انظر « المختصر النافع » لأبى القاسم الحلى في فقه الإمامية ، طبعة وزارة الأوقاف

صفحتي ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

(٤) آية ١٥ من سورة النساء . وقيل في تفسير هذه الآية أقوال أخرى: منها أن المقصود بالفاحشة الزنا ، وأن المعنى أن الزانية بعد أن يوقع عليها حد الزنا توقع عليها عقوبة أخرى إضافية بأن تمنع من الخروج من البيت حتى يتوفاهم الموت ، ومنها أن عقوبة الحبس في البيت كانت عقوبة الزنا في أول الإسلام ثم نسخت بعقوبة الجلد والرجم (انظر تفسير البياضى) .

(م — ٣ غرائب النظم والتقاليد والعادات ج ٢)

النساء. وقال أخرجهم من بيوتكم ، وأخرج فلانا ، وأخرج عمر فلانا ، (١) .
ومع انتشار هذا الشذوذ بنوعيه (الأواط والمساخقة) في بلاد الهند ، فإن
قوانين البلاد وعرفها الخلق وتقاليدها تعتبره جريمة . غير أنه يظهر أن قوانينها
القديمة لا تعتبره من كبريات الجرائم ، بدليل أن قوانين مانو (مشرع الديانة
البرهمية) تدخله في مادة واحدة مع جرائم أخرى صغيرة كاتصال الرجل بالمرأة
في حظيرة من حظائر الثيران أو في الماء وهما يستحمان (٢) .

وهو كذلك شائع لدى كثير من الشعوب المتحضرة في آسيا الصغرى وتركيا
وشمال أفريقيا ووادى النيل وجميع البلاد العربية بآسيا والقوقاز والافغان
ومصر ، وإن كانت شرائع هذه البلاد جميعها وتقاليدها ونظمها الخلقية تنفر من
ذلك كل النفور وتنظر إليه على أنه جرم كبير . وأيام أن كان البغاء الرسمي نظاما
معمولا به في مصر كان يوجد بجانب البغايا من النساء طائفة من الخنثين من
الرجال والغلمان يزالون هذه المهنة . وكانوا يتشبهون بالنساء في زين وحليهن
وزيفتن ومشيتن واستخدامهن للكحل والمساخيق والألوان ، وكثيراً ما كانوا
يشاهدون على هذه الصورة راتحين غادين في أكبر شوارع القاهرة . ولا تزال
الإحصائيات القضائية في مصر تسجل عدداً غير يسير من جنایات الفسق بالغلمان
ومن حوادث العصابات التي تتجر بأعراض الأحداث . -- ومع ذلك فإن شرائع
بلادنا وتقاليدها وعرفها الخلق تنفر من هذه الفاحشة كل النفور ، وتعد
مرتكبها من أخطر طبقات الفسقة المجرمين .

وما لوحظ في هذا الصدد عند الأمم المتحضرة التي ضربنا أمثلة لها لوحظ
مثله عند كثير من الشعوب البدائية .

فقد لاحظ الرحالة انتشار هذه العلاقات بين الرجال والغلمان انتشاراً كبيراً
لدى العشائر التي تسكن الجنوب الشرقي لأستراليا ، ومع ذلك فإن قوانين هذه
العشائر وتقاليدها ونظمها الخلقية تحرم هذه الأمور تحريماً باتاً . ولا أدل على

(١) صحيح البخاري ، الجزء الرابع ، ص ١١٢ (طبعة عبدالرحمن محمد ، سنة ١٣٤٣ هـ -

باب الخنثين من الرجال والمترجلات من النساء) .

(٢) Lois de Manou XI, 175.

ذلك من أن شيوخ هذه القبائل ينصحون الشبان عقب تعميدهم Initiation بألا يأتوا عملاً من أعمال الشذوذ الجنسي .

وفي جزائر الأليوت Aléoutes (مجموعة جزر في الشمال الغربي من أمريكا الشمالية تابعة للولايات المتحدة) يعد السكان الأصليون أعمال الشذوذ الجنسي من كبريات الجرائم . وتوجب التقاليد على مرتكب هذا الجرم أن يكفر عن جرمه ويتطهر منه ، وذلك بأن يختمار يوماً تكون فيه السماء صافية خالية من الغيوم ، ويحمل ضغثاً من الأعشاب ، ويعتبر أن هذه الأعشاب قد احتملت خطيئته ، ويشهد الشمس على ذلك ، ثم يشعل النار في هذا الضغث ؛ ويعتقد أنه باحترافه قد محيت خطيئته وغفر له ما ارتكبه من إثم .

وعند السكان الأصليين لنيكاراغوا كانت توقع عقوبة الرجم على مرتكب هذه الفاحشة ؛ ولدى عشائر الشيبشاس Chibchas بمنطقة بوجوتا Bogota (عاصمة كولومبيا) كان يعاقب مرتكبها بالموت البطيء ؛ وذلك على الرغم من انتشارها من الناحية الواقعية انتشاراً كبيراً عند هؤلاء وأولئك .

وينتشر كذلك الشذوذ الجنسي انتشاراً كبيراً في جزيرتي أنكيزيمان Ankisimane ونوسي - بي Nossi - Bé (جزيرة في المحيط الهندي في الشمال الغربي من مدغشقر عاصمتها هلفيل Hellville) . ولكن الشعب يحتقر مرتكبيه ، وينظر إليه على أنه فاحشة لا يقرها القانون ولا العرف الخلق .

ولاحظ الرحالة رجالاً مخنثين يتشبهون بالنساء في عشائر الأندونجا Andonga (بأفريقيا الجنوبية الغربية الألمانية) وعشائر الديا كيتي سرا كولي - Diakité Sarrakolais (بالسودان الفرنسي) ؛ كما لاحظوا أن الشذوذ الجنسي بين الرجال بعضهم مع بعض شائع في عشائر الباناكا Banaka والباپوكو Bapuku بالسكرون وفي بلاد الزنجبار وغيرها من بلاد شرق أفريقيا ؛ ولاحظوا في الزنجبار نفسها وجود نسوة مسترجلات يتشبهن بالرجال في كل شيء ويزاولن أعمالهم ، ويشبعن رغباتهن الجنسية المنحرفة مع نساء منحرفات انحرافاً سلبياً ؛ فإن لم يجدن هذا

الصنف من النساء عملن على التفرير بنساء عاديّات واستماتن بالهدايا وبوسائل أخرى كثيرة ؛ وهذا على الرغم من أن شرائع هذه الشعوب جميعا ونظمها الخلقية تحرم ذلك تحريما باتا .

وفي بلاد النوبة ولدى عشائر الكافر والاندونجا والواشبالا والواجندا والآكرين Caferes, Andonga, Washambala, Waganda, les Nègres d'Accra ينظر إلى أعمال الشذوذ الجنسي نظرة اشمئزاز وازدراء وتوقع عقوبات على مرتكبيه على الرغم من انتشاره لديهم انتشارا كبيرا .

عوامل الانحراف الجنسي

قد يكون سبب هذا الشذوذ راجعا إلى انحراف فطري في الغريزة الجنسية للفرد ، وقد يكون راجعا إلى عوامل خارجية محيطة ببعض أفراد من الشعب أو بالشعب في مجموعه .

أما فيما يتعلق بالسبب الأول فإن الغريزة الجنسية قد تنحرف عند بعض الأفراد تحت تأثير تكوين فطري ، فيتجهون إلى التعلق بأفراد جنسهم نفسه ، أى يتجه الذكور إلى الذكور والإناث إلى الإناث . فكثير من المنحشين من الرجال والمسترجلات من النساء الذين لوحظ وجودهم في كثير من الشعوب والذين قد ضربنا لهم عدة أمثلة في الفقرات السابقة ، يرجع السبب في حالتهم هذه وفي حالة الأطراف المقابلة لهم في الاتجاه ، إلى وجود هذا الانحراف الفطري في غرائزهم الجنسية . وقد لاحظ هولدر Holder هذا العامل في كثير من المنحرفين في قبائل السكان الأصليين بالقسم الغربي بالولايات المتحدة . ولاحظ مثل ذلك الدكتور بومون Baumaun عند أهل زنجبار (١) وقد يكون هذا الانحراف مكتسبا لا فطريا . ولكن الانحراف المكتسب

يتوقف هو نفسه على استعداد فطري خاص . وقد قرر ولیم چمس أن هذا الانحراف ليس إلا مظهراً من مظاهر الشهية الجنسية ، وأن هذا المظهر ، على ما يبدو ، يوجد الاستعداد له عند معظم الرجال . فإذا أتاحت له بعض الظروف المواتية نما وترعرع وأصبح شأنه شأن الانحراف الفطري . ويذهب دوسوار Dessoir إلى ما ذهب إليه ولیم چمس ، ويضيف إليه أن هذا المظهر يبدو الاستعداد له واضحا عند كثير من الرجال في مرحلة البلوغ على الأخص .

ويلاحظ أن الغريزة الجنسية حينما تنحرف هذا الانحراف تتجه في الغالب إلى ما يشبه موضوعها الأصلي . فالطرف السالب في الشذوذ الجنسي بين الذكور هو في الغالب غلام أمر لم يبلغ بعد دور الرجولة ، والغلام في هذه المرحلة قريب الشبه من المرأة في التكوين الجسمي وتقاطيع الوجه .

وأما فيما يتعلق بالطائفة الثانية من الأسباب وهي العوامل الخارجية فإن أهمها يتمثل في ندرة الجنس الآخر . ولا تكاد تتخلف هذه الظاهرة عند وجود هذه الظروف حتى عند الحيوانات نفسها . فقد لاحظ بوفون Buffon أنه إذا حبست مجموعة من ذكور الطيور بعضها مع بعض أو من إناثها بعضهم مع بعض ، فإنها لا تلبث أن تنشأ بينها علاقات وعمليات جنسية . وتنشأ هذه العلاقات بين الذكور بعد مضي مدة أقصر من المدة التي تنشأ بعدها هذه العلاقات بين الإناث . فكثير من الشعوب البدائية التي يحدث فيها زواج الذكور بالذكور بالطقوس نفسها التي يحدث بها الزواج العادي ، على النحو الذي ضربنا له عدة أمثلة فيما سبق ، يرجع السبب في اتباعها هذا النظام الغريب إلى ندرة نسائها واختلال التوازن بين عددهن وعدد الذكور . فانتشار الشذوذ الجنسي في جزر تاهيتي Tahiti (أو جزر الشركة ile de la Société) يرجع سببه إلى أن عدد النساء لا يكاد يبلغ الربع أو الخمس من عدد الذكور ، فتوجد لديهم امرأة واحدة لكل أربعة رجال أو لكل خمسة رجال . ويرجع السبب في هذا الاختلال إلى ما درج عليه كثير من الآباء هناك من قتل البنات عقب ولادتهن والإبقاء على الذكور . ولذلك نجد أن بعض

الشعوب لا يلجأ إلى هذا الطريق إلا في الفترات التي يحدث فيها هذا الاختلال . ففي عشائر البورورو في البرازيل Bororo du Brésil لا يظهر الشذوذ الجنسي إلا في الفترات التي تشتد فيها أزمة النساء . ويصبح الحصول على امرأة من الأمور المتعذرة أو العسيرة على كثير من الناس .

وقد يتمثل العامل الخارجي في الفصل الشديد بين الجنسين وعدم إباحة الاختلاط بينهم ، كما هو الشأن في كثير من البلاد الشرقية .

وقد يتمثل في النظم التي تحتم العزوبة على بعض الطوائف من الرجال أو تجمع الرجال بعضهم مع بعض وتبعدهم مدة ما عن الجنس الآخر . فالعزوبة المفروضة على بعض رجال الدين في أوروبا وآسيا وغيرها والتي سنتكلم عنها في الباب السادس من هذا الكتاب ، قد ساعدت على انتشار الشذوذ الجنسي بين هذه الطوائف . وتجمع الشبان المجندين بعضهم مع بعض في أثناء الخدمة العسكرية ، وتجمع الطلبة في أثناء الدراسة في أقسام داخلية ، وبعد هؤلاء وأولئك عن أهليهم وصعوبة اتصالهم بالجنس الآخر ، كل ذلك قد ساعد على انتشار هذا الداء بين جنود الجيش وطوائف الطلبة في كثير من الشعوب .

وقد يتمثل هذا العامل الخارجي في وجود فرق كبير في المستوى العقلي والثقافي بين الرجل والمرأة ، وانحطاط مستوى النساء في هذا الصدد انحطاطا كبيرا بالنسبة لمستوى الرجال . فلا يجد الشاب حينئذ في المرأة شريكا حقيقيا يشبع نهمه الجنسي ، بينما يجد ذلك في شاب مثله . وعلى هذا العامل يقع قسط من التبعة في انتشار الشذوذ الجنسي بين الرجال عند قدماء اليونان . فقد كان الفرق عند هؤلاء كبيرا جداً بين الرجال والنساء في المستوى العقلي ومستوى الثقافة العامة والمعلومات . فبينما اليوناني كان حظه كبيراً جداً من هذه الأمور كانت المرأة في أحط مستوى عقلي وعلمي وثقافي . فقد كانت تعيش في قسم من منزل الأسرة ، منعزلة عن العالم ، لا تسكاد تختلط إلا بالإماء والجواري ، وكانت محرومة من جميع وسائل الثقافة ، بل كان محظورا عليها أن تحضر المجتمعات العامة أو تشهد

المسارح التي كانت حينئذ من أهم وسائل الثقافة في العالم اليوناني . فلا غرابة إذن أن ينظر الشاب اليوناني — وخاصة إذا كان ذا حظ عظيم من الثقافة كالشاب الأثيني — إلى المرأة نظرتة إلى مجرد جسم لا روح فيه ، وألا يجد في هذا الجسم ما يشبع نهمه الجنسي . فالتهم الجنسي في الفصيلة الإنسانية لا يتطالع إلى الجسوم وشمون المادة فحسب ، بل يتشوف كذلك إلى أمور أخرى كثيرة تتعلق بالمعاني وتتصل بعالم العقل والروح . — وعلى هذا العامل نفسه يقع كذلك قسط كبير من التبعة في انتشار الشذوذ الجنسي في الصين . وفي هذا يقول الدكتور ماتينيون Matignon : إن المرأة الصينية جاهلة ضعيفة الثقافة أيا كانت طبقتها ، وسواء أكانت محصنة أم بغيا ، بينما الرجل تفتح أمامه سبل كثيرة للثقافة والعلم . وهو فوق ذلك مزود بروح شاعرية خيالية : يعشق الموسيقى ، ويطرب للشعر ، وتمزه العبارات البليغة . فهو يتجه إلى هذا الانحراف عنه يجد في قرينه ما يشبع نهمه الجسمي والروحي معاً (١) .

من أهم مراجع هذا الفصل

زيادة على المدون في التعليقات

Westermarck : L'Origine et le Developpement des Idées
Morales, T. II. (traduction française p.p. 440-473).

Matignon, dans : Archives d'Anthropologie Criminelle (١)
XIV, 14.

الفصل الثالث

الانتحار الذى توجهه العادات والتقاليد

على طريقة الهارا كيرى وما إليها

(الانحراف فى غريزة حب البقاء)

من أنواع الانتحار نوع غريب لا يلجأ إليه الفرد بمحض اختياره بل توجهه عليه أو تحثه عليه فى ظروف خاصة تقاليد شعبه وعاداته . ومع غرابة هذا النوع من الانتحار فإن عدداً غير يسير من الشعوب المتحضرة والبدائية قد أخذت به .

— ١ —

مظاهر هذا النوع من الانتحار فى اليابان

طريقة « الهارا كيرى »

ولعل هذا النوع من الانتحار لم ينتشر فى شعب ما مقدار انتشاره فى اليابان . فطريقة الهارا كيرى Harakiri الشهيرة عندهم ، وهى التى تتمثل فى الانتحار بشق البطن بمخنجر أو سيف تحتها تقاليدهم أو تحت عليها فى حالات كثيرة .

فأحيانا كانت تسمح الحكومة للمحكوم عليه بالإعدام من طبقة المحاربين (طبقة الساموراي Samourai) أن ينتحر على طريقة الهارا كيرى بدلا من أن يشنق أو يضرب بالرصاص . وكان ذلك ينطوى على تكريم المحكوم عليه .

وتقدير ما كان له قبل الجرم من ماض مجيد . وقد ظل هذا النظام معمولاً به إلى عهد غير بعيد ثم ألغى بعد ذلك .

وأحياناً يلجأ إليها الفرد باختياره في الظاهر ، وتحت ضغط العادات والتقاليد في واقع الأمر . ويحدث هذا في حالات كثيرة ولمقاصد شتى . منها أن يقصد بالانتحار التعبير عن ولائه وإخلاصه لأحد الرؤساء أو الحكام عقب وفاة هذا الرئيس أو الحاكم ؛ كأن لسان حاله يقول إنه لا يطيب له العيش من بعده . ومنها أن يقصد بذلك الاحتجاج الشديد على خطأ ارتكبه واحد من هؤلاء أو ارتكب ضد واحد منهم . ومنها أن يكون الانتحار وسيلة لانقاء ما يلحق المنتحر نفسه أو يلحق أهله من خزي إذا وقع أسيراً في يد الأعداء . عقب هزيمة لحقت بجيش بلاده . ومنها أن يكون معبراً عن إرأء ذمة المنتحر وغسل شرفه بما علق به من أذى حينما يعجز عن الأخذ بثأره من أحد خصومه . وقد يحدث للدلالة على ارتياح المنتحر وأنه قد حقق أكبر أمانيه في هذه الدنيا وأصبح في غير حاجة إلى المزيد من الحياة ، وذلك حينما يتاح له أن يقتل من أهانه أو أساء إليه .

وفي جميع هذه الأحوال يعد الانتحار ، في نظر اليابانيين ، مطهراً للفرد ، ومحققاً لما يرغب منه ، ومعبراً أصدق تعبير عما يريد التعبير عنه ، كما يستأهل صاحبه أن يقام له مأتم فخيم ، وتحفظ له أجد الذكريات . ولسمو هذا النوع من الانتحار في نظر اليابانيين كانت عملياته تجري قديماً في المعابد المقدسة نفسها . وفي هذا يقول جريفس Griffis في كتابته عن ديانات اليابان Religions of Japan « إن لوحة الشرف للعظماء والخالدين والقديسين من اليابانيين ليست مملوءة بأسماء المصلحين ولا المحسنين ولا منشئ الملاجئ والمصحات ، بل بأسماء طوائف المنتحرين على طريقة الهارا كيري، (١) .

مظاهر هذا النوع من الانتحار في الصين

وكان هذا النظام نفسه متبعاً في الصين ، بل لا تزال له رواسب عميقة في هذه البلاد إلى الوقت الحاضر ، ولكنه يطبق على وجوه تختلف قليلاً في التفاصيل عن الطرق التي كان يسير عليها اليابانيون . فالانتحار تبحث عليه التقاليد والعادات الصينية وتعدّه شرفاً كبيراً للمتحررين ولذكرياتهم في حالات كثيرة ولعدة مقاصد . فينتحر الجندي أو الضابط أو الموظف عقب هزيمة حلت ببلاده أو إهانة لحقت بالإمبراطور ، وينتحر الشاب حينما يلحق أحد شيوخ أسرته إهانة أو مكروه من أحد الناس ويعجز هو عن أن يثأر له ، ويقصد هؤلاء وأولئك بانتحارهم هذا التعبير عن أنهم قد أصبحوا لا يحملون الحياة بعد الذي حدث ولا يحملون ذكرى هذه الهزيمة ولا هذه الإهانة . وتنتحر المرأة عقب وفاة زوجها أو خاطبها للتعبير عن إخلاصها له وأنه لا معنى للحياة عندها بدونّه . ومع أنه قد صدرت عدة قوانين تحظر هذا النوع الأخير من الانتحار ، فإن العادات الشعبية لا تزال متمسكة به ، ولا تزال تنظر إلى الأرملة أو المخطوبة التي تنتحر عقب وفاة زوجها أو خاطبها نظرة إكبار وتعظيم .

ولا تقتصر نتائج هذا النوع من الانتحار في الصين على ما ينال المنتحر في مثل هذه الأحوال وينال ذكراه من إجلال ، بل قد يكون له بجانب ذلك في نظر القانون وفي نظر الناس نتائج أخرى تصيب بعض الأحياء . فالقانون يلقي أحياناً المسؤولية الجنائية على الشخص الذي كان عمله سبباً في الانتحار . والعقيدة السائدة أن أرواح المنتحرين تثار لنفسها من تسببوا في انتحار أصحابها ، فتدفعهم دفعاً إلى محاكمتهم ، أو تتولى هي قتالهم خفياً إن لم يصيخوا إلى هذا الدافع ويقتلوا أنفسهم بأيديهم .

ويفينا تنظر التقاليد الصينية إلى هذه الأنواع وما إليها من الانتحار نظرة
أكبر ، تنظر إلى ما عداها فظرتها إلى أمور خسيصة صغيرة . ففي كتاب من
كتبهم المقدسة أن الذين ينتحرون لغرط ولائهم وإخلاصهم للإمبراطور
أو برأ بآبائهم وأهليهم وأزواجهم وأصدقائهم ، تصعد أرواحهم إلى عليين ،
وأما الذين ينتحرون في أزمة غضب أو يأس ، أو خوفا من نتائج ما اقترفوه من
جرائم يعاقب عليها القانون بالإعدام ، أو رغبة في أن يسبب انتحارهم ضررا
بغيره ، فسيكون نصيب أرواحهم العذاب الأليم في مناطق الجحيم (١) .

مظاهر هذا النوع من الانتحار

عند الهنود

وفي كثير من بلاد الهند كان يعد من مظاهر البر والوفاء أن تنتحر المرأة
المتوفى عنها زوجها بأن تحرق نفسها . وظل هذا التقليد سائدا لديهم إلى عهد
قريب ، ثم استبدل به في بعض بلاد الهند انتحار تمثيلي . فكان يكتفى عقب
وفاة الزوج بأن يؤتى بكومة حطب وتشعل فيها النار ، ويؤتى بزوجة المتوفى
وتمد على هذه الكومة ، ويظل كذلك حتى يقرب اللهب منها (٢) .

وقد ساد كذلك الاعتقاد في بلاد الهند أن الانتحار إذا قصد به التقرب إلى
الله أو التضحية بالنفس في سبيله يصبح في ذاته عبادة دينية على أن يتم في صورة

(١) Cité par Westermarck, op. cit, p. 233, 234.

(٢) انظر السطور ٧ — ١٠ من صفحة ٨٥ من الجزء الأول . — هذا وقد وصف
« الهنود » في السطر الثامن من هذه العبارة بوصف « الحمر » . وهو سبق قلم ، وصوابه
« الهنود » فقط بدون وصف لأن المقصود هناك سكان الهند لا السكان الأصليين لأمريكا
الشمالية الذين كانوا يسمون « الهنود الحمر » .

من الصور التي تحددها التقاليد والعادات . ومن هذه الصور أن يصوم الشخص عن الطعام والشراب حتى يموت ؛ وأن يقطع جسمه كله بروث البقر ويشعل النار فيه (يلاحظ أن البقر حيوان مقدس في الديانة البرهمنية الهندية) ؛ وأن يقبر نفسه في الجليل حتى يقضى نحبه ؛ وأن يفرق نفسه في مصب من مصبات الجنج Gonng في أطراف بلاد البنغال على أن يظل يعدد خطاياها ويردد عبارات التوبة والندم حتى تفرسه التماسيح ؛ وأن يذبح نفسه في مدينة اللاه آباد حيث يلتقي نهر الجنج بنهر دجومنا Jumna ؛ وأن يظل على قمة من قمم جبال الهملايا حتى يموت من البرد ؛ وأن يفرق نفسه أو يدفن حيا إذا كان مصابا بالجذام أو بمرض لا يرجى برؤه على أمل أن تنتقل روحه التي تطهرت بهذا الانتحار إلى جسم معاف سليم ؛ وأن يقذف بنفسه من شاهق ليسكفر بذلك عن سيئاته أو ليصبح قديسا في الحياة الأخرى أو ليقبى بنذر نذرتة أمه ؛ وأن ينتحر البرهمي (طبقة البرهميين هي طبقة رجال الدين ، وهي أرقى طبقة في الديانة البرهمنية) لتشار روحه بمن أساء إليه أو من أحد خصومه (١) .

وتحكي أساطيرهم حوادث كثيرة من هذا الانتحار المبرور ونتائج المحققة . فمن ذلك أن أحد الحكام قد أراد أن يفرض على طبقة البرهميين في مقاطعته ضريبة للدفاع الوطني ؛ فثارت طائفة من كبار أغنيائهم ، وحاولوا أن يثنوه عن عزمه ، فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا ، فانتحروا جميعا على مرأى منه بشق بطونهم بالخناجر ، مرددين اللعنات على هذا الحاكم مع أنفاسهم الأخيرة ؛ فحسر هذا الحاكم دنياه وآخرته ، وثار عليه شعبه وأقصاه عن منصبه . ومن هذه الأساطير أن إحدى البرهميات قد غرر بها أحد الحكام حتى نال منها ما ربه فأحرقت نفسها وأخذت في ساعاتها الأخيرة تصب اللعنات على هذا الحاكم وأسرته ، فاستجاب الله دعاءها ، وأنزل عليهم سحطة وسلط عليهم السكوارث والمصائب ، وأضطرهم إلى الرحيل عن البلاد تاركين ديارهم وأموالهم ؛ ومن ذلك

الحين أصبح قبر هذه البرهمية ضريحاً مقدساً يزوره الناس ويؤدون فيه صلواتهم ومناسكهم . ومن هذه الأساطير كذلك أن أحد الحكام قد منح قطعة أرض لأحد البرهمنين ، فبنى هذا البرهمي مسكناً عليها ، ثم رجع الحاكم في هيئته فهدم المنزل واسترد الأرض ، فذهب البرهمي إلى بيت هذا الحاكم وظل جالساً أمام بابه صاماً عن الطعام والشراب والغطاء حتى مات من الجوع والعطش والبرد ، فتأثرت روحه من الحاكم فأهلكته ودمرت بيته .

وقد ساد في الهند كذلك تقليد غريب يطلق عليه اسم « دهارنا » وذلك أن المدائن إذا ما طله مدينه ، يذهب إلى بيته ويتهدده بأن يظل جالساً أمام بابه حتى يموت من الجوع والعطش والبرد إذا لم يوفه دينه . ويعتقد هذا اعتف إجراء يمكن أن يلجأ إليه الدائن الممتطول . ويتوجس المدين خيفة من نتائج هذا الانتحار ، فلا يدخر وسعاً في سداد ما عليه ، وخاصة إذا كان الدائن برهمياً ، يخشى من بطش روحه الشديد إذا أنفذ ما هدد به .

— ٤ —

مظاهر هذا النوع من الانتحار

عند اليهود

ومع أن التعاليم اليهودية السائدة تعتبر الانتحار جيناً وانحطاطاً وكفراً بنا بنعم الرب وتعدياً لحدوده ، وتوقع بعض عقوبات على جسم المنتحار ، فترك جثته ملقاة حتى غروب الشمس ، وتحرم رئاه والحداد عليه ولبس السواد من أجله ، هذا إلى ما يدخر لروحه من عذاب بعد الموت ، مع ذلك نرى أن التلمود — وهو من أهم كتب التشريع لديهم^(١) — يغتفر الانتحار ، بل يكاد يعده عملاً

(١) انظر كتابنا فقه اللغة ص ٤٨ من الطبعة الرابعة .

مجيدا ، إذا أقدم عليه قائد جيش يهودى بعد هزيمته حتى لا يقع أسيرا ويلقى
المهانة والفضيحة على يد العدو ، أو إذا أكره يهودى على الارتداد عن دينه فأثر
الانتحار على الكفر بربه (١) .

مظاهر هذا النوع من الانتحار عند قدامى اليونان والرومان

وقد انتشر عند قدامى اليونان والرومان مذهب فلسفى يجذ الانتحار إذا
أصبحت الحياة مصدر بؤس وشقاء ، وهو المذهب الرواقى Stoïcisme (٢) .
وفى هذا يقول الفيلسوف الرواقى سنكا Sênèque (٣) : « لا يلوم البائس
فى هذه الحياة إلا نفسه . فى استطاعته أن يضع حدا لبؤسه بالقضاء على حياته .
فكما أن الفرد يختار السفينة التى يبحر عليها ، والمنزل الذى يسكنه ، ويحرص
على أن يكون كلاهما محققا لراحته ، كذلك يذبح أن يختار لنفسه طريق الموت
الذى يكفل إنقاذه . فليس ثمة بائس ولا شقى فى هذه الحياة إلا وقد رضى لنفسه
هذا البؤس وهذا الشقاء . فلتعش أيها البائس إذا كان يروك هذا البؤس ،

Cf. I. Samuel XXXI, 4, cité par Westermarck II, 237. (١)

(٢) مؤسس المذهب الرواقى هو زينون السيقيومى Zenon de Citium . وهو
فيلسوف يوفانى ولد ببلدة سيقيوم فى نهاية القرن الرابع قبل المسيح . وقد كان انتشار المذهب
الرواقى عند الرومان أوسع كثيرا من انتشاره فى بلاد اليونان التى كانت مهد نشأته . وقد
اعتنقه فى بلاد الرومان كثير من فلاسفتهم ، بل اعتنقه بعض القياصرة أنفسهم . ومن أشهر
القياسرة الذين اعتنقوه مارك أوريل Marc-Aurèle (الإمبراطور من ١٦١ إلى ١٨٠ م) .
(٣) من أشهر فلاسفة الرومان ومن أعلام المذهب الرواقى ولد فى السنة الثانية للميلاد

وتوفى سنة ٦٦ م .

أما إذا كان لا يعجبك فأمامك السبيل بهذا لأن تعود إلى الأرض التي منها خلقت (١) .

وقد ساد عند اليونان والرومان ان بعض المحكوم عليهم بالإعدام ، وخاصة في بعض الجرائم الدينية والوطنية ، يكرهون على الانتحار بتجرع السم أو قطع الشرايين . فسقراط قد حكم عليه بأن يتجرع السم ، وسنكا قد حكم عليه نيرون بأن يقطع شرايين يده بنفسه .

— ٦ —

مظاهر هذا النوع من الانتحار
عند قدامى رجال الكنيسة المسيحية

وكان القدامى من آباء الكنيسة يحبذون الانتحار في بعض الأحوال وخاصة في حالتين : إحداهما أن ينتحر المسيحي حفاظا على دينه إذا أكره على الارتداد عنه ؛ وثانيهما أن تلتحق المسيحية بالسكر حفاظا على بكرتها إذا رأت نفسها مهددة بزوالها في السفاح . وفي هذا يقول لاكتانس Lactance (٢) : « إنه لمن أكبر المعاصي أن يقتل المرء نفسه . ولكن عند ما يرى المسيحي نفسه مهددا بالنكال أو العذاب إن لم يرتد عن دينه فأولى له في مثل هذه الحالة أن يضع حدا لحياته بيده لا بيد الكفار . » ويروي يوزيب Eusèbe (٣) في كتابة عن تاريخ المسيحية

(١) Sénèque. Epist. 15 et suiv. cité par Westermarck, op. cit. II, 239.

(٢) من كبار رجال الكنيسة المسيحية ، ولد حوالي سنة ٢٥٠ . ومن أشهر مؤلفاته : « من صنع الله de l'œuvre de Dieu » و « النظم الإلهية Les Institutions divines »

(٣) من كبار رجال الكنيسة المسيحية ومن أشهر المؤرخين في تاريخ المسيحية ونظمها ، ولد حوالي سنة ٢٦٥ وتوفي حوالي سنة ٣٤٠ .

حالات كثيرة لمسيحيات وجدن عفافهن مهددا فانتحرن حفاظا عليه ، وينظر هو في مؤلفه هذا ، كما ينظر غيره من قدامى رجال الكنيسة المسيحية في مؤلفاتهم ، إلى هذا العمل نظرة عطف وحنان إن لم تكن نظرة رضا وقبول . بل إن بعض هؤلاء المنتحرات قد سجلت أسماءهن في لوحة الشرف بين كبار من خلد التاريخ أسماءهم (١) .

ولكن الكنيسة المسيحية في عصورها التالية قد حرمت الانتحار تحريما باتا أيا كان الدافع إليه ، وجعلته من كبريات الجرائم الدينية بل جعلته أشد جرما من القتل العادي (٢) .

مراجع هذا الفصل

لم نقصد هنا إلى دراسة الانتحار على العموم ، وإنما قصدنا إلى عرض أمثلة لنوع واحد غريب من أنواعه وهو الذى توجبه العادات والتقاليد . ومعظم مراجع هذا النوع مذكورة في التعليقات .

وأما مراجع الانتحار على العموم وبيان أسبابه ومبلغ انتشاره في مختلف الأمم وإحصائياته والقوانين التى يحضمر لها فنأهمها .

Durkheim : Le Suicide

Halbwachs : Les Causes du Suiciede

Bayet (Albert) : Le Suicide et la Morale.

Westermarck : op. cit. T. II.

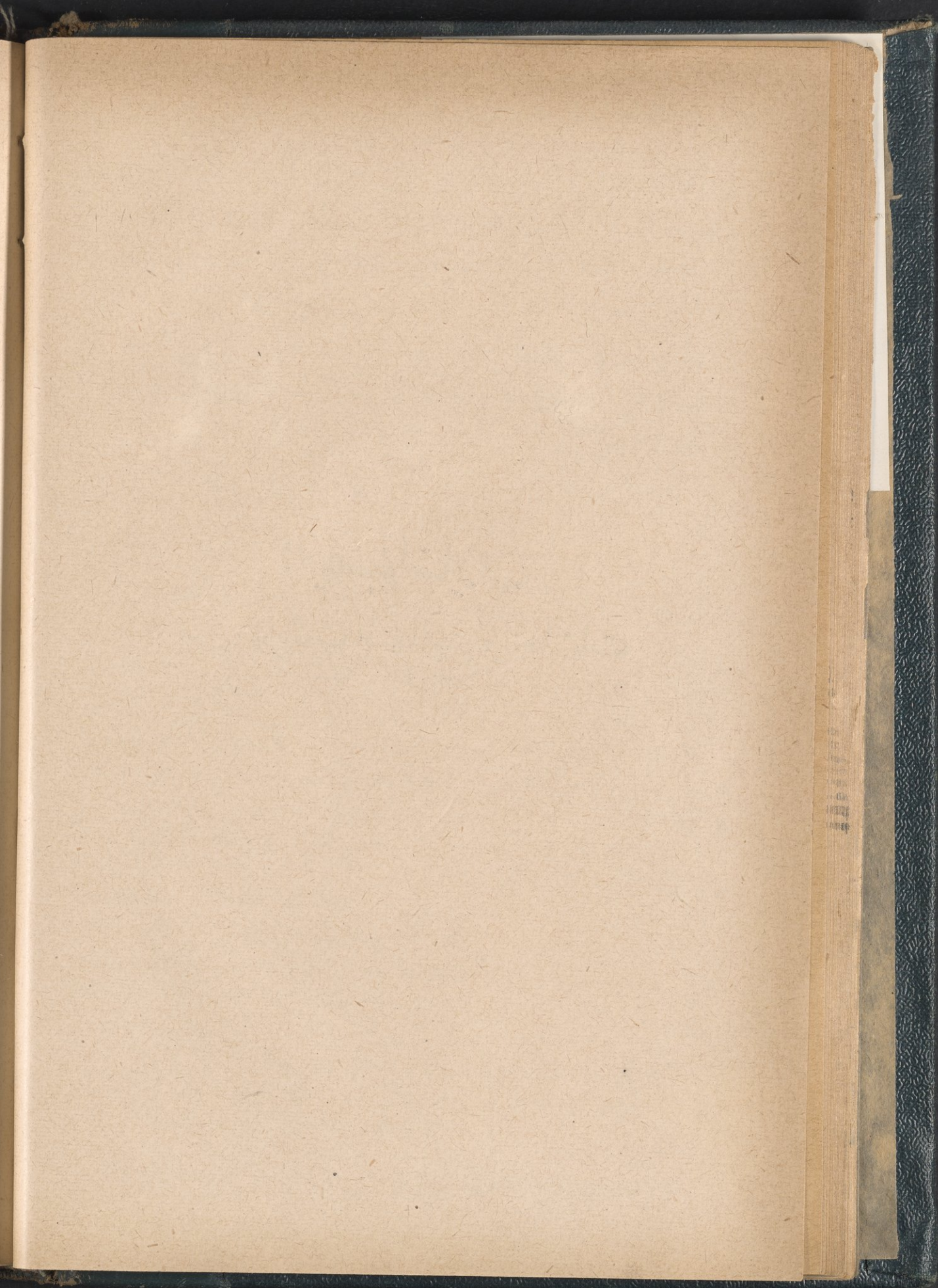
Cité par Westermarck, op. cit. II, 241 (١)

(٢) انظر مؤلفات سانت أوجيستان وسان توماس والعبارات المنقولة عنهما وعن غيرهما في

Westermarck, op. cit. II 242 et suiv.

الباب السادس

من غرائب التقاليد والعمادات



الفصل الأول

بعض مظاهر غريبة لمهارة البدائيين

من أهم مظاهر النشاط الاجتماعي التي تبدو فيها مهارة البدائيين ثلاثة مظاهر :
الصيد والفروسية والقتال .

وهذه النواحي الثلاث تربطها بعضها ببعض روابط وثيقة حتى تبدو كأنها مجرد مظاهر لنوع واحد من النشاط . فهي قائمة على دعامة واحدة وتشبع نزعة واحدة من نزعات الإنسان . فالصيد والقتال كلاهما ينطوي على الإغارة والعدوان ، وكلاهما يرمى إلى التغلب على العدو أو الفتيص وأسره أو اهلاكه . أما الفروسية فلم تكن غاية في ذاتها وإنما كانت مجرد وسيلة لهذين الأمرين .

وكانت هذه الأمور عند كثير من البدائيين ، وخاصة عند السكان الأصليين
لأمريكا الشمالية ، وهم الهنود الحمر ، من أنبل الأعمال الإنسانية جميعا وأجلها
منزلة وأعظمها خطراً .

ولذلك اختص بها الرجال دون النساء ، بل كان نشاط الرجال مقصورا
عليها وحدها . أما مادون ذلك من الأعمال في داخل المنزل وخارجه فقد كان يقع
على كاهل الجنس الضعيف .

وقد نبغ ساكنو السهول من الهنود الحمر في شئون الصيد والفروسية والقتال
أيما نبوغ ، وجردوا أعمالها كل التجويد ، وبلغوا في مضمارها منزلة منقطة النظير ،
حتى تميزت بها شخصيتهم ، وكان لها أكبر شأن في تاريخهم من قبل الاستعمار
الأوروبي ومن بعده . وكانوا يعالجونها بمناهج وطرق ممتعة بارعة ، ويأتون فيها
بأعمال غريبة خارقة للعادة حار الباحثون في تفسير كثير منها حتى لقد ظن بعضهم
أنها من ضروب السحر .

فالمسائل التي سنعالجها في هذا الفصل تجمعها إذا عدة صفات مشتركة ،
وتربطها عدة روابط وثيقة ، ويأخذ بعضها بحجز بعض .
وسنعرض فيما يلي لأهم ما يستوقف النظر ويبعث على الحيرة والتساؤل
من مهارة هؤلاء البدائيين في هذه النواحي الثلاث .

- ١ -

مظاهر غريبة من الصيد عند البدائيين

من مظاهر الصيد الممعة في الغرابة عند البدائيين ما كان يتخذه الهنود الحمر
من طرق في صيد الحصان والجاموس الوحشين .

* * *

أما فيما يتعلق بالحصان الوحشي فقد كانت عملية صيده عملية فردية يعالجها
شخص واحد ، ولا تقتضى تعاون جماعة كما كان الشأن في بعض الحيوانات
الأخرى كالجاموس الوحشي وما إليه . فكان الصائد^(١) يخرج وحده ممتطيا
صهوة جواد مستأنس ، ويعتمد أن يخرج عاريا حتى لا تعوق الملابس حركته
وما كان يحمل معه من آلات الصيد وحاجات الزاد إلا حبالا تتدلى على ذراعه
الأيسر (وكانت تضفر في العادة من ليف أو جلد وتنتهى بطوق معدني أو بأنشطة
يمر فيها الطرف الآخر للجبيل . فيتكون في آخره طوق يلتف حول عنق القنيص

(١) الطريقة التي سنذكرها كانت متبعة على الأخص عند عشائر الشين Cheyennes
في جنوب ويسوري . وقد لاحظها العلامة كانلان « Catlin » الذي يعد من أعمق الباحثين
في حياة الهنود الحمر وأدقهم ملاحظة لشئونهم .

ويتسع أو يضيق حسب الحاجة) وسوطا في يده اليمنى ، وخرجا صغيراً فوق كتفه يحفظ فيه كمية من جريش البن هي زاده في سفره الطويل الذي قد يستغرق عدة أيام ، فكان يقبلغ بهذا البن ويستحلبه من حين لآخر كلما أحس وطأة الجوع .

يبحث الصائد عن آثار قطيع للخيل ، ويقص هذه الآثار حتى يقرب من القطيع ، فيركض فرسه مندفعاً نحوه حتى يتوسطه أو يكاد ، فيضطرب شمل القطيع ويسوده الذعر وتشمله الفوضى . وفي أثناء ذلك يكون الهندي قد ألقى نظرات فاحصة خاطفة على مختلف أفرادهِ ووقع اختياره على واحد منها يتوافر فيه ما يروقه من صفات .

وحينئذ يترجل الصائد ، ويترك فرسه المستأنس يسير وراءه ، ويأخذ في تعقب القطيع ، متجهاً دائماً شطر الحصان الذي اختاره . فينفرد القطيع منه في صورة لا تتم على شدة الخوف ، إذ يحس أفرادُه أن سرعة من يتعقبها ليست شيئاً مذكوراً بجانب سرعتها ، وأنه لذلك لن يستطيع سبيلاً إلى دركها ، فتقصد في خبيها (١) ، وتقف من حين لآخر محدقة في هذا المخلوق الضئيل البطيء الذي يتعقبها ، ويستموها في ركضها ووقوفها نشاط المرح واللعب وحب الاستطلاع والاستخفاف بالخصم والسخرية منه أكثر مما يستفزها الخوف أو يثيرها الانزعاج .

ولكن الهندي لا يأبه بما توجهه إليه من سخرية أو ازدراء . ويتابع سيره بخطوات منظمة على وتيرة واحدة ، متوسطة السرعة بين الهوينا والعدو . وكلما التقى بالقطيع اتجه شطر الحصان الذي وقع عليه اختياره ووجه إليه نظرات نافذة مريبة . فلا يلبث هذا الحصان بعد عدة انتقامات من هذا القميل أن تلعب بنفسه المخاوف ، ويوقن أنه مقصود بالذات ، فيتمسكه الذعر ، ويحفل ثم ينبت

(١) الحبب ضرب من عدو الخيل وهو خطو فسيح دون العنق . وقصد في خبيها قصداً متوسط ولم يجاوز الحد . ومنه قوله تعالى : « واقصد في مشيك » وقوله : « لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك » .

عن قطيعه ، ويعدو بأقصى سرعته ، ويتابع عدوه شوطا بعيدا ، ثم يقف طائفاً أنه قد بعد عن الخطر . ولكنه لا يكاد يلتفت وراءه حتى يلح الهندي خلفه يسير بخطواته الهادئة الوثيدة . فينفر الحصان ويزيد من سرعة عدوه ومن مسافة شوطه حتى يوقن أنه قد أصبح من المستحيل على الإنسان أن يدركه ، ويرجع بصره وراءه رجوع المزهو بانتصاره ، فينقلب إليه البصر خاسئاً وهو حسير ، إذ يلح الهندي قاب قوسين منه أو أدنى .

هذا . والهندي يمشي على الأرض هونا ، لا يغير شيئاً في خطواته الوثيدة ، ولا يزيد في سرعته التي لا تذكر بجانب سرعة الحصان .

فأى سحر هذا الذي يستخدمه الهندي حتى يقطع بمشيته الهادئة من المسافات ما يقطعه الحصان بعدوه السريع مع اتحاد الزمن الذي يستغرقه المتسابقان ؟

لا يستخدم الهندي في ذلك شيئاً من السحر ، ولكنه يستخدم العلم بطبائع الحيوان ، ويفيد من خبرته وملاحظته لأساليب الحصان في عدوه . وذلك أن كثيراً من كبار الحيوانات الشديدة كالخيل والوعول وما إليهما لا تسير في عدوها على خط مستقيم ، ولكنها ترسم أقواساً وأنصاف دوائر تتصل حافاتهما بهذا الخط . فهي في كل شوط من أشواطها تبدأ من نقطة في هذا الخط وتنتهي بنقطة أخرى عليه ، ولكنها تسلك أبعد الطرق لقطع المسافة بين هاتين النقطتين ، فتقطعها في خط منحن واسع ترسمه في الغالب على يسار الخط المستقيم . فالهندي يعرف ذلك ، ويعرف أن حصانه سينتهي به المطاف في كل شوط من أشواطه إلى الخط المستقيم الذي بدأ عدوه منه . فلا يكبد نفسه مشقة الجري وراء الحصان ولا متابعه في خطوطه المنحنية ؛ وإنما يسير بخطواته المتزنة الهادئة في الخط المستقيم ، موقناً أنه على هذا الخط سيجمع الشقيتان ، وسيلتقي لا محالة بقنيصه . فالمسافة التي يقطعها الهندي في سيره المستقيم للوصول إلى نقطة ما ليست شيئاً مذكوراً بجانب المسافة التي يقطعها الحصان في سيره المنحرف للوصول إلى النقطة نفسها . والفرق بين المسافتين يعادل الفرق بين سرعتين .

فلا يكاد الحصان يصل إلى هذه النقطة بعدوه السريع حتى يكون الهندي قد بلغها بخطواته الوئيدة .

ومن هنا يتبين السبب الذي من أجله يؤثر الهندي في الغالب أن يعالج عمليات هذا الصيد راجلا ويترك فرسه المستأنس يسير ورائه ؛ لأنه يخشى إن عالجها راكبا أن يستسلم فرسه المستأنس لطبيعته ومناهجه الفطرية في العدو ، ويندفع في متابعة الحصان الوحشي في سيره المنحرف ، فيخفق في إدراكه ، لاتحاد المسافة التي يقطعها كلاهما مع تفوق الوحشي على المستأنس في السرعة لحالة الذعر المستولية عليه من جهة وعدم وجود ثقل فوق ظهره من جهة أخرى .

وبعد عدة ساعات يدب الضعف والوهن إلى الحصان الوحشي ، ويتبين الهندي ذلك من كثرة وقفاته وتتابعها وقصر المدة التي يستغرقها كل شوط من أشواطه . وحينئذ يحث الهندي خطواته حثا خفيفا ، في حين تشتد مظاهر الإعياء على الحصان شيئا فشيئا ، فتتناقص مسافة كل شوط من أشواطه ، حتى لا تتجاوز بضعة عشرات من الأمتار ، وتطول مدة وقوفه للراحة بين كل وثبة وأخرى . ويظل الهندي سائرا على وتيرته ، مع حث خفيف لخطواته في هذه المرحلة ، وتتناقص المسافة التي تفصله عن الحصان في كل وقفة من وقفاته شيئا فشيئا حتى تصبح بضعة أمتار .

وحينئذ تتدافع الحوادث وتسرع نحو نهايتها ، فيطول توقف الحصان بين كل شوط وآخر ويرتفع قبعه ونحيطه ^(١) ، والهندي كالظل يلاحقه غير تارك له فرصة للراحة ، ولا وسيلة للاستجمام . فيجفل الحصان جفلة الأخيرة ، ولكن لا تطاوعه في هذه المرة على العدو ساقاه المرهقان ، فيقف فجأة حيث يكون الهندي على بضعة أمتار منه .

(٢) القبع صوت يردده الفرس من منخرينه إلى الحلق ويكون من نفاذه من شيء يتقيه ، والنحيط صوت الفرس من الإعياء ، ويكون من الصدر إلى الحلق .

فيبطي. الهندي في سيره ، ويتقدم نحو الحصان بخطوات متزنة جريئة ، ثم يتناول حبالته ، ويمسك بطرفها المرسل في يده ، ويقذف طرفها المعقود نحو قنيصه في رمية سريعة ماهرة لا تخفق ولا تطيش ، فإذا طوق الحباله حول رقبة الحصان ، وإذا بقطر هذا الطوق يضيق شيئاً فشيئاً حتى ليكاد يعصر حلقة عصره .

* * *

ولعل الهنود الحمر قد اقتبسوا هذه الطريقة في متابعة قنيصهم عن بعض الحيوانات المفترسة وخاصة الدب والذئب . فالدب مثلاً يتعب فريسته بخطوات متأقلة ، ولكنّها منظمّة ، تسير على وتيرة واحدة ، لا تنقص سرعتها ولا تزيد ، بينما تقفز الفريسة محتاجة بخطوات سريعة لا تذكر بجانبها خطوات الدب . ولكنّها لا تلبث بعد بضعة ساعات أن تنهك قواها ، وتضعف حركتها . ويكون الدب في أثناء ذلك قد قطع بخطواته الوثيدة المرحلة نفسها التي قطعها فريسته بخطواتها المتهتجة السريعة . وذلك لأنه يسير على خط مستقيم ، بينما تسير هي في أنصاف دوائر تتصل حافاتهما بهذا الخط ، فلا يفترقان إلا ليلتقيا ، ثم يفترقان ويلتقيان مرة أخرى ... وهكذا دواليك ، حتى يلتقيا في وقت تكون فيه الفريسة قد نالها الوهن ، وأخذ منها الإعياء كل مأخذ لطول المسافات التي قطعها في هذه الأقواس ؛ في حين يكون الدب لا يزال موفور القوى لقصر المسافة التي قطعها ، ولسيره بخطوات وثيدة مريحة . وما هو إلا أن يثب عليها وثبة واحدة حتى تسلمها المنون إلى ذراعيه الجبارتين .

* * *

ولا تسكاد الحباله تأخذ برقبة الحصان حتى تشور نائرتّه ، فيرتفع نخيره ، وتصطك أسنانه ، وينتفخ منخراته ، وتبرز عيناه ، وتقذف بالشعر ، ويضرب بقوائمه ضرب المذبوح في مختلف الجهات .

ولكن الهندي لا يأبه بهذا كله ، ويتقدم إليه رابط الجأش ، ويمسح بيده على بعض أجزاء جسمه ، فيذلّل له الحيوان ، ويتم له إخضاعه .

وفي فجر اليوم التالي ينقلب الهندي إلى أهله فرحاً بما أفاء الله عليه من غنيمة ،
ممتطياً صهوة جواده الجديد الذي تم استئناسه في بضع ساعات ، ويقود وراءه
جواده القديم .

* * *

هذا ، وليس من بين الأعمال التي يأتيها الهندي في صيده ما هو أدعى للدهشة ،
وأعسر على الفهم ، وأدنى أن يكون من الأمور الخارقة للعادة ، من موقفه الأخير
في صيد الحصان الوحشي ، إذ يتم له استئناسه بمجرد الاقتراب منه وامرار يده
على بعض أجزاء جسمه . فجميع الأعمال الأخرى ، على ما فيها من حذق ومهارة ،
قائمة على ما أفاده الهنود الحمر من تجاربهم وخبرتهم بطبائع الحيوان ، أو على
مخاكتهم لما يتخذونه بعض السباع من مناهج في الحصول على قنصها . أما أن يتقدم
الهندي نحو حيوان متوحش وهو في عنقوان ثورته وأشد حالات ذعره وهياجه
فيلسه بيده لمسا خفيفا ، فإذا هو في لمح البصر هاديء مطمئن مستأنس وديع ،
فهذا ما تحار في تأويله العقول .

وقد حار الباحثون في تأويل هذه الأعمال وما إليها . حتى لقد رأى بعضهم
أنها من ضروب السحر والإيحاء أو التنويم المغناطيسي وما إلى ذلك من الفنون
المتصلة بما وراء الطبيعة أو بالنواحي الخفية من النفس .

فهم يقررون أن هذه الفنون قد بلغت لدى هؤلاء البدائيين مبلغا كبيرا ،
وأنهم كانوا يلجأون إليها في كثير من شئون حياتهم ، وأن كبار سحرتهم
كانت لديهم عن فنهم أسرار خطيرة ما كانوا ييؤحون بها إلا لنفر قليل من صفوة
تلاميذهم ومريديهم ، وأنهم كانوا يأتون أعمالا تحير عقول الأوربيين . ففوة
تأثيرهم على كثير من الحيوانات — لأن هذه الظاهرة لم تكن في الحقيقة مقصورة
على الحصان ، بل كانت تتحقق كذلك في حيوانات أخرى كثيرة — لا بد في
نظر هؤلاء أن يكون مرجعها إلى السحر أو إلى تدخل قوى خارجة عن الطبيعة ؛
إذ لا يمكن تأويلها في نظرم عن طريق آخر .

وثمة شواهد أخرى كثيرة تدل على أن هؤلاء الهنود مزودون ببعض قوى واستعدادات لا نظير لها بين العاديين من المتحضرين . فقد ثبت أن كثيرا منهم قد بلغ مبلغا كبيرا في شئون التنويم المغناطيسى ، فيستطيع بسهولة أن ينوم نفسه أو ينوم غيره ، ويتحقق في أثناء ذلك على يديه أو يدي وسيطه أمور خارقة للعادة عن طريق الإيحاء للغير أو الإيحاء الذاتي . وثبت كذلك أن كثيرا منهم مهيشون خير تهمة لأن يكونوا وسطاء من الطراز الأول في عمليات التنويم المغناطيسى .

ولعل هؤلاء البدائيين قد اكتسبوا هذه القوى السحرية والمغناطيسية من محنة التعميد Initiation التي كان يجتازها كل فرد منهم عند ما يبلغ سنا معينة حتى يلتحق بالجمعية الدينية ويقف على خفاياها وأسرارها . فالطقوس المعقدة التي كان يخضع لها في أثناء التعميد ، وأنواع العذاب والآلام التي كان يتحتم عليه أن يذوقها مختارا ، والانتقاع عن متع الحياة ، وملزمة الصيام حتى عن الكلام أحيانا ، والعبادات المختلفة التي كان لزاما عليه أداؤها في مختلف ساعات الليل والنهار ، وحركات الرقص الدينى العنيف ، والأغاني المؤثرة التي كان يردد بها أوراده ، كل أولئك كان من شأنه أن يجرده شيئا فشيئا من ماديته ، ويوقظ نواحيه الروحية ، ويكسبه قوى خاصة تتجاوب مع بعض الكائنات وظواهر الكون وتؤثر فيها عن طريق الإيحاء والمشاركة الوجدانية وما إليهما . والحيوانات من أشد الكائنات تأثرا بالإيحاء ومن أدقها احساسا بمظاهر المشاركة الوجدانية . ألم تر إلى الكلب أو القط مثلا كيف ينجذب نحو بعض الغرباء من الاناسى والحيوان ، فيشعر نحوهم بالاطمئنان ؛ في حين ينفر من بعضهم ، ويحس حيالهم الخوف والانتزاع ؛ بدون أن يكون في مظهر هؤلاء ولا أولئك ما يدعو إلى المسلك الذى سلكه حيالهم . فلهل التفاعل بين القوى الروحية والمغناطيسية الى يكتسبها الهندي في أثناء مرحلة التعميد ، وبين الشعور الخفى للحيوان ، وقابليته للتأثير بالإيحاء وشدة احساسه بالمشاركة الوجدانية . . . لعل هذا التفاعل هو

الذى يذلل للهندي وسائل التأثير في الحيوان .

ويرى فريق آخر أن الهندي مزود بحواس مشبهة لحواس بعض الحيوانات ولا نظير لها عند المتحضرين من بنى الإنسان ، وأن هذه الحواس هى التى يستخدمها فى إدراك ما يحول بخاطر الحيوان وهى التى تتيح له وسائل التأثير عليه . وذلك ان الحيوانات مزودة بحواس غريبة لا نظير لها عند الإنسان المتحضر . ومن ذلك حاسة الاهتداء *Sens de l'orientation* التى توجد لدى طائفة كبيرة من الحيوانات والطيور والحشرات كالحصان والحمار والكلب والعمامة والنمل والنحل . فهذه الحيوانات لا تفضل طريقها إلى منازلها مهما بعدت عنها أو أبعدت . ومن ذلك أيضا الإحساس ببعض الظواهر الجوية والجيولوجية وتسجيلها قبل حدوثها أو فى أثناء حدوثها . فجميع الحيوانات تقريبا تحس الهزات الأرضية قبل حدوثها .

غير أن هذه الفروق التى يتسع نطاقها بين الحيوان والإنسان المتحضر تتضاءل كل التضاءل أو تنعدم بينه وبين الإنسان البدائي . فمعظم هذه الفرائض والحواس التى يمتاز بها الحيوان عن الإنسان المتحضر ، لها أشباه ونظائر عند البدائي . فحاسة الاهتداء وإدراك الظواهر الجوية والجيولوجية قبل حدوثها ، وقوة الشم ... كل ذلك يتوافر لدى البدائي فى درجة من الحدة والقوة لا تكاد تختلف عن درجته لدى الحيوان . فقد يكون بعض الحواس التى لا نظير لها لدينا هى التى يستخدمها الهندي فى إدراك ما يحول بخاطر الحيوان ، وهى التى تتيح له وسائل التأثير عليه . أو قد يكون التجاوب بين بعض الحواس الخفية عند الهندي ونظيرها عند الحيوان هو الذى يؤلف بين نفسيهما ، ويحقق بينهما التفاهم والتعارف والوثام . فالنفوس جنود مجندة ، ما تعارف منها انتلف ، وما تنافر منها اختلف .

* * *

ولكن يظهر لنا أن السبب فى هذه الظاهرة قد يكون أيسر من هذا كله . فقد يكون السبب فيها أن توحش الحصان كان طارئا فى هذه القارة ، وأن قطاعان

الخيول التي كانت تهم في سهولها منحدرة في الأصل من حيوانات كانت مستأنسة ومذلة للانسان .

وفي الحق أن قصة هذا الحيوان بهذه القارة لتؤيد هذا التفسير كل التأييد . فمن المسلم به أن هذا الحيوان لم يكن معروفا للسكان الأصليين في العصر الذي دخل فيه الأوروبيون هذه القارة . ويدل على ذلك أن قدماء المسكتشفين والغزاة من الأوروبيين ، أمثال فرنسوا پزار François Pizarre الذي أخضع عشائر الإنكا Inca وهم سكان بيرو الأصليين (١) ، وفرناند كورتز Fernand Cortez الذي أخضع عشائر الأزتك Azteques وهم سكان المكسيك الأصليين (٢) لم يعثروا على هذا الحيوان ، بل لم يعثروا على أي أثر أو صورة له في أية منطقة من المناطق الواسعة التي كان يسكنها قبائل الإنكابيرو وقبائل الأزتك بالمكسيك ، مع أن هذه القبائل كانت من أرقى سكان أمريكا الأصليين مدنية وأعرافها حضارة . بل إن أفراد هذه العشائر كان يتمسكهم الفزع عند رؤيتهم الحصان مع الأوروبيين ، وكانت نفوسهم تطير شعاعا عند سماعهم صرجه وصهيله .

ومن المسلم به كذلك أنه قد أفلت من جيش كورتز Cortez في أثناء تدهقر سريع فجائي اضطر إليه في غزوة من غزواته ببلاد المكسيك نحو خمسين فرسا ، وأن هذه الأفراس قد هامت على وجوهها في سهول هذه القارة . ففعل هذه الأفراس هي التي تألف من سلالتها في نحو نصف قرن هذا العدد الكبير من قطعان الخيول ، التي أصبحت مع تقادم عهدها بالاستئناس شبه متوحشة أو في حالة بين التوحش والاستئناس ، ولعل هذه الخيول هي التي كان يتعقبها الهنود الحمر بالصيد ويردون ما يصيدونه منها إلى حالة الاستئناس .

(١) رحلة أسباني (١٤٧٥ — ١٥٤١) وقد غزا شعوب الإنكا بمنطقة بيرو وأخضعها لإسبانيا .

(٢) ضابط أسباني (١٤٨٥ — ١٥٤٧) وقد غزا شعوب الأزتك بالمكسيك وأخضعها لإسبانيا .

وعلى ضوء ذلك يمكن أن نعلل السهولة التي كان ينتقل بها الحصان من حالة الوحشية إلى حالة الاستئناس ، ونذكر العوامل التاريخية الخفية التي كانت تذلل للهندي وسائل النجاح في حركته الجريئة ، إذ كان — كما قلنا — يتقدم نحو الحصان الذي صاده وهو في أشد حالات ثورته ، فيمسح عليه بيده مسحا خفيفا ، فإذا هو حمل مستأنس وديع . وذلك أننا بصدد حيوانات طرأ عليها التوحش ، لأنها منحدرة من أصول كانت مستأنسة ومذلة للإنسان . ولذلك كان ينتقل إليها عن طريق الوراثة النوعية Atavisme الميل إلى الاستئناس الذي كان عند آبائها الأولين . ولكن هذا الميل كان يظل كامنا لديها إلى أن تتاح له فرصة للظهور ، ويتحقق ما يشيره ، شأنه في ذلك شأن جميع الصفات الوراثية الكامنة . ولعل ملاصقة الهندي للحيوان ومسحه على جسمه ... لعل كل ذلك كان الفرصة المواتية لإثارة هذا الميل وانبعائه من مكانه ، فتعاود الحيوان حينئذ على حين غرة نزعتة القديمة إلى معاشرة الإنسان والخضوع له ، فيسلم نفسه إليه .

وأما فيما يتعلق بصيد الجاموس الوحشي Bison فقد كانت قطعان هذا الحيوان تستأثر بأكبر حيز من هذه القارة ويكاد مثار نفعها يحجب ضوء الشمس ، حتى إن قطيعا واحدا منها قد شغل في أثناء هجرته مساحة عرضها سبعون ألف متر ، وبلغ طوله أن أنعامه ظلت تتدافع بعضها إثر بعض في سير سريع مطرد مدة خمسة أيام متواليات .

ولغزارة هذا الحيوان وعدم وجود مراعي واسعة تكفيه مدة طويلة في منطقة واحدة كان لا ينفك يهاجر في طلب الكلأ من موطن لآخر . ولما كانت حياة الهنود الحمر متوقفة عليه كانوا يرحلون معه أينما رحل ويحلون حيثما حل ، ولا يفتأون في حلهم وترحالهم يشنون عليه غارات الصيد ، ويتزودون منه بما يسد حاجتهم للغذاء والكساء ومرافق الحياة .

وكان صيدهم لهذا الحيوان ينتهى دائماً بالإجهاز عليه ، فلم يحاولوا مطلقاً صيده حياً ولا استئناسه ، كما كانوا يفعلون مع الحصان الوحشى . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى سهولة حصولهم عليه ، وغزارته فى حالته الطبيعية ، حتى إن الحاجة لا تدعو إلى إنمائه بالاستئناس . هذا إلى أنه كان كامل التوحش غير مهيباً للدجون ، على عكس ما كان عليه الحصان الوحشى .

وكان أهم مواسم صيده قبل الشتاء . حيث يندفع لطلب السكلاً مهاجراً صوب الجنوب فى قطعان يصعد عدد بعضها إلى عدة ملايين ، ويهبط بعضها إلى بضعة آلاف ، ويخترق السهول فى طرائق معينة معروفة تسمى «مسالك الجاموس» .

فى هذا الفصل على الأخص كانت كل عشيرة من عشائر الهنود الحمر تبعث روادها بجوسون خلال هذه المسالك ، ثم يقفلون بأنباء دقيقة عن مستقر الأنعام ومسيرها . فيستخف العشيرة الفرح بهذه البشرى ، حتى ليكاد أفرادها يخرجون عن وقارهم ، ويسلبون أنفسهم لرقصات دينية عنيفة وغناء صاخب ، ثم يبتهلون إلى آلهتهم أن تجعل التوفيق رائدهم فى صيدهم وتهمي لهم من أمرهم رشداً .

وبعد أن يصبغ الرجال جسومهم بألوان خاصة جرت بها التقاليد فى حفلات الصيد ويعدون أسلحتهم وخيولهم يأخذون طريقهم نحو القطيع ، يتبعهم الأولاد والنساء .

وكانوا يحرصون على التخفيف عن خيولهم بقدر المستطاع فى المرحلة الأولى ، وهى مرحلة السفر للحاق بالقطيع ، حتى لا ينالها التعب فتعجز فى أثناء الصيد نفسه عن بذل ما ينبغى بذله من مجهود . ولذلك كانوا يؤثرون فى أثناء هذه المرحلة أن يجنبوها ^(١) وبسروا رجالاً بجوارها ، ولا يمتطوها إلا حيث يشرفون على القطيع ويشرعون فى عمليات الصيد . وهذا هو عكس ما كانوا يفعلون فى صيدهم للحصان الوحشى . فقد كانوا فى صيد الحصان الوحشى يقطعون المرحلة

(١) جنب الفرس يجنبه من باب قتل إذا قاده إلى جنبه .

الأولى وهى مرحلة السفر للحاق بالقطيع على ظهور خيولهم ثم يعاجون عمليات الصيد نفسها رجالا .

وكانت دوافع ترجلهم فى الحالة الأولى تختلف كل الاختلاف عنها فى الحالة الأخرى . ففى صيد الجاموس الوحشى كان يدفعهم إلى ذلك حرصهم على التخفيف عن خيولهم فى مرحلة السفر الأولى حتى تباشروا عمليات الصيد وقواها سليمة موفورة ؛ ولكن فى صيد الحصان الوحشى كان يدفعهم إلى ذلك خوفهم من أن تفسد عليهم خيولهم المستأنسة خططهم فى الصيد ، وتنحرف فى عدوها عن الطريق البجادة التى ينبغى أن يسلكوها فى تعقب طرائدهم .

وكانوا يفضلون أحيانا فى سفرهم مدة طويلة قبل أن يشرفوا على قطيع الجاموس ، وتبين لهم أشراطه عن كذب فى سحب الفيار التى تتألف من مشار نغمه ، ودوى الرعد المنبعث من خواره وغمغمته وصعاقه (١) ورجع أنفاسه فى أثناء سيره وتدافع أفرادها بعضها إثر بعض .

وبعد أن يشرف أفراد العشيرة على القطيع ، يمتطى الرجال صهوة خيولهم ، وتنقسم القافلة عدة كتائب لكل كتيبة منها عمل معلوم . ولعل الهنود الحمر قد أخذوا ذلك عن جماعة الذئاب إذ تلتقى بقطيع من الأنعام ، فتقسم إلى شراذم تتحين كل شردمة منها الفرصة المواتية للهجوم على الحيوانات المتخافة أو المريضة أو الجريحة ، لأنها لا تستطيع أن تنفذ إلى كتلة القطيع نفسه ، ومن الإسراف فى مجهودها أن تتجمع فى بقعة واحدة .

وبعد أن يصدر الرئيس إشارة البدء فى العمل ، تصطف الكتائب كل كتيبة منها على مسافة من الأخرى ، ثم يندفع أفراد الكتيبة الأولى نحو قسم من القطيع فيجلبون عليه بخيلهم ، ويشيرونه بأصوات صاخبة مزججة ، ويعمدون إلى الأثى التى تقوده فيفصلونها هى وأتباعها عن القطيع ، ويستفزون القسم المنفصل ،

(١) الحوار من صوت البقر والغم والظباء وما إليها ، والغمغمه أصوات الثيران عند الذعر ، والصعاق خوارها الشديد .

ويعملون على تطويقه من بعض نواحيه ، ويدفعونه إلى حيث تقف أفراد
الكتيبة الثانية ، وهذه تزيد في إقصائه عن القطيع وفي تطويقه ... وهكذا
حتى ينفصل عنه كل الانفصال ، ويصبح مطوقا من جميع جهاته بالرجال .
فيتراكم بعضه على بعض ، وتضطرب حركاته ، ويكثر شمه لمواطنه أقدامه ،
ويعلو خواره وصعاقه ، ويحفر الأرض بأظلافه حفرأ شديدا ، فتتعدد
في الجو سحب كثيفة من الغبار ، وينغمز الرجال والأنعام في ظلمات بعضها
فوق بعض . وفي أثناء ذلك يكون كل فارس قد اختار لنفسه قنيصا ، فيركض
فرسه نحوه حتى يحاذيه ، ويضعه على يساره ، ثم يسدد إليه سهمه فيرديه جريحا
أو قتيلا .

وتتطلق هذه السهام من أيدي حاذقة صناع ، فلا تخطئ الرمية ، ولا تنحرف
عن الهدف ، وتندفع بقوة منقطة النظير ، حتى إن بعضها ليرق من الحيوان
مروقا ، ويستقر فيما يصافه بعد ذلك . وقد جرت العادة أن يضرب الحيوان بين
كتفيه ، فيتروخ بضع خطوات ثم يسقط مشخنا بجراحه أو جملة هامة .

وحينئذ يغادره الصائد بدون أن يحاول الإجهاز عليه إن كان لا يزال حيا
حتى لا يضيع عليه الوقت ، ويتعقب قنصيا آخر ثم ثالثا ورابعا .. حتى ينتهي الصيد ،
فيعود كل صائد إلى ما أصابه من هذه الحيوانات في مختلف جولاته — ويعرفها
بالسهم المنغمسة في كل منها ، لأن كل سهم منها كان يحمل سمه صاحبه — فيجوز
على ما لا يزال حيا من بينها ، ويعد رؤوسها ، ويزهو على أقرانه إن كان قد أصاب
منها عددا كبيرا .

وقد يستخدم الصائد أحيانا حربته أو خنجره . فإذا اختار الحربه جعل
الحيوان على يساره وغرسها في ظهره وهو على صهوة جواده . وإذا اختار الخنجر
تابع قنيصه حتى يقرب منه ، فيقفز من ظهر جواده . ويستقر على ظهر الحيوان
نفسه ، ويغمد خنجره بين كتفيه .

ولم تكن عمليات الصيد لتخلو من الخطر ؛ بل كانت تنتهى أحيانا بحوادث أليمة تزهق فيها بعض النفوس . فإذا أنبت بعض أفراد القافلة مثلاً عن زملائه وحاول إثارة قسم من هذه الحيوانات لفصلها عن قطيعها ، ولكنه لم يجد وراءه من يسلمها له ، ولم ينجح في تحويلها عن اتجاهها ، وضاق وقته أو قصرت حيلته عن البعد عن طريقها ، كان مصيره الموت البطيء هو وجواده تحت أقدام القطيع .

وكانت القافلة تعمل جهدها على تقصير زمن الصيد والاكتفاء بالضرورى منه ، كما كانت تحرص على حصر غنائمها في حين ضيق وعدم بعثرتها هنا وهناك .

ولذلك كان رجالها يحيطون بالقسم المنفصل عن القطيع ، ويضغطونه في أضيق دائرة ممكنة ، ويعوقون سيره ، ويسدون عليه المنافذ ، فإذا أفلت على الرغم من ذلك بعض الأنعام من النطاق المضروب ، تركوها وشأنها ، ولم يحشموها أنفسهم مشقة تعقبها ، حتى لا تتسع عليهم حلبة الصيد وتتبعثر الغنائم .

وكان عمل الرجال يقف عند هذا الحد . أما ما عدا ذلك من العمليات الشاقة التي كانت تجرى على لحوم هذه الحيوانات وجلودها لإعدادها لحاجات الغذاء والكساء والمسكن والأثاث والماعون والسلاح وسائر مرافق الحياة ، فكان يقع على كاهل الجنس الضعيف . وهكذا كانت الأعمال مقسمة بين الجنسين قسمة غريبة ضيزى .

مظاهر غريبة من الفروسية والقتال عند البدائيين

كان القتال في نظر كثير من البدائيين ، وخاصة الهنود الحمر ، ضرباً من ضروب الصيد كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق . ولذلك لم تكن مناهجه العادية

ومناهج خداعه ، لتختلف عن نظائرها في الصيد إلا اختلافا يسيراً . فكما كان الهنود يبحثون في الصيد عن القطيع مهتدين بآثار أقدامه في الأرض ، كانوا كذلك في الحرب يعتمدون في الغالب على اقتفاء الآثار في البحث عن العدو مهاجر يقاتلونه . وكما كانوا في المناهج العادية للصيد يهجمون على الحيوان سافرين ويشقّبكون معه أحياناً في صراع ينتصر فيه أكثر الفريقين جرأة ومهارة ، كانوا كذلك في المناهج العادية للقتال يغيرون على عدوهم بعد أن يندروه بعلامات تشبه إعلان الحرب حتى يتأهب للقائهم ويعد لهم ما يستطيع إعداده من قوة ومن رباط الخيل . وكما كانوا في مناهج الخداع في الصيد يخفون أنفسهم عن الحيوان أو عن القطيع أو يظهرون أمامه بمظهر مصطنع لا يوجب خيفة منه حتى يتمكنوا من مهاجمته أو أخذه على غرة ، كانوا كذلك في مناهج الخداع في القتال يلبسون على العدو بإخفاء أنفسهم أو ظهورهم في غير مظهرهم الطبيعي حتى يتمكنوا من مفاجاته ويحولوا بينه وبين التأهب للقتال .

ولما كانت حياة معظمهم حياة بداءة ونجعة وتنقل في طلب السكّاء والصيد كانت معظم حروبهم تحدث بين عشائر متنقلة في طريق رحلتها أو في أثناء استقرارها الموقوت . فكانت العشيرة قبل أن تنفر للقتال ترسل بعض روادها للوقوف على اتجاهات العشائر الأخرى في سيرها ، وكان يهديهم إلى ذلك اقتفاء الآثار التي ترسمها في الأرض أقدام القوافل المهاجرة .

وقد بلغ قافتهم^(١) في فهم هذا مبلغاً كبيراً من الأهمية والحدق ، حتى إنهم كانوا يعرفون بفضل هذه الآثار اسم العشيرة المهاجرة وعدد أفرادها ونوعهم ووجهتهم وتاريخ مرورهم من هذا السبيل وأقصر طريق للحاق بهم وهم جرا . وبعد أن يستقر الراى على غزو عشيرة ما يعكف أفراد العشيرة المهاجرة ، قبل أن ينفروا للقتال على بعض طقوس واستعدادات تقتضيها تقاليدهم في هذه

(١) القائف الذى يعرف الآثار والجمع القافة ويسمى الفن نفسه القيافة .

المناسبات . فيدق الرؤساء طبول الحرب ، ويطلقون في الهواء دخانا خاصا ، فيجتمع المقاتلون بعد أن يكون كل منهم قد أعد عدته ، فحمل أسلحته وذخائره ولبس ملابس القتال وقلنسوته المزينة بريش النسور ، وغطى وجهه بقناع الحرب . وكان هذا القناع عند هنود الوديان والسهول يغطي جميع أجزاء الوجه ماعدا العجبة والعينين ، ويدهن بصبغة حمراء قانية . وكان بعض عشائر الهنود الحمر يدهنون وجوههم نفسا بهذه الصبغة . وإلى هذا يرجع السبب في وصفهم «بالحمر» ، مع أن لون بشرتهم الطبيعية لم يكن من الحمرة في شيء . وكانوا يدهنون كذلك الخيل التي سيستخدمونها في الحرب بألوان معينة وينقشون على وجوهها وصفحاتها نقوشا خاصة .

ثم يأخذ كل منهم مكانه في حلقة الرقص الحربي . وكان هذا الرقص على أنواع كثيرة تختلف باختلاف العشائر . فعند عشائر السيو مثلا Les Sioux كان المحاربون يلتفون حول موقد ملتهب الحجر ، وينحنون نحوه ثم ينتصبون ، كما يفعل بعض رجال الطرق الصوفية في أذكارهم في العصر الحاضر ، مرددين في أثناء ذلك هذه العبارة : « إن النار مجردة من الرحمة والشفقة . وسنكون نحن مثلها حيال أعدائنا » . ثم يقبض رئيس العشيرة قبضة من التراب ويمسح بها خدود رجاله مبتهلا إلى الأصل الأول الذي انحدرت منه العشيرة — وهو الجاموس الوحشي — أن يجعل التوفيق رائداهم في حربهم هذه . وفي تعفير وجوههم بالتراب تمثيل لحالة الجاموس الوحشي عند محاولته الهجوم على العدو ، إذ يحفر حينئذ الأرض بأظلافه وقرونه ويشير نفعها على وجهه ثم ينقض انقضاض الصاعقة على خصيمه .

وبعد أن يفرغوا من هذه الطقوس يتناول كل محارب من مخلاته المدلاة على جنبه قطعة من الفحم ، ويخط بها على جسمه علامات الخاصة به ، وفق ما عرفت عليه عشيرته في طرق التمييز بين الأفراد .

ثم يتجمعون مرة ثانية في حلقة كبيرة يدورون حول محيطها في حركات انجذاب عنيفة على نحو ما يحدث من بعض أرباب الطرق الصوفية في حلقات الذكر

مرتلين في أثناء ذلك غناءهم الديني المقدس بنغمه الخاص به .

ثم يصدر الرئيس أمره بالنفير ، فيتحرك الجيش شطر العشيرة التي استقر الرأي على مهاجمتها . وتعطى أوامر الرئيس وإشارات تنظيمه لسير الجيش بصفارة كانوا يتخذونها من عظام الديك الوحشي وخاصة عظام نخذه . فكان الرئيس يحمل هذه الصفارة مدلاة على صدره ، وينفخ فيها نفخات خاصة ترمز إلى أوامر وتنظيمات : فكان لها مثلاً صوت خاص للهجوم ، وصوت آخر للانسحاب ... وهلم جرا . وكانوا أحياناً يستخدمون كذلك لهذه الأغراض الأعلام وأغصان الأشجار : فنشر العلم الأحمر كان يعنى الأمر بالشروع في القتال ؛ ونشر العلم الأبيض أو التلويع بغصن أخضر كان يشير إلى طلب الهدنة أو وقف القتال .

وكانوا ينظرون إلى طلب الهدنة أو وقف القتال بهذه الوسيلة إلى أمر مقدس لا يجوز رفضه أو الخروج عليه . وقد تركت هذه التقاليد البدائية رواسب في جميع الأمم الإنسانية .

وكانوا في أثناء اشتباكهم يصيحون صيحة الحرب ، وهي صيحة حادة مؤثرة تستغرق وقتاً طويلاً وتصحب بدقات سريعة متتابعة تنبعث عن التصفيق بالألأ كف أو تحريك الأصابع على الشفتين . ولم يكن في جرس الصيحة نفسها ما يزعج أو يخيف ، ولكن ارتباطها في أذهان العشيرة المغزوة بأعمال الحرب واستدعاءها في أذهان أفرادها لكل ما يصحبها من تقتيل وإبادة وتدمير ، كل ذلك كان يذيب القلوب من هولها فرقاً ويطير بالنفوس شعاعاً .

وأما طرق السكر والهجوم والالتحام فلم يكن فيها ما يختلف كثيراً عن نظائره في الأمم المتحضرة أيام أن كان الاعتماد في الحروب على الخيول وفنون الفروسية . وأما فيما يتعلق بأسلحة الحرب فكانوا يستخدمون منها كل ما يصلح للقضاء على الخصم أو أسره إن لم يمكن قتله .

وكان بعض العشائر يستخدم في القتال وسائل مراوغة وخداع . لمفاجأة العدو وأخذه على حين غرة منه . وكانت هذه الوسائل تتمثل في محاولة العشيرة المهاجمة أن تلبس على خصمها بإخفاء رجالها أو إظهارهم في غير مظهرهم الآدمي كما كانوا يفعلون في الصيد .

فمن ذلك مثلاً أن عشائر الأباش كان يتجمع محاربوها أحياناً في أطراف غابة قريبة من مساكن العشيرة التي يبعثون قتالها . وفي يد كل منهم فرع طويل يختفي وراءه ويتقدم به في حركة وثيدة منقطعة يخيل للناظر إليها أنها حركة أغصان ثابتة يداعبها الهواء .

ومن ذلك أيضاً ما كانت تلبجاً إليه أحياناً عشائر السكوماناش لمفاجأة أعدائهم بالهجوم . فقد كانوا يستخدمون خيولاً غير مسرجة ويمد كل منهم جسمه بجانب صفحة فرسه ، مطوقاً رقبته بذراعيه ومعتمداً باحدى قدميه على مؤخرة ظهره ، وفي منطقته قوسه وجمعة سهامه ، ثم يطلقون هذه الخيول شطر العشيرة التي يريدون غزوها ، فيخيل لمن يراها على هذه الصورة وليس على ظهورها رجال ولا سروج أنها قطيع من الخيول الوحشية ترتع وحدها في السهول ، ويظنون كذلك حتى يشرفوا على منازل أعدائهم ، فيستديرون مرة واحدة من صفحات خيولهم إلى ظهورها ، كأنهم مرده من الجن قد انشقت عنهم الأرض ، أو أشباح من العالم العلوي قد قذفتهم السماء .

ومن ذلك أيضاً ما كان يلجأ إليه أحياناً عشائر السكوماناش نفسها في الغارات التي كانت تشنها على بعض العشائر لمجرد الاستيلاء على ما تملكه من خيول . فقد كانوا يعتمدون في غزواتهم هذه على قوة المفاجأة وسعة الخيلة ، وينتفعون فيها بما كان لديهم من خبرة منقطعة النظر عن طبائع الخيل وغرائزها ومناهجها في مختلف شئون حياتها .

فكانوا ينتظرون حتى ينقضى شطر كبير من الليل ، ويكون أفراد العشيرة المقصودة في سبات عميق ، فيمتطي كل محارب منهم صهوة جواده المختار ، وفي يده حربته وهرأوته وجلد خشن مدبوغ من جلود الجاموس الوحشي . ويتم هذا كله في حركة سريعة ماهرة ، فلا يسمع لهم ركز ، ولا تحس لهم نبأة . وما هي إلا فينة كلب البصر أو هي أقرب حتى يكونوا في القرية التي يبغون سلبها ، فيجوسون خلال ديارها ، وينتشرون في مختلف دروبها ، وهم يصيحون صيحات مزعجة ، ويقعقعون بالشنان التي يحملونها ، ويحكون أطرافها بعضها ببعض ، فينبعث من احتكاكها دوى كدوى الرعد ، ويقوضون الخيام على رؤس النائمين تحتها ، ويبعثون أمتعتهم وأثاثهم في مختلف الانحاء . فتطير نفوس هؤلاء شعاعاً ، ويتملكهم الطلع والرعب ، ويتفرقون شذر مذر ، ويجمع كل منهم طالباً لنفسه النجاة ، لا يلتفت وراءه ، ولا يلوى على أحد أيا كان ، حتى لتذهل المرصعة عما أرضعت ، وه يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبه وبنيه : لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه . — وتنقضى على هذه الحال فترة طويلة يعجز في أثنائها كاة القوم ورؤساؤهم وشيوخهم عن تهدئة فزعهم ولم شملهم ، ولكنهم لا يزالون بهم حتى يفيقوا من ذهولهم ، ويفرخ روعهم ، وتنزل عليهم السكينة ، وتنبعث في نفوسهم الحمية ، وتعاودهم نكرة العصبية ونزعة الدفاع عن الأهل والعشيرة ، فيجتمعون ويتمأون للاشتباك مع الغزاة ، ويتسلحون بما يتاح لهم جمعه من هنا وهناك . ولكنهم يبحثون عن العدو فلا يجدون أثراً له ، ويتحسسون من أنفسهم وأهلهم فإذا هم كما كانوا قبل هذا الطائف الغريب ، لم ينقص منهم فرد ، ولم يصب منهم أحد بأذى بليغ ، ويتلمسون أثاثهم وأمتعتهم فيجدونها كاملة لم يأخذ العدو منها قتيلاً ، وإن بعثرها في مختلف الانحاء . ولكنهم يتفقدون خيولهم فيتبين لهم من آثارها أنها قد تملكها الذعر ، فطمت قيودها ، وانطلقت هائمة على وجوهها ، بدون أن يحاول أحد أن يعترضها سبيلاً . فيخيل إليهم أن نفرأ من الجن قد اتخذوا في هذه الليلة من دروب قريتهم ملاعب ، ومن مناعهم دمي وكرات ! !

وفي الحق أن الكومانش ما كان يهمهم من الجلبة التي أحدثوها إلا أن تحطم الخيول قيودها وتنطلق هائمة على وجوهها ، لئتمكنوا من الإسقيلاء عليها بدون جهد ولا عناء ولا اشتباك في حروب . وذلك أنهم في ضوء معلوماتهم الدقيقة عن طبائع الخيل وغرائزها ومناهجها في مختلف شئونها ، كانوا يعرفون الطرق التي ستسلكها هذه الخيول ومواطن تجمعها ، ويعلمون مدى طاقتها في العدو ، ومتى ينال منها الإعياء حتى لا تقوى على حركة ، ويعملون على مفاجأتها في فترة عجزها هذا . فيجمعونها غنيمة سهلة ثمينة ، ويقبضون بها إلى ديارهم .

* * *

وكانت القاعدة الغالبة عند معظم عشائر الهنود الحمر أن يعاملوا أسرى الحرب معاملة إنسانية رفيقة ، بل إننا لا نكاد نجد استثناء صارخا لهذه القاعدة إلا عند عشائر الأباش . فقد جرت عادة هؤلاء أن يقطعوا أصابع أسراهم وهم أحياء ، ويتخذوا من هذه الأصابع أساور وفلائد يتحلى بها الرجال للزينة والزهو ولتكون دليلا على شجاعتهم وكثرة من وقع في أيديهم وأذلوه من أسارى الحرب . وكانوا بجانب ذلك يسومون أسراهم صنوفا أخرى كثيرة من العذاب . وقد بلغوا في تفننهم وقوة ابتكارهم لآلوان التعذيب التي كانوا يصبونها على الأسرى درجة منقطعة النظير تشهد بخصب خيالهم وسعة حيلتهم ، أو بالأحرى بخصب خيال نسايتهم وسعة حيلتهن ، فقد كان يعهد بذلك للنساء ، وكن يؤدينه على أعنف وجه ، وأشد قسوة ، وأدناه إلى طبائع الوحش والافتراس .

ولم يكن الباعث الأصلي على ذلك مجرد التلذذ برؤية الدم المراق ، أو بالتعذيب والتشيل بأجسام الناس ، وإنما كان الباعث عليه أن ينتزع من الأسير ، من شدة ما يسامه من الخسف ، اعتراف بضعفه وقوة قاهريه . وذلك أن قهر الأسير ما كان يتحقق في نظرهم إلا إذا ظهرت عليه الذلة والمسكنة ، فاعترف بضعفه ، وعدم قدرته على احتمال ما يحتمله الحكمة من الرجال ، أو طلب الرحمة من أسريه . غير أنه كان من المتعذر في الغالب أن ينتزع من الأسير

اعتراف من هذا القبيل مهما بولغ في تعذيبه . فقد وصل الهنود الحمر في اعتزازهم بأنفسهم وعشايرهم ، وترفعهم عند الظهور بمظهر الذلة والعجز ، وقدرتهم على احتمال الآلام ، إلى درجة لم يكند يصل إلى مثلها أو ما يقرب منها أى شعب آخر من شعوب الأرض . ولعل صنوف العذاب التي كان لزاما أن يذوقها كل واحد منهم مختاراً في أثناء مرحلة التعميد Initiation والتي أشرنا إليها فيما سبق هي التي كان لها الفضل في بث هذه النزعة في نفوسهم ، وفي تدريبهم على قوة الاحتمال ، وفي مبلغ ما وصلوا إليه في الاستخفاف بآلام الجسم والاستهانة بما يصيبه من فساد . فقد كان الأسير يشد وثاقه إلى سارية ، وتصب عليه أسواط العذاب من كل صنف ، ويأتيه الموت من كل مكان ، بدون أن يفتر لسانه عن ترديد أغنيات حماسية خاصة بهذه المناسبات تسمى « أغاني الموت » ، يعدد فيها مناقبة ، وما أثر عنه في ميدان الوغى من إقدام وشجاعة ، ويزهو أنه لم ير بعد من هو أقوى منه في ميادين الحرب أو أشد لها مراسا ، ويستخف بأسريه وبما يسومونه إياه من عذاب ، ويوجه إليهم من لاذع الإهانة ما يثير الجحاد . وكلما زادوه تسكيلا زاده هذا إمعانا في زهوه وتحقيره إياهم . فينتهي بهم الأمر إلى اليأس من أن ينتزعوا منه ما كانوا يريدون انتزاعه من اعتراف صريح بالضعف . وحينئذ يقنعون بما دون القليل ، ويودون لو صدر عنه اعتراف ضمني بذلك في تأوه أو رعشة ألم . وحتى هذا الاعتراف الضمني ما كانوا يستطيعون في الغالب سبيلا إلى الحصول عليه . فقد كان الأسير يقطع إربا إربا بدون أن يفتر لسانه عن التغنى بشجاعته والتهم بأعدائه . فنتيجة جهودهم كلها حينئذ إلى العمل على إسكاته بأية وسيلة . وحتى هذه الغاية السلمية ما كانوا يستطيعون في الغالب سبيلا إلى تحقيقها إلا إذا انتزعوا لسان الأسير انتزاعا من بين فكليه !!

فلم يكن الباعث لهم إذن على تعذيب الأسير مجرد الرغبة في التعذيب أو إرضاء ميول دموية ، وإنما كان ذلك نتيجة لازمة لأمرين : أحدهما شدة حرص المنتصر

على أن يعترف المقهور بتهره في صورة ما ؛ وثانيهما شدة عناد المقهور وتجاهله لما حدث ولما يجري عليه وإمعانه في إنكار الهزيمة .

وقد زاد من اندفاعهم في هذا السبيل علمهم أنهم سيلاقون المصير نفسه إذا وقعوا أسارى في أيدي أعدائهم ، وأن هؤلاء لن يدخروا وسعاً في تعذيبهم والانتقام منهم : فكانوا يعملون ، قبل أن يلاقهم هذا المصير المهيّن ، على أن ينعموا بأقصى ما يمكنهم أن ينعموا به من لذة النصر والارتياح إلى الفهر وإذلال الأعداء .

* * *

وقد اشتهر الهنود الجرباءة غريبة في التمثيل بالأسرى وهي انتزاع دواراتهم بجلدها وشعرها . وذلك أنهم كانوا يعمدون إلى دائرة في نحو مساحة الكف في قمة الرأس حيث ينزر الشعر فيفصلون محيطها بمشرط عن بقية جلد الرأس ثم يمسكون بخصلة شعرها ويجذبونها جذبة قوية فتنفصل مع جلدتها عن الرأس . وكان يكتبني أحياناً بانتزاع خصلة الشعر وحدها إذا لم يستطع انتزاع الجلد أو لم يتسع الوقت لذلك .

وما كان يجوز أن تجرى هذه العملية إلا على عدو ، أى شخص من غير أفراد القبيلة . فإذا اتفق أن أسر الهندي فرداً من قبيلته أو قتله فإن التقاليد تحرم عليه تحريماً باتاً أن ينتزع دوارته ، وتعد ذلك جرماً كبيراً يخدش الشرف والكرامة ، ويعرض مقترفه لمسئولية خطيرة .

وكان الغالب أن تجرى هذه العملية على العدو بعد موته ، أو إذا ظن أو فرض أنه مات . وإذا أجريت عليه وهو حي لم تسكن في جميع الأحوال لتؤدي إلى موته . فالجرح نفسه لم يكن خطيراً ، ولم يكن ليستغرق من جلدة الرأس إلا حيزاً ضيقاً لا يكاد يتجاوز في مساحته باطن الكف . ولذلك كان يوجد بين بدو السهول وساكني القرى كثير ممن انتزعت دواراتهم ثم التأم

جرحهم وظلوا أحياء أشداء . وكان بعضهم لا يستنكف أن يظهر آثار جرحه ، على حين أن معظمهم كان يحرص على إخفائه تحت قلعسوته أو عقدة منديله خجلا من مظهر الهزيمة الذي يرمز إليها .

وكانت العشيرة تعنى بجمع ما انتزعت من رؤوس أعدائها من دوارات وتتخذ منه مادة للتفاخر والزهو ، وآية على شجاعة رجالها وجرأتهم في ميادين الوغى ، وكثرة من وقع في أيديهم وأذلوه من أسارى الحرب . ولذلك كانوا يحرصون على إظهار هذه الدوارات وعرضها ، فيحملونها بأيديهم كالمذبات ، ويعلقونها في أعناق خيولهم وفي أسلحتهم وأرديتهم وسراويلهم وأمتعتهم ، ويزينون بها خيامهم ، ويرفعونها كالأعلام في كثير من المناسبات في وجهات منازلهم وعلى جوانبها وقمها وفي رؤوس أعمدتها ، ويلصقونها في طوق متخذ من غصن أخضر ويثبتون الطوق في نهاية عصا طويلة يحملونها معهم أو يقيمونها كالنصب في أفنية ديارهم .

ولم تكن هذه العادة مقصورة على الهنود الحمر بل كانت متبعة لدى شعوب أخرى في الدنيا القديمة نفسها . فقد ذكر هيرودوت أن السيشيين ، Seythes ، — وهم شعب بدوى همجي كان يتنقل في العصور القديمة في المناطق الواقعة في الشمال الشرقي من أوروبا والشمال الغربي من آسيا — كانوا يحرقونها على أسرى الحرب . ويظهر أن هذا التقليد أو ما يشبهه كان متبعا عند بعض الشعوب السامية القديمة وأن روايب منه قد بقيت عند العرب في الجاهلية . فقد كانوا يجزون ناصية الأسير إذا منوا عليه ، أي أطلقوا سراحه بدون فداء . وفي هذا يقول حسان بن ثابت :

كم من أسير فكك كناه بلائمن وجز ناصية كنا مواليها

ويظهر أن الهنود الحمر كان يدفعهم إلى ذلك في الأصل بعض عقائد تتصل بعالم الأرواح والعالم العلوى . فقد كان الشعر في نظرهم ، وخاصة شعر الدوارة ، هو رمز الروح ومقرها . فكانوا يظنون أن من تجرى عليه هذه العملية تصبح

روحه نفسها أسيرة في أيديهم فلا يستطيع أن تغادر مكانها وتثار لنفسها ، ولا أن تجلب أذى الأحياء من الناس ، ولا يستطيع الروح الأكبر Grand Esprit أن يرفعها إلى عليين في جنات الصيد العظيم Paradi des Grandes Chasses فتظل في العالم السفلى أبد الآبدين .

بيد أن انتزاع الدورات لم يكن منتشرا ، قبل دخول الأوربيين هذه القارة ، إلا عند بعض عشائر في الشمال الشرقي ، وخاصة عشائر الأيروكوين Les Iroquois الذين يعدم بعض الباحثين أقدم من ظهر فيهم هذا التقليد الوحشي من عشائر الهنود الحمر . أما العشائر التي كانت تسكن السهول ، وهي معظم عشائر الهنود الحمر ، كالسيو والشيين والكوماش ، فكانت إلى ذلك الحين تجهل هذا التقليد كل الجهل .

ولكن هذه العادة لم تلبث . بعد دخول الأوربيين هذه القارة ، أن انتشرت انتشارا كبيرا عند جميع عشائر الهنود الحمر . ويقع الوزر في انتشارها هذا على الأوربيين أنفسهم وما جلبته مدينتهم على هذه البلاد وأهلها من مصائب وأرزاء . فقد استحوذ على نفوس كثير من الأوربيين في ذلك العصر هواية غريبة لجمع هذه الدورات ، كما هوى كثير من الناس في العصر الحاضر جمع طوابع البريد . فانطلق هؤلاء ينقبون عنها في مختلف أرجاء القارة ، ويتجشمون في سبيلها المشاق والأسفار ، ويتنافسون في اقتنائها ، ويتسابقون في الإكثار من عددها ونوعها ، ويتتاعونها من البدائين بأغلى الأثمان . ونشأت في أثناء ذلك طبقة من التجار والوسطاء بين المنتجين والمستهلكين ، بين صائدي الدورات من البدائين وهواة جمعها من الأوربيين . وأخذت هذه الطبقة تعمل جاهدة على ترويج بضاعتها ، وإغراء المنتجين بمختلف وسائل الإغراء على زيادة إنتاجهم ، وحث المستهلكين على الإمعان في هواياتهم . فأصبح من جراء هذا كله للدورات سوق زاخرة تسيل فيها البضاعة منحدره من مختلف المنابع ، ويشهد منافعها عدة طوائف ، وتهوى إليها أفئدة كثير من الناس . ووجد البدائيون في هذه

البضاعة السهلة الإنتاج بجالا واسعا للريح وجمع الأموال ، فأخذت هذه العادة تنتقل من عشيرة إلى عشيرة ، وتسرى من منطقة إلى أخرى ، حتى عمت جميع أنحاء القارة . ولم يكمد يبزغ القرن السابع عشر حتى كان صيد ، الدورات المهمة المحيطة لجميع عشائر الهنود الحمر .

فانتشار هذه العادة لديهم ، واندفاعهم في تيارها هذا الاندفاع ، كل ذلك كان مرجعه إذاً إلى الأوربيين أنفسهم ، وكان قائما على الأسباب الاقتصادية نفسها التي دفعتهم إلى المبالغة في صيد الجاموس الوحشي لتقديم جلوده وأسنته إلى الشركات التي ألفها البيض للإشراف على هذه التجارة وتصديرها عقب استعمارهم لهذه البلاد . وإلى هذا العامل الاقتصادي الذي يقع وزره على الأوربيين وحدهم انضم فيما بعد عوامل الزهو والتفاخر والاعتبارات الدينية التي أشرنا إليها في صدر هذه الفقرة ، وتضافر كل أولئك على رواج هذه السوق وحرص الهنود الحمر على تزويدها بما تحتاج إليه .

ولكن مهما يكن من شيء بصدد مسئولية الأوربيين عن انتشار هذه العادة عند الهنود الحمر ، فإن اندفاع هؤلاء في هذا التيار لدليل على تأصل العادات الدموية وغرار القسوة والسفك في طباعهم ، واستخفافهم بالنفس الإنسانية ونظرهم إلى الأعداء نظرهم إلى أنعام الصيد .

أهم مراجع هذا الفصل

: الدكتور على عبد الواحد وافي

الهنود الحمر

Tréveni : et Coze : Mœurs et Histoire des Peaux Rouges

الفصل الثاني

لغة الإشارة عند البدائيين

تنقسم الإشارات الحسية التي تستخدم في الفصيلة الإنسانية للتفاهم وبقصد الدلالة إلى قسمين :

(أحدهما) إشارات مساعدة ونائية ، أي تساعد لغة الكلام وتنبأ عنها في حالات خاصة أو لضرورة ما : فمن هذه الطائفة الإشارات البحرية وهي التي يستخدمها عن بعد بحارة السفينة مع بحارة سفينة أخرى (١) ؛ ومنها إشارات الصيد وهي التي يستخدمها الصيادون بعضهم مع بعض عن بعد حتى لا يسمع صوتهم الحيوان المطارد ؛ ومنها الحركات اليدوية والجسمية التي يستخدمها الصم البكم للتعبير عما يجول بخواطهم ؛ ومنها الإشارات التي يلجأ إليها الفرد أحيانا للتعبير إذا كان المخاطب لا يفهم لغته ؛ والتي جرت العادة في بعض الأمم البدائية أن يستخدمها أفراد العشائر المختلفة اللهجات بعضهم مع بعض (٢) ؛ ومنها

(١) هذه الإشارات دولية معروفة لجميع البحارة ، وتدرس في مدارس البحرية .
(٢) عثر علماء الأنثروبوجرافيا على هذه الظاهرة عند كثير من قبائل السكان الأصليين لأمريكا وأستراليا ، وعند بعض العشائر الأفريقية . وقد روى الأستاذ كوهل Kohl أنه إذا التقى أحد الهنود الحمر (السكان الأصليين لأمريكا الشمالية) بآخر من غير عشيرته مختلف عنه في لغته ، فإنهما يلجآن في تعبيرهما إلى لغة الإشارات التي تعتبر عند هذه العشائر بمثابة لغة دولية . وقد مهر الهنود الحمر في هذه اللغة أعما مهارة . ففي إمكان المتخاطبين أن يظلا يوما كاملا يتحدثان عن طريق الإشارات باليد والأصابع والرجلين ، وأن يقص كل منهما على الآخر كل ما يود قصه عليه . — انظر ليفي برون : « الوظائف العقلية في الأمم الأولية » ١٧٨ وتوابها .

الإشارات التي تستخدم في بعض الشعوب في حالات الصيام الديني عن الكلام^(١)؛ ومنها الحركات التي يستعمل بها في أثناء حديثهم أهل اللغات الساذجة الناقصة لتسكلة ما ينقص تعبيرهم وما يعوزهم من دلالة^(٢)؛ ومنها الحركات التي تصحب حديثنا نحن لتوكيد المعاني أو لتمثيل الحقائق أو لزيادة التوضيح؛ والتي نستخدمها وحدها للدلالة على الإيجاب والنفي والاستحسان وما إلى ذلك، كالإيماء بالرأس للتعبير عن القبول، وتحريك السبابة حركة مستعرضة للتعبير عن الرفض أو النفي، ومد الشفتين ووضع السبابة عليها للأمر بالسكوت... وهلم جرا.

(وثانيهما) إشارات أصيلة عامة، وهي التي تتكون منها لغة كاملة مستقلة تستخدم وحدها في جميع الشئون والظروف. وقد استخدم هذا النوع من اللغات عند بعض الجماعات الإنسانية ولا يزال مستعملا في بعض العشائر.

فقد عثر في الأمم البدائية على جماعات كثيرة لا تكاد تستخدم في تعبيرها غير الإشارات اليدوية والجسمية. ومن هؤلاء بعض قبائل السكان الأصليين لأمريكا وأستراليا وبعض العشائر بأفريقيا الوسطى. ويطلق على هذا الضرب

(١) يوجد الصيام الديني عن الكلام عند كثير من الأمم البدائية وخاصة عند سكان أستراليا وأمريكا. فقد ذكر الأستاذان سينسر وجيلين في كتابهما عن سكان أستراليا الوسطى حالات كثيرة من هذا القبيل، منها أن المتوفى عنها زوجها يجب عليها أن تظل مدة طويلة، تبلغ أحيانا عاما كاملا صائمة عن الكلام. — ويظهر أن شيئا من هذا كان موجودا في ديانة اليهود، بدليل قوله تعالى على لسان مريم: «لاني نذرت للرحمن صوما، فلن أكلم اليوم إنسيا.. فأشارت إليه... الخ». (انظر صفحة ٦٠ من الجزء الأول من هذا الكتاب).

(٢) لوحظ هذا في كثير من الأمم البدائية. فقد روى عن البوشمان Boschimans (عشائر بدائية تسكن أفريقيا الجنوبية) أنهم إذا أرادوا المحادثة ليلا يضطرون إلى إشعال النار ليتمكنوا من رؤية الإشارات اليدوية التي تصحب كلامهم فتكمل ناقصه وتحدد مدلولاته — انظر ريبو: «تطور المعاني السكوية» ص ٧٨ وتوابها:

Ribot : Evolution des Idées... etc.

من التعبير لغة الإشارات ، أو الإشارات التحليلية *Gestes Analytiques* (١). وقد عني بدراسته عدد كبير من علماء الإثنوجرافيا والاجتماع من أشهرهم الكولونيل مولري *Mollery* (٢) وتيلور *Taylor* (٣) . ورومان *Romanes* (٤) وليبوك *Lubbock* (٥) وسبنسر وجيلين *Spencer and Gillett* (٦) . وليفي برول *Levy Bruhl* (٧) وريبو *Ribot* (٨) والدكتور فيشر الألماني *Fischer* (٩) وروث *Roth* (١٠).

وقد صور الدكتور فيشر هذا النوع من اللغات وقربه إلى الأذهان إذ يقول:

(١) صاحب هذه التسمية هو العلامة ريبو *Ribot* (انظر كتابه : « تطور المعاني السكبية »).

(٢) انظر بحثه بالانجليزية : « لغة الاشارات بين هنود أمريكا الشمالية » . وقد ظهر في تقرير مكتب الاثنولوجيا بواشنطن عام ١٨٨١ .

Sign - Language among the North American Indians

(٣) انظر كتابه بالانجليزية : « تاريخ النوع الإنساني في عصوره الأولى »
Early History of Mankind

(٤) انظر كتابه بالانجليزية . « التطور العقلي في الفصيلة الإنسانية » .

Mental Evolution In Man

(٥) انظر كتابه بالانجليزية : « أصول المدنية » *The Origin of Civilization*

(٦) انظر كتابيهما بالانجليزية : « العشاير الأصلية باستراليا الوسطى » ، « العشاير الشمالية باستراليا الوسطى » (صفحة ٣٦ من الجزء الأول من هذا الكتاب) .

(٧) انظر كتابه بالفرنسية : « الوظائف العقلية عند الأمم الأولى » صفحات ١٧٥ — ٢٠٤ (صفحة ٣٦ من الجزء الأول من هذا الكتاب) .

(٨) انظر كتابه بالفرنسية : « تطور المعاني السكبية » صفحات ٥٨ — ٦٤ .

(٩) عني الدكتور فيشر في بحوث كثيرة بدراسة هذا النوع من اللغات عند عشاير افريقيا الوسطى وعند السكان الأصليين لأمريكا .

(١٠) انظر كتابه بالانجليزية : « دراسات اثنولوجية للسكان الأصليين بالقسم الشمالي الغربي بكنديسلندا » .

« إذا التقيت بأحد الهنود الحمر وأردت أن أخاطبه بلغة الإشارات لأسأله هل رأى ست عربات يجرها ثيران ويصحبها ستة سائقين منهم ثلاثة مكسيكيون وثلاثة أمريكيون ويسير معهم واحد ممتط صهوة جواده : فإني أشير إلى شخصه يبدى للدلالة على كلمة « أنت » ، ثم أشير إلى عينيه للدلالة على فعل « الرؤية » ، ثم أبسط أصابع يدي اليمنى وسبابة يدي اليسرى للدلالة على عدد « ستة » ، ثم أمثل صورة دائرة بالصاق نهايتي السبابتين والإبهامين أحدهما بالآخر ، وأمد يدي إلى الأمام وأحركهما كما تتحرك عجلات العربى وهى تسير للدلالة على « العربى » ، ثم أضع الكفين بمدودتين بجانب الجبهة ممثلاً قرن حيوان للدلالة على « الثور » ، ثم أمد ثلاث أصابع من يدي اليسرى وأضع يدي اليمنى تحت شفتى السفلى وأندحر بها إلى صدرى ممثلاً اللحية للدلالة على « ثلاثة مكسيكيين » ، ثم أمد مرة ثانية ثلاث أصابع وأمسح جبهتى بيدي من اليمين إلى الشمال ممثلاً وجهها شاحبا للدلالة على ثلاثة « أمريكيين » ، ثم أرفع إصبعها واحداً وأضع بعد ذلك سبابة اليسرى بين سبابة اليمنى ووسطها ممثلاً الراكب للدلالة على رجل واحد راكب حصاناً » .

وأضاف إلى ذلك أن الوقت الذى يقضيه أحد المتكلمين بهذه اللغة فى أداء هذه الحركات لا يزيد كثيراً عن الوقت الذى يستغرقه تعبيرنا نحن باللغة الكلامية عن هذا المعنى .

وقرر تيلور ، بصدد هذه اللغة ، أن لها قواعد إشارية لربط أجزاء العبارة بعضها ببعض وترتيب عناصرها ؛ وإنها فى مجموعها تكاد تكون متحدة عند جميع الشعوب التى تستخدمها ، فهى من هذه الناحية أشبه شئ بلغة دولية ؛ وأنه يمكن أحياناً التعبير بها عن حقائق دقيقة كعظات وضرب أمثال وقصص حكايات ؛ وأنها فى جملتها ومعظم تفاصيلها تشبه لغة الصم والبكم . فقد جمع الكولونول مولرى بين رجل أصم — أبكم وطائفة من الهنود الحمر المتكلمين بلغة الإشارات

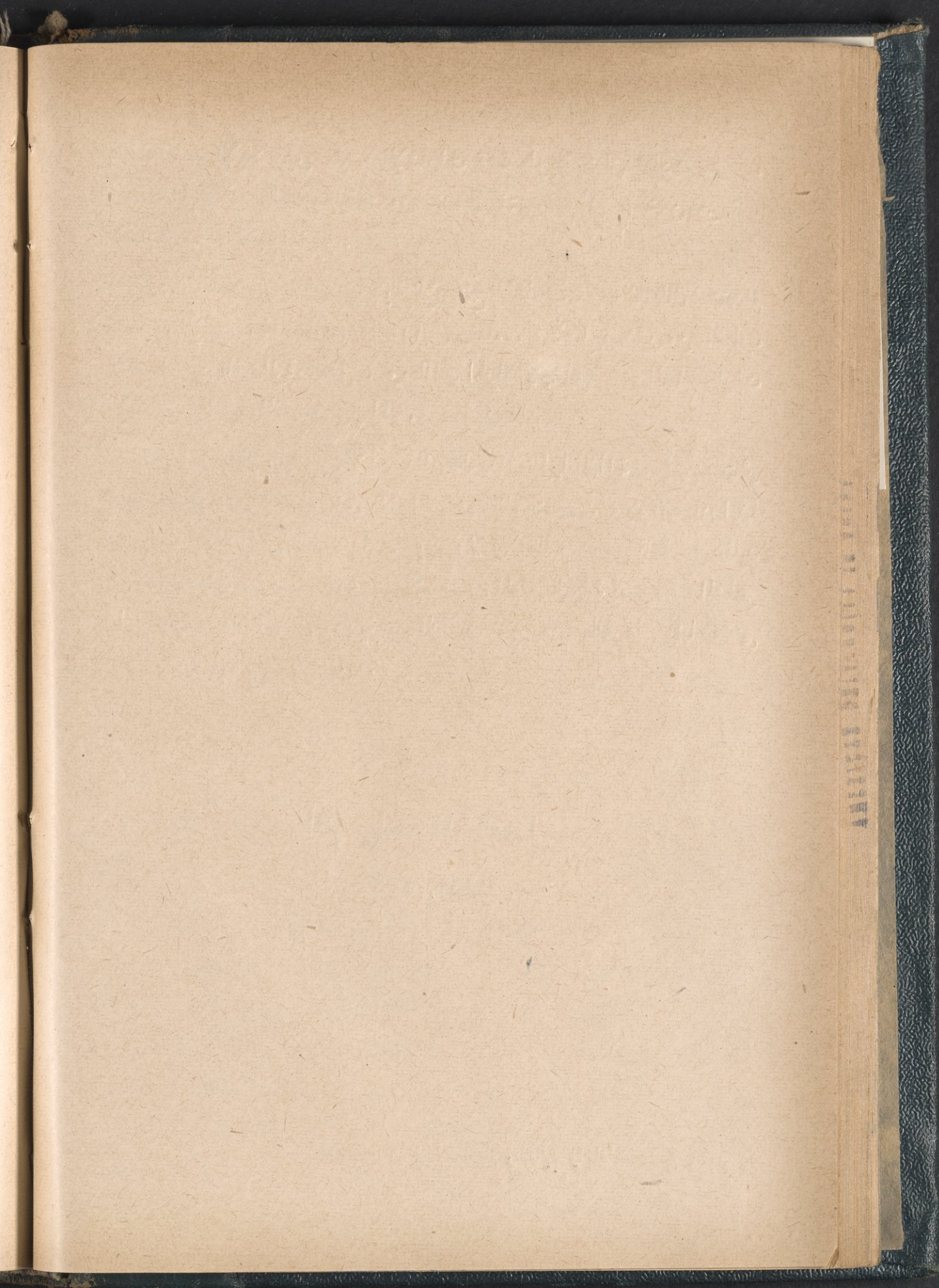
فأخذ الأصم الأبكم يقص عليهم بالإشارات قصة طويلة تتعلق بحادث سرقة ،
وعقب على هذه القصة بتعليقات من عنده فلم يفهم فهم أى حركة من حركاته ،
لاتحادها مع حركاتهم اللغوية .

وذهب العلامة ريبو إلى أنها قابلة للإصلاح والتهديب ، وأنه لو طال استخدام
الشعوب الإنسانية لها لسارت في سبيل الارتقاء ، ولأصابها كثير من أسباب
التنقيح تحت تأثير الرق العقلي ، ومطالب الحياة الاجتماعية ، واتساع حاجات
الإنسان ، وأعمال المخترعين والعلماء ... وما إلى ذلك .

غير أنه مهما ينلها من التهديب فلن تخلو من مثالبها الذاتية . فهي تستأثر
باليد فتحول دون القيام بأى عمل آخر في أثناء التعبير . ويتوقف إدراكها
على النظر ، فلا يمكن التعبير بها عن بعد ولا في الظلام . وهي قائمة على تقليد
الأشياء المحسوسة ، فلا تكاد تقوى على التعبير عن المعانى الكلية أو وصف المشاعر
والوجدان . هذا إلى أنها عارية عن الدقة في كثير من مظاهرها وأنها تقتضى
إسرافا كبيرا في الوقت والمجهود .

أهم مراجع هذا الفصل

مذكورة في التعليقات



الباب السابع
من غرائب نظم الأسرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

الفصل الأول

نظم التعدد الغريبة

في الزواج

- ١ -

وحدة الزوجة مع تعدد الأزواج Polyandrie

وهو نظام يباح بمقتضاه جماعة من الرجال أن يشتركوا في زوجة واحدة ، فتكون حقاً مشاعاً بينهم . وقد أخذ بهذا النظام عدد غير يسير من الشعوب البدائية والمتحضرة . واختلفت المجتمعات التي أخذت بهذا النظام في الوضع القانوني للأزواج . ففي بعضها يعامل الأزواج جميعاً على قدم المساواة في الحقوق والواجبات والآبوة ؛ فيعتبرون جميعاً آباء لمن تأتي به الزوجة من أولاد . وفي بعضها يعتبر أحد الأزواج زوجاً أصيلاً ، فينسب إليه وحده جميع من تأتي به المرأة من أولاد ، ويعتبر من عداه أزواجاً من الدرجة الثانية لهم مساكنة الزوجة في مقابل بعض واجبات تلقى على عاتقهم أو بغير مقابل ولكن بدون أن ينسب إليهم الأولاد وبدون أن يكون لهم جميع حقوق الزوج الأصيل .

وباستقراء الأشكال التي يتمثل فيها هذا النظام يتبين أن أهمها يرجع إلى ثلاثة أشكال :

(الشكل الأول) أن يكون ثمة رابطة قرابة بين الأزواج المشتركين في زوجة واحدة ، فلا يباح هذا التعدد إلا إذا توافرت هذه الرابطة وفي الحدود

التي تقرها النظم والتقاليد . — وقد أخذ بهذا الشكل كثير من المجتمعات البدائية والمتحضرة .

ففي كثير من المناطق الواقعة في جنوب الهند وعلى حدودها الشمالية كان يباح للأخوة أن يشتركوا في زوجة واحدة . ولا يزال هذا النظام متبعاً إلى الوقت الحاضر لدى كثير من القبائل الجبلية على حدود الهند الشمالية ، وخاصة لدى قبائل «جوانسواريس» . ويبلغ عدد أفراد هذه القبائل الآن نحو مائة ألف . وقد جرت العادة لديهم أن يتزوج الأخ الأكبر فتصبح زوجته زوجة لجميع إخوته . وإذا لم يكن للشباب إخوة فإنه قلوباً يجد زوجة . وتتمتع المرأة بإخلاص أزواجها جميعاً وينسب إليهم جميع الأولاد . ولكل زوج منهم وظيفة ، فيقول الابن مثلاً : أبي الذي يدير شئون البيت ؛ وأبي الذي يراعى الأغنام ... وهكذا . وفي أثناء الحكم البريطاني كانت هذه القبائل تعد من القبائل المجرمة المتمردة ، وكان يحال بينها وبين الاتصال بسائر الهنود . ولكن الحكومة الهندية الحاضرة تحاول إخضاعها للقانون العام ، وتبصيرها بمزايا المدنية الحديثة ، وإرغامها على الإقلاع عن نظام تعدد الأزواج . وبجانب الجهود التي تبذلها الحكومة في هذا السبيل لا يدخر المصلحون الاجتماعيون وسعاً لإنهاض هذه القبائل من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية . وهم يأملون أن يؤدي رفع مستوى المعيشة بين أفرادها إلى إقلاعها عن نظام تعدد الأزواج . ولكن الزعماء السياسيين في الهند يرون أن هذا النظام متأصل في نفوس هذه القبائل تأصلاً قوياً ، وأنه لا بد من انقضاء وقت طويل قبل أن يقلعوا عنه ، وخاصة أنه يقوم على دعائم من المعتقدات الدينية ومن الأساطير المقدسة عند الهنود . فقد جاء في «المهابهاراتا» Mahabharata تلك الملحمة الشعرية الشهيرة (وهي تشبه الإلياذة والأوديسيا عند قدماء اليونان) أن أرجونا ، ثالث أبناء الملك باندو الخمسة ، فاز بدوبادى ، ابنة ملك بانشالا ، بأن أطلق خمسة أسهم داخل

حلقة ضيقة معلقة في الهواء . (١) ولكن أمه قالت له : أن كل شيء يجب أن يكون مشاعاً . وهكذا اقترن الأخوة الخمسة بالفنأة وعاشوا جميعاً في قصر واحد (٢) .

وفي عشائر الريدي الهندية Reddi جرت العادة أن تزوج المرأة بين السادسة عشرة والعشرين من عمرها بطفل في سن الخامسة . ويعتبر هذا الطفل زوجها الشرعي النظري . ولكن يجب أن يكون لها بجانبه زوج عملي وهو عم الطفل أو ابن عمه أو أبوه نفسه أحياناً . وجميع من تأتي المرأة به من الأولاد يلحق نسبهم بزوجها الشرعي وحده . حتى إذا بلغ هذا الغلام أشده ، تكون المرأة قد وهن العظم منها وأدركتها الشيخوخة ، فيتصل بأحدى زوجات أولاده أو أقاربه الصغار ويصبح زوجها العملي إلى جانب زوجها الشرعي ، ويقوم بالدور نفسه الذي قام به غيره مع زوجته وهو صغير ... وهكذا دواليك (٣) .

وفي عشائر « النير » Nairs وهي التي تتألف منها الطبقة الراقية من عشائر « الملابار » Nalabar في الهند ، يكون للمرأة عادة خمسة أزواج أو ستة ، وقد يصل هذا العدد أحياناً إلى عشرة أو اثني عشر ؛ بل قد يباح لها أحياناً أن تقترن بأي عدد تشاء من الرجال . ولكن يشترط في الأزواج أن يكونوا أقرباء بعضهم لبعض ينتمون إلى عشيرة واحدة . وقد جرت العادة أن نبيت مع كل واحد منهم نحو عشر ليال ، وأن يتناوبوا معها أدوارهم بالترتيب (٤) .

وفي بعض المناطق التابعة لروسيا Le Mir Russe ، كان رب العائلة يزوج أبنائه وهم بين الثامنة والعاشرة من أعمارهم لفتيات بين الخامسة والعشرين والثلاثين ،

(١) يشبه هذا ما تنسبه الأوديسيا إلى أوليس . (انظر كتابنا في الشعر الخامس عند قدماء اليونان ، ومبلغ دلالة على عقائدهم ونظمهم الاجتماعية « صفحتي ٣١ ، ٣٢) .
(٢) انظر في هذا ما جاء في العدد الصادر في ١٠/٥ من جريدة الاهرام نقلاً عن رسالة جاءت من دلهي الجديدة من مندوبها جون لافانشيك .

(٣) Letourneau; la Sociologie d'après l'Ethnographie, 349.

Ibid. 353 (٤)

على أن يكون الغلام الزوج الشرعي ، والآب نفسه الزوج العملي^(١) ، على نحو ما كان متبعاً في عشائر الريدي في الهند .

وفي بعض قبائل العرب في الجاهلية كان الولد يشارك أباه في زوجته (الآب) ؛ وكانوا يسمون هذا الولد «الضيزن»^(٢) .

(الشكل الثاني) أن يباح هذا التعدد بدون تقييد بوجود رابطة قرابة بين الأزواج . وقد أخذ بهذا الشكل كذلك كثير من الشعوب البدائية والمتحضرة .

ففي جزائر المريكز (بولينيزيا) كان يباح أحياناً للمرأة أن يكون لها أكثر من زوج واحد بدون تقييد بوجود رابطة قرابة بين الأزواج . ولم يكن هذا مقصوراً على طبقة دون أخرى . فالرحالة إليس Ellis يحدثنا عن مظاهر لهذا التعدد لدى نساء الرؤساء وأعيان القوم أنفسهم^(٣) . — وفي جزيرة « الهواي » ile hawaï يكون للمرأة زوج أصيل تعتبر ملكاً له ، وينسب إليه وحده من تأتي به من الأولاد ؛ ولكن يباح أن يكون لها بجانبه أزواج غير أصيلين لهم حق مساكنتها بدون أن يكون لهم الحق في أن ينسب إليهم أحد ممن تأتي به^(٤) . ولهذا النظام أشباه ونظائر في سيلان والتبت وكثير من الجزر المحصورة بينهما ولدى عشائر التودا بجنوبي الهند Todas وعشائر المازايس والباھيا بأفريقية Masaïs, Bahima^(٥) .

ويظهر أن بعض قبائل العرب في الجاهلية كانت تأخذ بهذا الشكل من الزواج . وإلى هذا تشير السيدة عائشة أم المؤمنين في حديثها عن النكاح

Ibid, 373 (١)

(٢) « الضيزن كحيدر الحافظ الثقة ، وولد الرجل وعياله ، وشركاؤه ، ومن يزاحم أباه في امرأته ، ومن يزاحمك عند الاستقاء ... » ١٨١ من القاموس المحيط .

Letourneau, op. cit. 349. (٣)

Ibid. (٤)

Ibid 352; Eraser : L'Orgine de la famille et du Clan (٥)
(trad. fran,) 133; Westemarck, op. cit, 371.

في الجاهلية إذ تقول : « كان يجتمع الرهط دون العشرة ، فيدخلون على المرأة فيصيبيونها . فإذا حملت ووضعت ترسل إليهم ، فلا يستطيع واحد منهم أن يمتنع . وإذا اجتمعوا عندها تقول لهم : قد عرفتم الذي كان من أمركم ، وقد ولدت ، فهو ابنك يا فلان ، تسمى من أحبت باسمه فيلحق به ولدها ، لا يستطيع أن يمتنع عنه الرجل ، .

ويظهر من هذا النص أن عدد الرجال الذين كان يباح لهم الزواج بامرأة واحدة وفق هذا النظام ما كان يصح أن يزيد على عشرة (١) . وأنه ما كان يشترط أن توجد بينهم رابطة قرابة ، وأن معاشرتهم للزوجة لم تكن على صورة دامة ، ولم تكن لها مقومات الحياة العائلية ، وأن هذه الصلة ، على الرغم من حالتها المؤقتة ومن تجردها من صفات الحياة العائلية ، كانت توجب على الرجال بعض التزامات فيما يتعلق بنسب الأولاد على الأخص ، فكان للمرأة الخيار في أن تلحق ولدها بأي رجل منهم فيتصل نسبه به .

(الشكل الثالث) أن يكون للمرأة زوج واحد ، ولكن يسمح لغيره أن يتصل بها فترة ما محددة قبل زفافها أو بعده في ظروف معينة وبقيود خاصة بدون أن يكون لهذا الدخيل صفة الزوج ولا حقوقه .

فمن ذلك نكاح « الاستبضاع » الذي كان شائعاً عند قدماء اليونان وعند العرب في الجاهلية وعند الهنود وغيرهم . ونكاح الاستبضاع أن يدع الزوج زوجته تتصل برجل عظيم لتأتي له بأولاد نجباء ينسبون إلى الزوج من الناحية الشرعية ويحملون اسمه ويعتبرون من أولاده ؛ ولكن تتوافر فيهم بالوراثة صفات الرجل العظيم الذي جاءوا من مائه . فهذا الرجل لم تكن تربطهم به أية رابطة شرعية قانونية ، وإنما كان يعد مجرد أداة استخدمت في انجابهم على

(١) فإن زادوا على ذلك اعتبرت المرأة بغياً ، وطبق عليها نظام البقايا الذي أشارت إليه عائشة في قسم آخر من حديثها — وسنعرض له عند كلامنا على الشيوعية الجنسية في الفقرة الثالثة من هذا الفصل .

صورة ما . وقد أجاز مشروع « اسبرطه » الشهير « ليكورغورس » ، هذا النظام . فأباح للأزواج أن يرسلوا زوجاتهم لعظماء الرجال ليستبضعوا منهم ويحصلوا بذلك على أولاد نجباء . وحث ليكورغورس الشيوخ من الأزواج أن يبحث كل منهم لزوجته الشابة على فتى كريم الخلق لتستمتع به ؛ وعدة هذا العمل من أعمال الفضيلة والإيثار ومن الأعمال الوطنية الجليلة إذ يحقق للبلاد نسلا قويا (١) . وقد جاء في حديث عائشة عن النكاح في الجاهلية ما يدل على أن هذا النظام كان متبعاً كذلك عند العرب قبل الإسلام ، وذلك إذ تقول « كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها : ارسلني إلى فلان فاستبضعي منه . ويعتزلها زوجها ولا يمسيها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه . فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب . وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد . فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع » . ويظهر من هذا النص أن الأمر كان يتم برغبة الزوج بل بأمره ؛ وأنه كان يفعل ذلك حرصاً على نجابة أولاده ؛ ولذلك كان يجعل الزوجة تستبضع من عظيم من عظماء القوم حتى يرث الولد صفاته فيكون موضع فخر للزوج ؛ وأن هذا الولد يعتبر ولداً للزوج الشرعي لا للعظيم الذي جاء من صلبه . وقد أجازت قوانين مانو (وهي الشريعة الآتية) تقوم عليها الديانة البرهمنية في الهند) للمرأة أن تتصل بزوج أختها إذ كان زوجها هي عقيماً لتأتي لزوجها بأولاد (٢) .

وفي بعض المجتمعات كان يباح للمرأة في حالة غيبة زوجها أن تعيش مع رجل تختاره لتجد في كنفه ما يلزم لها من رعاية وحماية . غير أنها ما كانت تعد زوجة له . وإنما كانت تبقى من الناحية الشرعية على ذمة زوجها الغائب . وقد عثر علماء الإثنوجرافيا على هذا النظام عند بعض الشعوب البدائية وخاصة عند بعض عشائر من سكان أستراليا الأصليين (٣) .

Letourneau, op. cit. 369 (١)

Ibid. 354. (٢)

Westermarck, op. cit. 377, (٣)

وفي بعض المجتمعات كان يباح للزوج أن يعير زوجته أو يؤجرها لشخص آخر أو يقدمها لضيافته ، وكان ينظر إلى هذا الإجراء الأخير لدى هذه المجتمعات على أنه مظهر من مظاهر تكريم الضيف والحفاوة به . ففي بعض عشائر من سكان أستراليا الأصليين كان يمكن لأي رجل أن يستأجر امرأة صديقه للاستمتاع بها مدة ما لقاء أجر معين^(١) . وفي أثينا كان كثير من عظماء الرجال أنفسهم يعيرون زوجاتهم لغيرهم . وقد أعار سقراط نفسه زوجته « جزانتيب » Xantipp إلى « أليسياب » Aliciabe^(٢) . — وتقديم الزوجة للضيف كان تقليداً متبعاً عند كثير من الشعوب السامية وغيرها .

وفي بعض المجتمعات كان يتحتم أو يجوز أن يدخل على العروس قبل أن تزف إلى زوجها بعض رجال الدين أو السحر أو ذوى السلطان أو طائفة من ضيوف العروس أو غير هؤلاء . — ففي بعض العشائر الأسترالية جرت التقاليد أن يتصل بالعروس ، قبل زفافها إلى زوجها بعض أفراد معينين من رجال عشيرتها . وقد حدد العرف طبقات الأفراد الذين يباح لهم ذلك ونظم اتصالهم بالعروس ورتبهم بحسب درجة قرابتهم ، فجعل لكل منهم دوراً لا يستقدمه ولا يستأخره^(٣) .

وقد جرت العادة في مالابار Malabar بالهند أن تقضى عروس الملك بعد أن يتم عقد زواجها به الليالي الثلاث الأولى مع كبير رجال الدين ؛ وبعد انقضاء هذه المدة كان يمنحه الملك خمسين قطعة من الذهب مكافأة له على ما قام به^(٤) . وفي جزائر البليار Baléares كانت العروس تقدم نفسها في الليلة الأولى من زفافها لجميع من يحضر عرسها من المدعوين من الرجال^(٥) . — وقد كتب الرحالة

Letourneau op. cit. 330. (١)

Ibid, 369 (٢)

Frazer, op. cit. 108. (٣)

Letourneau, op. cit. 363, 364. (٤)

Ibid. 367. (٥)

الطلياني ماركو پولو Marco-Polo (١٢٥٤ - ١٣٢٣ م) عند سكان الكوشنشين Cochinchine (منطقة من الهند الصينية) أنه لا يجوز للعروس أن تزف إلى زوجها إلا بعد أن تعرض على الملك ويتصل بها إذا شاء (١). ومن ذلك أيضا ما تذكره الأساطير العربية بصدد قبائل طسم في الجاهلية ، إذ تروى أن الملك في هذه القبائل كان يفتزع كل عروس قبل أن تزف إلى زوجها . وتنسب هذه الأساطير الفضل في القضاء على هذا النظام لفئة عربية تدعى « عفيرة » ، اقتضها ملك طسم قبل زفافها ، فخرجت إلى قومها تثير حميتهم وتستحثهم على القضاء على هذا العار بقصيدة تقول فيها :

أيجمل ما يؤتى إلى فتياتكم وأنتم رجال فيكم عدد النمل
فلو أننا كنا رجالا وكنتم نساء لكنا لا نفر لذا الفعل

ومع أن أسلوب هذه القصيدة وعباراتها تدل على أنها من صنع الرواة في العصور اللاحقة للإسلام ، فإنه من المحتمل أن تكون هذه الأسطورة مترجمة في جملتها عن نظام كان متبعا عند بعض قبائل العرب في الجاهلية وتناقل الناس قصته خلفهم عن سلفهم . — ومن ذلك أيضا أن التقاليد في قبائل السكيسيجيس Kipsigis في كينيا الإنجليزية تبيح للفئة ، قبل أن تبلغ سن « الالتحاق » Initiation (وهي السن التي تلتحق فيهما بالجمعية الدينية ، بعد عدة طقوس معقدة) أن تتخذ لها عشيقا من بين أفراد عشيرتها . ويأوى إليها هذا العشيق في فسطاط خاص يسمونه « سينجروانا » Singoroina ، فيقضيان معا سواد الليل عاريين متحاضنين ، ويسمح لعشيقتها أن يتصل بها في أوضاع خاصة متعارف عليها بدون أن يفتض بكارتها . فإذا تزوج أحدهما (ويندر أن يتزوج العشيق عشيقته ؛ ومهما يكن من شيء فإن أولياء الأمور هم الذين يزوجون فتياتهم وفتياتهم بدون حاجة إلى استشارتهم ولا رضاهم) انقطعت صلته بالآخر . وإذا اتفق أن تجاوز شاب

في صلتها بعشيقته الأوضاع الاجتماعية فحملت منه ، فإن المجتمع ينكر ذلك ؛ ولكن هذا لا يحول بينها وبين الزواج ، حتى وهي في حالة الحمل ؛ بل أن الزوج ليغتبط أكبر اغتباط إذا ظهر له أن عروسه قد زفت إليه وهي حامل . والولد يعتبر على الرغم من ذلك ابناً للزوج الشرعي للعشيق (١) .

* * *

هذا ، وينتشر نظام تعدد الأزواج للزوجة الواحدة في أشكاله المختلفة في الشعوب التي يزيد فيها عدد الرجال على عدد النساء . ولكن هذا السبب لا يكفي لنشأة هذا النظام إلا إذا انضمت إليه عوامل اجتماعية أخرى . وغنى عن البيان أن هذا النظام يؤدي إلى ضعف غريزة الغيرة على النساء . وهذا هو ملاحظه الباحثون في الشعوب البدائية التي تزاوله . — ولم ينتشر هذا النظام انتشاراً كبيراً في الشعوب الإنسانية ، بل من الممكن القول إنه كان بمثابة استثناء نادر من القواعد العامة للزواج .

وقد ظن ماك لينان Mac Lenan أنه كان القاعدة في الزواج في العصور الإنسانية الأولى . ولكن هذه النظرية لم يقيم عليها أى دليل يطمأن إليه ، بل قام على بطلانها أدلة كثيرة . فمن استقرار ظواهر الزواج يظهر أن هذا النظام لم يبدى في صورة واضحة إلا لدى طائفة من الشعوب المتحضرة كما يتبين ذلك من الأمثلة التي ضربناها فيما سبق ، وأنه لم يبدى في الشعوب البدائية ، التي تمثل أقدم الأوضاع الإنسانية ، إلا في نطاق ضيق كل الضيق ، وفي صور غير واضحة يمكن رجوعها إلى نظم أخرى من نظم الزواج (٢) .

Peristiany : La Vie et le Droit Coutumier de Kipsigis (١)
de kenya; Social Institution of Kipsigis

V. Westermarck, op. cit. 371, 372, (٢)

تعدد الأزواج والزوجات معا

mariage par groupes

وهو نظام يباح بمقتضاه جماعة معينة من الرجال أن يعاشروا عدداً معيناً من النساء معاشرة الزوجية على أن يكن حقاً مشاعاً بينهم . — وقد كشفت البحوث التاريخية والإنتوجرافية عن عدة أشكال لهذا النظام في كثير من الشعوب البدائية وغيرها . — وفيما يلي بعض نماذج تختلف أشكال هذا النظام :

ففي بعض قبائل التبت وهملايا كان يجوز لطائفة من الرجال أن يتزوجوا طائفة من النساء على طريق الشيوخ^(١) . . . ويروى المؤرخ اليوناني « سترابون » عن بعض الشعوب السامية البدوية من العرب وغيرهم أن بعض عشائرها كانت تسير على نظام تعدد الأزواج والزوجات معا^(٢).

وعند بعض السكان الأصليين لجزائر پولينزيا Polynésie كان يعاشر الأخوة أخواتهم معاشرة الأزواج^(٣) . وفي « جزائر الشركة » Iles de la Société (من مجموعة جزائر پولينزيا) كان يجتمع أحياناً في منزل واحد نحو عشرين رجلاً متزوجين ، فتصبح زوجاتهم شبه مشاعات بينهم^(٤) . — ولوحظ شيء من ذلك أيضاً عند طوائف من السكان الأصليين لأستراليا . — ولكن يظهر أن هذه الأوضاع قد نشأت عند البدائيين في پولينزيا وأستراليا نتيجة لتجمع عدد من الأسرات في منزل واحد أو في كوخ واحد ، وأن كل امرأة من النساء كانت

Frazer, op. cit. (١)

Letourneau, op. cit. 394. (٢)

Frazer, op. cit. 102, 103. (٣)

Letourneau, op. cit. 388. (٤)

تعتبر زوجة لرجل معين ، وإن كان يجوز لغيره من المقيمين معه في المنزل ان يتصل بها (١). ولم يكن الدكتور هويت Dr. Howitt على حق حينما اتخذ من هذه الأمثلة دليلا على أن تعدد الأزواج والزوجات معا كان النظام الأصيل والاقدم عند الأستراليين ، وأن النظم الأخرى نظم مستحدثة لديهم بعد ذلك . وفي الحق أن العكس هو الصحيح . فإن الزواج الفردى هو النظام السائد لديهم ، وهو الذى كانوا ينظرون إليه على أنه الزواج الشرعى . أما هذه الاتصالات التى ضربنا أمثلة لها فكانوا ينظرون إليها على أنها أمور استثنائية خارجة عن الزواج اقتضتها ظروف خاصة (٢) .

ومن أهم مظاهر هذا النظام ما يسمونه « الزواج الأخوى » ، وهو نظام يبيح للاخوة أن يتزوجوا عدداً من النساء على أن يكن حقا مشاعا بينهم . وهذا النظام على ضربين : ضرب مطلق يباح بمقتضاه للاخوة أن يتزوجوا عدداً من النساء سواء أكن قريبات بعضهن لبعض أو غير قريبات ، وضرب مقيد يباح بمقتضاه للاخوة من أسرة ما أن يتزوجوا بأخوات من أسرة أخرى على أن يكن شائعات بينهم . وهذا النظام بضربيه كان معمولا به فى بعض الشعوب البدائية وفى بعض بلاد الهند على الأخص (٣) . فعند بعض العشائر من سكان بولينزيا الأصليين كان يباح للاخوة الذكور أن يتخذوا زوجات مشتركات بينهم ، سواء أكن قريبات ، بعضهن لبعض أم غير قريبات (٤) . وفى بعض عشائر التودا Todas بالهند الجنوبية كانت الفتاة إذا تزوجت رجلا أصبحت بحكم هذا الزواج

Westermarck, op. cit. p. p. 376. (١)

Ibid, 377. (٢)

(٣) انظر تفاصيل هذا الموضوع فى :

Westermarck, op. cit. 134,

Frazer, op. cit. 141—142.

Letourneau, op. cit. 388. (٤)

نفسه زوجة لجميع إخوته الأصغر منه Frères puînés بمجرد أن يبلغ كل منهم الحلم ، ويصبح هؤلاء الإخوة كذلك أزواجا لأخوات المرأة الصغيرات بمجرد أن يبلغن المحيض . وينسب أول ولد لكل امرأة منهم للاخ الأكبر والولد الثاني لمن يليه وهكذا بحسب ترتيب السن (١) . وفي عشائر التوتيار Tottiyars في الهند يشترك الإخوة وأعمامهم في زوجات شائعات بينهم (٢) . وفي سيلان ينتشر نظام تعدد الزوجات والأزواج معا عند الطبقات الموسرة على الأخص ، ويكون الأزواج في الغالب أخوة ، وينسب جميع الأولاد لجميع الأخوة بدون تفرقة بينهم (٣) .

ويرى مرجان وفريزر Margan, Frazer أن نظام الزواج الأخوي، قد ترك عدة آثار في نظم الزواج المتبعة في كثير من الشعوب الإنسانية . ومن أهم هذه الآثار نظامان يسير على أحدهما أو على كليهما عدد كبير من المجتمعات : أولهما يسمى الليفيرا (Levirat : du latin "levir" = frère du mari) أى الزواج بأرملة الأخ ؛ وهو نظام يتحتم أو يحسن أو يجوز بمقتضاه للاخ الأصغر أو الأكبر أو كليهما (حسب اختلاف الأمم التي تسير عليه) أن يتزوج أرملة أخيه المتوفى . وهذا النظام منتشر في كثير من الأمم الإنسانية . ويظهر أنه كان سائداً في بعض عشائر العرب في الجاهلية . — فقد روى عنهم أنه إذا مات أحدكم ، قال وليه — وربما كان أخاه أو ابن عمه — أنا أحق بامرأته . فينقلها إلى داره ؛ ثم إن شاء استبقاها لنفسه ، وإن شاء زوجها وذهب بمهرها (٤) . . وقد قضى الإسلام على هذا النظام وقطع أسباب الأخذ به . ومع ذلك لا تزال له إلى الوقت الحاضر آثار عميقة في مصر وغيرها من البلاد العربية . وثانيتها سماه فريزر Frazer

Ibid. 353. (١)

Ibid. (٢)

Ibid. (٣)

(٤) عبد الله عفيفي : المرأة العربية في جاهليتها ص ٦٦ .

من باب القياس «سورورا» Sorare, du latin "Soror" = Sœur أى الزواج بأخت الزوجة . وهو نظام يتحتم أو يحسن أو يجوز بمقتضاه لزوج الأخت الكبرى الحية فقط أو المتوفاة فقط أو سواء أ كانت حية أو متوفاة (بحسب اختلاف الأمم التى تسير عليه) أن يتزوج أخواتها الصغيرات بعد وفاتها أو يجمعهن معا فى زواج واحد . وهذا النظام منتشر فى كثير من الشعوب البدائية وغيرها .

وقد لاحظ العلامة مرجان Morgan فى أربعين قبيلة من السكان الأصليين لأمريكا الشمالية . وبعض القبائل التى تتيح فى حالة حياة الأخت تحتم على زوج الأخت الكبرى أن يضم إياها أخواتها الصغيرات ؛ وبعضها لا يحتم هذا الجمع ، بل يبيح لزوج الأخت الكبرى أن يتنازل لغيره عن أخواتها أو عن بعضهن (١) .

— ٣ —

الشيوعية الجنسية Promiscuité

وهى أن يكون جميع النساء فى مجتمع ما حقا مشاعا لجميع رجاله وجميع رجاله حقا مشاعا لجميع نساؤه بدون تقيد بنظم الزواج المعروف .

ونظام الشيوعية المطلقة لم نعثر عليه فى أى مجتمع من المجتمعات الإنسانية ، سواء فى ذلك البدائى منها والمتحضر . فليس من بين المجتمعات الحاضرة والغابرة التى وقفنا على نظمها عن طريق ملاحظتها أو ملاحظة ما خلفته من آثار أو عن طريق ما كتبه المؤرخون أو الرحالة أو علماء الإثنوجرافيا Ethnographie (وتطلق هذه الكلمة الآن فى الغالب على البحث فى النظم الاجتماعية للشعوب البدائية) أو القانون ، ليس من بين هذه المجتمعات ، أى مجتمع أخذ بنظام الشيوعية المطلقة فى علاقة الرجال بالنساء . فكان جميع نساؤه حقا مشاعا لجميع رجاله .

(١) Frazer, op. cit. 134—142.

صحيح أنه قد عثر في بعض الشعوب البدائية وغيرها على نظم وتقاليد قد يتبادر إلى الذهن في بادىء الرأى أنها شيوعية جنسية أو رواسب من شيوعية جنسية كانت مستخدمة قديما . ولكن عند تحليل هذه النظم والتقاليد يتبين أنها ليست من الشيوعية الجنسية فى شىء .

وسنعرض فيما يلى لإلام هذه النظم مبيذين ما بينها وبين الشيوعية المطلقة من فروق .

فمن ذلك ما لوحظ عند بعض الشعوب البدائية من إباحية فى العلاقات الجنسية بين غير المتزوجين من الرجال والنساء ، وما لوحظ عند بعضها من إباحية فى هذه العلاقات من قبل الزواج ومن بعده . فعند قبائل البارى والكيناما Bari, Kunama فى شرق أفريقيا لا ينظر إلى الاتصال بفتاة غير متزوجة على أنه عمل شائن أو مناف للخلق الكريم . بل إن علوق الفتاة من السفاح قبل زواجها لا ينقص لدى هذه العشائر شيئا من قيمتها ولا من سمعتها ، ولا ينالها من جراء ذلك ولا ينال من اتصل بها عقاب ولا لوم ولا ازدراء . — ولا تجدد عشائر الوانيورا Wanyora أية غضاضة فى أن يكون للفتاة غير المتزوجة عشيق . وكثيرا ما تقضى فتياتهم الليل كله عند عشاقهن ولا يعدن إلى منازلهن إلا فى الصباح ، فلا يجدن من أفراد أسرتهن غضبا ولا نفورا . — وفى عشائر الواديجو Wadiga يندر أن تزف فتاة إلى زوجها وهى بكر ، ويعتبر هذا لديهم حادثا مخجلا ، بل يعد فضيحة لكلا العروسين . — وفى عشائر الباكونجو Bakongo لا تعرف حصانة النساء ولا يقام لها وزن ، وإنما يقاس شرف المرأة وتقاس مكانتها بمبلغ الرغبة فيها وما يعرضه الراغبون فى شرائها أو الزواج بها من ثمن . — وفى معظم مناطق أفريقيا الاستوائية الإنجليزية لا يحظر الاتصال بالفتيات قبل بلوغهن ، بل يندر — حسب ما يروى سير جونستون Sir H. Johnston — أن تصل لديهم

فتاة إلى سن الخامسة بدون أن تكون قد افتضت بكارتها . — وفي قبائل الكافرين (الجنوب الشرقى من أفريقيا) لا توقع عقوبة ما على الاتصال بفتاة بكر ولا على معاشرة امرأة غير متزوجة أو متوفى عنها زوجها معاشرة سفاح ، ولا ينظر إلى مقترنى هذه الأعمال نظرة تحقير ولا ازدراء . — وفي جزيرة مدغشقر لا يعد الزنا بغير المتزوجات ومن غير المتزوجين من الرذائل ؛ ولا تجب العفة لديهم على الرجل ولا على المرأة إلا بعد الزواج . — وفي عشائر الماؤريس بزيلندة الجديدة - *Maoris à la Nouvelle Zelande* يلقى للفتيات قبل الزواج الحبل على الغارب ، ولا يكاد يقام وزن لعفاهن . — وفي جزر التونجا *Tonga* يباح لغير المتزوجة من النساء أن تتخذ من العشاق من تشاء وتشاؤه لها أهواؤها بدون تقيد بعدد وإن كان من المخجل لديهم أن تسكر المرأة من تغييرها لعشاقها . — وفي جزيرة سان — كريستوفال *St. Christoval* وفي الجزر المجاورة لها يباح للفتاة في أثناء سنتين أو ثلاث سنين بعد بلوغها الحيض أن تتصل بمن تشاء من الفتيان . وكثيراً ما تتصل الفتاة لديهم في أثناء هذه الفترة بجميع فتيان قريتها أو بمعظمهم . — ولدى عشائر « الأنجامى ناجاس » *Angami Nagas* حيث يعد تقصير الضفائر أمارة على البكارة تخجل الفتيات من أن تظل ضفائرهن قصيرة أمداً طويلاً ، ويعملن على أن يأتين ما يبيح لهن إطالة ضفائرهن ؛ ولا بأس أن يحملن من اتصالاتهن هذه : بل أن الزوج في هذه العشائر لمحرص على ألا تزف إليه عروسه إلا وقد أقامت الدليل العملى من قبل على أنها ليست عقيماً ؛ ولا تكون العفة فضيلة عند هذه العشائر إلا بعد الزواج . — وقد ذكر مردوخ عن عشائر الإسكيمو أنه لا يقام لديهم وزن لما يسمى العفة والحصانة ؛ فاتصال رجل متزوج أو غير متزوج بامرأة متزوجة من غيره أو غير ذات زوج ، بل اتصال الذكور من الأطفال ببناتهم اتصالاً جنسياً ، كل ذلك يعد في نظرهم من قبيل اللهو المباح . — وقد لوحظ

شئ من هذه الإباحية المطلقة لدى بعض العشائر الأسترالية كذلك . —
ويستفاد من قصيدة هندية قديمة وهي قصيدة الماهابهاراتا Mahâbharata
(وهي تشبه الإلياذة والأوديسيا عند اليونان كما سبقت الإشارة إلى ذلك)
أن هذه الإباحية كانت سائدة عند قدماء الآريين وأنه لم يكن ينظر
إليها على أنها رذيلة . — وفي بعض مناطق الهند يباح للأرملة وللزوجة التي يضارها
زوجها أن تتصل بمن تشاء على شريطة أن تقدم قبل ذلك أضحية لأحد معابد تولافا
Tulava . — وفي جزر الملايو ولدى كثير من العشائر غير المتحضرة في الهند والهند
الصينية لا يعد اتصال الرجال غير المتزوجين بالنساء غير المتزوجات خطيئة
ولا عيباً . — وتروى الأساطير الصينية أن هذه الإباحية هي التي كانت سائدة
في أقدم العهود ، وأن أول ملوك الصين في العهد الخرافي وهو فوهي Fo - hi
هو الذي وضع حداً لهذه التقاليد . — وفي بعض الشعوب يباح في بعض أعياد
وبعض حفلات دينية ووطنية اتصال الرجال بالنساء بدون قيد ولا شرط .
ففي عشائر السونتال Sonthals بالهند مثلاً جرت العادة أن يعقد جميع الراغبين
في الزواج عقودهم مرة واحدة كل عام في أيام معلومات ، ويسبق هذه الأيام
سنة أيام يباح فيها لجميع الرجال الاتصال بجميع النساء (١) .

ولكن هذه الظواهر وما إليها لا تدل على أن هذه الشعوب كانت تسير
على نظام الشيوعية الجنسية المطلقة . ففي جميع هذه الشعوب يعد الزواج هو الوضع
العادي السوي لكل من الرجل والمرأة . وكل ما هنالك أنه يباح لديها في خارج
نطاق الزوجية اتصال الرجال بالنساء في بعض الأحوال وبعض الشروط ،

(١) انظر في الأمثلة التي ذكرناها وغيرها :

Westermarck, op. cit. 406, 407,

Letourneau, op. cit. 330, 352, 360, 363, 364.

أو لا تعاقب قوانينها ولا تقاليدھا على هذا النوع من الاتصال . فهذا الاتصال عبارة عن استثناء من النظام الأصلي المقرر في صدد ارتباط الرجل بالمرأة ، واستثناء غير مطلق ، بل مقيد بعدة قيود . ولا يعد الشعب سائراً على نظام الشيوعية الجنسية المطلقة إلا إذا ألغى الزواج بجميع أشكاله ، وأصبح جميع نسائه حقاً مشاعاً لجميع رجاله .

أهم مراجع هذا الفصل

مذكورة في التعليقات

الفصل الثاني

البغاء المدني والبغاء المقدس

- ١ -

البغاء المدني

أقر نظام البغاء المدني كثير من الشرائع والتقاليد لدى كثير من الشعوب المتحضرة والبدائية في مختلف العصور ، وإن كان انتشاره عند الشعوب المتحضرة أوسع من انتشاره عند غيرها .

فالعهد القديم يحدثنا عن البغايا من الإماء وغيرهن وعن البغاء على أنه نظام معترف به ومنتشر انتشاراً كبيراً لدى قدماء العبريين ، ويذكر أن كثيراً من آباء بني إسرائيل ومن عليه القوم أنفسهم كانوا يغشون أحياناً منازل المومسات ، وأن هؤلاء كانت لهن أجور معلومة . وينص سفر اللاويين على أنه لا يجوز للآب أن يخصص ابنته للبغاء^(١) ، وهذا يدل على أن فريقاً من بني إسرائيل في هذا العهد كانوا يفعلون ذلك . — وكان هذا النظام منتشراً كذلك عند العرب في الجاهلية . ففي حديث عائشة عن أنواع النكاح قبل الإسلام ، أنه كان يجتمع الناس الكثیر فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها ؛ ومن البغايا ؛ وكن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً ؛ فمن أرادهن دخل عليهن . وقد ظل البغاء منتشراً عند مشركي العرب حتى بعد ظهور الإسلام . فقد كان لعبد الله بن أبي سفيان جوار خصصه

(١) اللاويون ، اصحاح ١٩ ، آية ٢٩ .

للبغاء وضرب عليهن الضرائب ؛ فشكى بعضهن ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فنزل قوله تعالى : ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا^(١) . — وكان كثير من سراة اليونان في العصور القديمة يستخدمون إمامهم كذلك في البغاء للانتفاع بأجورهن . وقد أقر المشرعون أنفسهم هذا الضرب من الاستغلال الخسيس ؛ بل إن بعض حكوماتهم قد أخذ ينافس الأفراد في هذه التجارة . فقد نظم صولون نفسه ، وهو كبير مشرعي أثينا وحاكمها ، شئون البغاء الرسمي وأنشأ منازل خاصة للبغايا واشترى عددا كبيرا من الإماء وفرقهن على هذه المنازل لتتفع الدولة بأجورهن . وبجانب هذا الصنف المبتذل من المومسات ، كان يوجد في أثينا صنف آخر من البغايا كن يعرفن باسم « البغايا الراقيات » ، وكن يمترن بجمالهن الباهر وذكائهن الوقاد ، وكن موضع تقدير كثير من الناس ، بل كان عظماء الرجال أنفسهم يحرصون على الاتصال بهن ، وكن يعتبرن من الطبقات الراقية في المجتمع^(٢) . — ومع أنه كان ينظر في روما للبغايا نظرة احتقار ، وكانت اسماءهن تدون في القوائم العامة للتشهير بهن ، فإن البغاء كان منتشرا انتشاراً كبيراً في معظم المدن الرومانية . ولم يصدر أمر صريح بتحريم البغاء إلا في السنة التاسعة عشرة بعد الميلاد . على أن هذا التحريم لم يكن تاماً وإنما كان مقصوراً على الحرية المنحدرة من أبوين رومانيين ومن تكون زوجة لروماني أصيل . ومعنى ذلك أنه كان يباح لغير هاتين الطائفتين من النساء امتهان البغاء^(٣) . — وكان كثير من اليابانيين يخصصون بناتهم للبغاء للانتفاع بأجورهن فيلججن ونهن بمنزل من منازل الفسوق حيث يقضين حياتهن كلها أو فترة منها . وما كان يجوز للبنات أن تعصى أباهن ولا أن تعترض على أمره^(٤) . ويضاف إلى هؤلاء طائفة أخرى كبيرة العدد في اليابان تألف

(١) سورة النور ، آية ٣٣ ، انظر تفسير البيضاوي .

(٢) Westermarck. op. cit, 413

Ibid. (٣)

Ibid. T. I. 604 : et Letourneau, op. cit. 362 (٤)

من اللائى يسلسكن هذا الطريق بمحض اختيارهن . ومن ثم انتشر البغاء فى اليابان انتشارا مروعا وبلغ عدد ضحاياه عشرات الألوف ، حتى إن الحكومة الحاضرة لتجد صعوبة فى القضاء عليه أو تخفيف مضاره . — وقد جرت عادة بعض الأزواج فى الصين أن يقدموا زوجاتهم للبغاء للانتفاع بأجورهن . ولذلك ورد فى تشريعهم المعروف بالأوامر Ordonnances أنه إذا أكره رجل امرأته على البغاء ليمتغى من وراء ذلك عرض الحياة الدنيا ، وانتحرت المرأة حتى لا تقترب هذا المنكر ، وجب أن يقام لها على مقربة من منزل أبيها نصب تذكارى على هيئة « قوس النصر » (١) . — وكان كثير من الدول المتحضرة فى العصور الحديثة فى أوربا وأمريكا وغيرها ، حتى الدول الإسلامية نفسها ، تقرر البغاء الرسمى وتسئ له اللوائح والقوانين ، وتنتفع حكوماتها بما تجنيه من المومسات من رسوم وضرائب . ولا يزال هذا النظام معمولا به فى كثير من هذه الأمم فى الوقت الحاضر . وقد كان نظام البغاء الرسمى معترفا به فى مصر نفسها إلى عهد قريب ، حتى بعد أن تقرر فى دستورها أن دينها الرسمى هو الاسلام ؛ بل لقد تطوع بعض الكتاب — ولا يزال بعضهم يتطوع إلى الآن — بالدفاع عنه بعد إلغائه ومطالبة الحكومة بإعادة النظر فى تحريمه لانتقاء بعض الأضرار الصحية وانتقاء البغاء السرى حسب ما يزعمون .

وكما انتشر البغاء فى الأمم المتحضرة انتشر كذلك فى كثير من الشعوب البدائية ، وإن كان انتشاره عند البدائيين لا يعد شيئا مذكورا بجانب انتشاره عند المتحضرين . — فى مجموعة جزر « سانتا كروز » Santa Cruz فى ميلانيزيا ، حسب رواية الدكتور كودرنجتون Codrington ، كان يمارس البغاء العمومى فى نطاق واسع عند السكان الأصليين . — وينتشر البغاء كذلك انتشارا كبيرا عند معظم زنوج أفريقيا . — وفى عشائر الوانيورو Wanyoro توجد للبغاء قواعد ونظم دقيقة تدل على تأصله لديها ورجوعه إلى أزمنة سحيقة فى القدم .

وفي جرونلاند Groenland كانت مزاوله البغاء تعد أمرا مباحا ، ولكن كان يحرم ارتكاب الفاحشة على غير البغايا من الفتيات ، وكان يعد من الكبائر أن تحمل فتاة غير بغى من السفاح . — وعند عشائر الأوماها Omahas (من عشائر الهنود الحمر وهم) السكان الأصليون لأمريكا الشمالية) كان يحرم السفاح إلا مع البغايا العموميات أو (المنكيدا) Manckeda وهو الاسم الذي كان يطلق عليهن لدى هذه العشائر . — وعند عشائر الإنكا Incas (السكان الأصليون لجمهورية بيرو بأمريكا الجنوبية) يزاول البغاء العام على أنه أمر مباح ويعتبر وسيلة لاقتناء كثير من الأضرار الصحية والاجتماعية ، وإن كان ينظر إليه وإلى من يزاولنه من الفتيات نظرة احتقار (١) .

— ٢ —

البغاء المقدس

وبجانب هذا البغاء المادني ، يوجد نوع آخر من البغاء يطلق عليه اسم « البغاء الديني » ، أو « البغاء المقدس » ، لأنه كان يعد شعيرة من شعائر الدين أو وسيلة لإرضاء الآلهة والتقرب إليهم . وقد عثر الباحثون على عدة مظاهر لهذا النظام عند كثير من الشعوب البدائية والمتحضرة ، وإن كان انتشاره عند الشعوب المتحضرة أوسع من انتشاره عند البدائيين .

فن أظهر أمثلته عند الشعوب البدائية ما ذكره ريد Read عن بعض زنوج أفريقيا وما رواه إليس Ellis عن أهل ساحل العبيد وساحل الذهب بأفريقيا . فقد روى ريد أن كثيرأ من زنوج أفريقيا ينظرون إلى البغاء أحيانا على أنه عمل من أعمال البر الديني ، حتى إن الموسرات من النساء ليشترين ، وهن في مرض

(١) انظر في موضوع البغاء لدى الشعوب البدائية التي ذكرناها وغيرها :

Westermarck, op cit. 425, 426 .

موتن ، إمام يوصين بأن يخصص للبغاء ، ويتخذن من ذلك وسيلة للتقرب إلى الله وختم حياتهن بصالحات الأعمال ، كما تفعل الموسرات من نساء إنجلترا إذ يوصين قبل وفاتهن بحزم من ثرواتهم لعمل خيري عام ، (١) . — وذكر إليس Billis ، في أثناء حديثه عن أهل ساحل العبيد Côte des Esclaves بأفريقيا ، أنه كان يوجد في كل مدينة من مدنها مؤسسة تقدم إليها الفتيات الجيلات من سن العاشرة إلى الثانية عشرة . ويقضى هؤلاء الفتيات بهذه المؤسسات ثلاث سنين يتعلمن في أثناءها الرقص الديني وترتيل الأوراد المقدسة في صوت غنائي أشجي . فإذا انتهت مدة تعلمن تخصصن للبغاء المقدس ، فيصبحن من الناحية النظرية وقفا على رجال الدين ، وإن كن في الواقع لا يمتنعن عن يريدهن من غيرهم . وينظر الناس إليهن في هذه البلاد على أنهن زوجات للآلهة ، ويعتقد أن ما يأتينه من أعمال ليس إلا ضربا من ضروب العبادة التي يتقرب بها إلى الله زاني ويستدر بها عطف السماء . ولذلك كان ينظر إلى من يأتين به من أولاد على أنهم أولاد الله (٢) . — وروى د إليس ، كذلك عن أهل ساحل الذهب أن راهباتهم وقسيساتهم كان يحرم عليهن الزواج ؛ ولكن كن يزاولن نوعا من البغاء المقدس يشبعن عن طريقه رغباتهن مع من يشأن من الرجال . فإذا راق في أعين إحداهن رجل ما دعته إلى منزلها وأنهت إليه أن الإله الذي وقفت حياتها على عبادته قد أوحى إليها أن تتخذة عشيقا لها . فيغيبط الرجل أن وقع عليه هذا الاختيار . ويظل حبيسا لديها يحقق لها رغباتها ، حتى تمل ، فتستبدل به رجلا آخر تعيد معه القصة نفسها ... وهكذا دواليك . وقد تجمع الواحدة منهن أكثر من رجل واحد في منزلها ، بل لقد يصل عشاقها إلى ستة رجال أو نحو ذلك . وتسير البغي من هؤلاء في الحفلات المقدسة يحيط بها عشاقها كما تحيط الحاشية بملك أو أميرة . لحياتهن حياة فسق وجور بالغين ؛ وقد ينحدر

Read; Savage Africa 547; Westermarck op. cit. 425. (١)

Billis : Eve-speaking Peoples 141; Westermarck, op. (٢)
cit. 427

بعضهن في هذه الوحدة إلى مستوى حيواني وضيع ، وخاصة عندما يهيجها الرقص الديني الذي تزاوله من حين لآخر ، (١) .

ولكن انتشار « البغاء المقدس » عند البدائيين لا يعد شيئا مذكورا إذا قيس بمبلغ انتشاره عند الشعوب المتحضرة في العصور القديمة .

فعند قدماء العبريين كانت توجد طوائف من النسوة يزاولن البغاء في المعابد (٢) ؛ وكان يعتقد أنهن يحملن الخير والبركة لمن يتصل بهن . وظل هذا التقليد الديني سائدا إلى أن حرمه « سفر التثنية » (٣) .

وعند قدماء الكنعانيين كانت توجد طائفة من النسوة يطلق عليهن اسم « كيديشولح » Kedesolh وقفن أنفسهن على خدمة المعبد ووهبن جسومهن للبغاء المقدس (٤) .

ومن أشهر أنواع « البغاء المقدس » في الشعوب المتحضرة ما كان يجري عليه العمل في بابل في معابد الإلهة ميليتا Mylitta (وهي في شخصيتها ووظائفها وأساطيرها تمثل الإلهة أفروديت عند اليونان والإلهة فينوس عند الرومان والإلهة عشروت عند الساميين) (٥) . وقد أفاض المؤرخ اليوناني هيرودوت في وصف هذا النظام ، فذكر أن كل بنت تولد في هذه البلاد كان يجب عليها مرة في حياتها أن تذهب إلى معبد الإلهة « ميليتا » ، حيث تقدم نفسها لرجل أجنبي عن البلاد . فكانت تجلس في ساحة المعبد حتى يمر بها أجنبي ويضع على ركبته قطعة فضية من النقد داعيا في أثناء ذلك « أن تباركها الإلهة ميليتا وتشملها برعايتها » .

(١) Ellis : Tshi - speaking peoples, 121; Westermarck, op. cit. 427.

(٢) هو شم Osée الاصحاح الرابع ، آية ١٤ .

(٣) التثنية ، الاصحاح ٢٣ آية ١٧ .

(٤) Westermarck, op. cit. 42.

(٥) انظر ص ٤٧ من الجزء الأول من هذا الكتاب .

ثم يصحب الفتاة بعيدا عن الساحة المقدسة ليقيض معها إربته . وكانت قطعة النقد تعتبر مقدسة بمجرد وضعها على ركبة الفتاة ، وما كان يباح للفتاة أن ترفضها أو ترفض دعوة صاحبها . وكان ينظر إلى هذه الاتصالات على أنها ضرب من العبادة الدينية تقدمها الفتيات لإلهتهن ميليتا أو نوع من القربان يتقربن به إليها . وكان يعتقد أن هذا الضرب من العبادة وهذا النوع من القربان من أحب العبادات والقرايين إلى الإلهة وأنه مصدر خير وبركة للفتاة نفسها ، كما تدل على ذلك العبارة التي كان يقولها الأجنبي وهو يلقى بقطعة النقد على ركبته : « لتباركك الإلهة وتشملك برعايتها » (حسب رواية هيرودوت) . وبعد أن تؤدي الفتاة واجبا هذا تعود إلى بيتها فرحة بما آتتها الآلهة من فضلها ؛ و ثم تتلقى تهنيتات أهلها وصديقاتها وتغمرها هداياهم الثمينة (١) .

ولهذا التقليد البابل أشباه ونظائر في كثير من بلاد اليونان في عصورها القديمة وخاصة في بعض مناطق في جزيرة قبرص وبيبلوس Chypre, Byblos وقورثة وأثينا . ففي قبرص كان يجب على العذاري أن يذهبن إلى ساحل البحر في أيام معلومات يقدمن بكارتهن قربانا للإلهة أفروديت (٢) . وفي معبد الإلهة أفروديت بقورثة كان يوجد عدد كبير من النسوة يزاولن البغاء المقدس (٣) . وتروي الأساطير اليونانية أن بعض مدن اليونان كانت إذا اشتبكت في حرب ينذر أهلها للإلهة أفروديت أن يخصصوا بناتهم للبغاء المقدس في معابدها إذا أمدتهم بعون منها فخرجوا منتصرين على أعدائهم (٤) . و جرت عادة سراة اليونان في مملكة أثينا وغيرها أن يخصصوا بعض إماءهم للبغاء في معبد من معابد الإلهة أفروديت على أن يخصص دخلهن من هذه المهنة لصندوق المعبد نفسه . وقد انتشرت هذه الطقوس في مختلف بلاد اليونان ، واعتبر تقديم الإماء على هذا النحو من

Westermarck, op. cit. 429, 430. (٢)

Ibid 429. (٣)

Letourneau, op. cit. 367. (١)

Westermarck, op. cit. 429. (٢)

صالحات الأعمال التي يتقرب بها الناس إلى الإلاهة ، حتى لقد كان الأغنياء وقواد الجيش يندرون لهذه الإلاهة عددا من هذا الصنف من الإماء إذا تحقق لهم مأرب أو انتصروا في حرب . فكثير من جراء ذلك عدد هذا الصنف من الفتيات حتى ضاقت عليهم معابد هذه الإلاهة بما رحبت . وقد أطرى هذه الأعمال كبير مؤرخهم « سترابون » ، وعندها مشروعات وطنية جلييلة ، لأنها ، على حد قوله ، تجذب الأجانب للبلاد فينفقون فيها أموالهم فتنتعش بذلك اقتصادياتها ويعمها الرخاء ويزداد دخلها القومي (١) .

وعند قدماء الأرمن كانت الفتيات تزاولن كذلك البغاء المقدس بالطريقة نفسها التي كانت تسير عليها البابليات أو بطريقة قريبة منها . فقد روى سترابون أن كل أسيرة أرمنية ، حتى الأسيرات الأريستقراطية الراقية ، كانت تبعث ببنتاتها إلى المعابد ليزاولن البغاء المقدس فترة معينة في حياتهن (٢) .

ويظهر أن المرأة التي كانت تعد في نظر قدماء المصريين زوجة للإلاه في طيبة كانت تمارس كذلك البغاء المقدس في المعابد . فقد روى المؤرخ سترابون أنها « كانت تتصل بمن تشاء من الرجال حتى يتخلص جسمها من أدراجه وتصل إلى أقصى درجات الطهر . وحينئذ تهب نفسها لرجل واحد (٣) » .

وفي كثير من معابد الهند في العصور القديمة كانت تقطن طائفة من الراقصات يزاولن البغاء المقدس ؛ وكن موضع إجلال ديني ؛ فكانت مرتبتهن تأتي بعد مرتبة السدنة ومقدمى الضحايا للمعبد Sacrificateurs (٤) . وفي مدينة جوجا فاتهو كشو ترو Jugunnat'hu Kshutru (إحدى مدن أوريسا Orissa في الهند) كان يوجد عدد من البغايا يرقصن في المعبد أمام تماثيل الإلاه ، وكن يسكن في منازل قريبة من المعبد نفسه وإن كانت منفصلة عنه . وكان الأصل أن

(١) انظر كتابنا عن « قصة الملكية في العالم » الطبعة الثانية من ٨٦ .

(٢) Westermarck, op. cit. 429.

(٣) Ibid. 428.

(٤) Ibid.

يتصل بهم رجال الدين من طبقة البرهمنين ، وإن كان يجوز ذلك لغيرهم من زائري المعبد والطائفين به والعاكفين فيه (١) . وفي جوا وبونديشري Goa; Pondichéry وفي كثير من وديان نهر الكنجج Gange كان يجب على البنات قبل زواجهن أن تتمن البغاء المقدس في معبد من معابد جاجارنو Jaggernaut (٢) . وقد ظلت هذه التقاليد سائدة في هذه المناطق وغيرها من بلاد الهند إلى عهد قريب . ففي القرن التاسع عشر نفسه كان لا يزال يوجد في كثير من معابد الهند عدد كبير من البغايا يزاولن مهنتهن لصالح المعابد أنفسهن ويخصصن لها دخلهن من هذه المهنة . وكان هؤلاء النسوة موضع تقدير وإجلال خاصة القوم وعامتهم ، بل كن وحدهن اللاتي يسمح لهن بالتعلم في الهند (٣) . وفي عهد بوذا نفسه كانت رئيسة البغايا موضع احترام كبير في بلدة فيزالي Visali ولم يستنكف بوذا نفسه أن ينزل في دارها (٤) .

نفور المجتمعات من نظام البغاء على العموم

غير أنه لا يصح أن يعد نظام البغاء ، في أية صورة ، من صوره ، من مظاهر الشيوعية الجنسية المطلقة . فهو في جميع الشعوب التي أباحته ، كما ظهر لنا ذلك فيما سبق ، مقيد بقيود كثيرة ومنظور إليه على أنه استثناء لا يمثل مطلقا الحالة السوية الصحيحة لاتصال الرجل بالمرأة ولا يستخدم إلا في نطاق محدود . هذا إلى أن جميع الشعوب التي تبيحه الآن نظمها المدنية تنظر إلى الاتصال الذي يتم في نطاقه نظرة سخط وتعتبره من أكبر الجرائم من الناحيتين الدينية والخلقية .

Ibid (١)

Letourneau, op. cit. 263 (٢)

Ibid. 364 (٣)

Ibid. (٤)

وكذلك كان شأنه في كثير من الأمم القديمة التي كانت تبديحه . وإليك مثلاً العرب في الجاهلية . فإنهم كانوا يحتقرون البغايا ومن يتصل بهن وينظرون إلى البغاء وتوابعه نظرهم إلى أكبر جريمة . وكانت البغايا يتوارين عن العيون بمنجاة عن المدائن والقرى ومضارب خيام البادية ، وينصبن على بيوتهن رايات تكون آية على مهاتهن . وكان لا يذهب لاهن إلا سفلة الناس وسوقتهم ، ويذهبون لاهن في الظلام يحرون أطراف مآزرهم وراءهم لتطمس آثار أرجلهم على الرمال . ولذلك أطلق على البغايا اسم المظلمات ، كما كان يطلق عليهن اسم المهيئات . وكان من جوامع كلمهم في المدح : « فلان لا يرخي لمظلمة إزاره » . وفي ذلك تقول العوراء بنت سميع في رثاء .

أبكي لعبد الله إذ حشت قبيل الصبح ناره (١)

طيان طاوى الكشح لا يرخي لمظلمة إزاره (٢)

وقد قيدته التقاليد العربية بقيود كثيرة . فمن ذلك أنه ما كان يباح في الغالب لعربية أن تتمهن البغاء ، بل كاد ذلك يكون مقصوراً على الإمام . وإلى هذا يشير القرآن الكريم إذ يقول : « ولا تكرر هوأفتيانكم على البغاء » ، والمراد بالفتيات الإمام كما هو الشائع في استعمال هذه الكلمة عند العرب ، وكما يدل على ذلك سبب نزول الآية (٣) . ومن ذلك أنه كان يترتب عليه كثير من الالتزامات العائلية كما أشارت إلى ذلك عائشة إذ تقول في حديثها عن أنواع النكاح في الجاهلية : « كان يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع من جاءها ، وهن البغايا ، وكن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً . فمن أرادهن دخل عليهن . فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا القافة (وهم المهرة في القيافة . والقيافة

(١) حشت ناره أى أوقدت . وهذا مثل أرادت به أنه قتل قبيل الصباح ، فضربت لقتله مثلاً بإيقاد النار ، والعرب تقول أوقدت نار الحرب إذا هاجت .

(٢) الطيان صفة مشبهة من الطوى وهو الجوع . والعرب ترى من السيادة ألا يشبع الرجل ، وطاوى الكشح أى ضامر ليس بضخم الجنين .

(٣) انظر آخر ١٠٢ وأول ص ١٠٣ .

فن كان منتشراً عند العرب يستطيع الراسخون فيه أن يعرفوا الأصل الذي انحدر
الولد من مائه عن طريق الشكل الخارجى لتكوين أعضائه وحجمها ولون
بشرته ... وما إلى ذلك (١) ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون ، فالتاط به (أى اتصل
به) ودعى ابنه لا يتمتع من ذلك .

وحتى البغاء المقدس نفسه الذى كان مقبولا عند الشعوب التى أخذت به كان
منظوراً إليه على أنه استثناء من النظام الأصلى المقرر فى صدد اتصال الرجل بالمرأة
واستثناء غير مطلق بل مقيد بعدة قيود كما ظهر ذلك فيما سبق .

فلا يصح إذن أن ينظر إلى البغاء فى أية صورة من صورته على أنه مظهر من مظاهر
الشيوعية الجنسية المطلقة . فالشعب لا يعد سائراً على نظام الشيوعية الجنسية
المطلقة إلا إذا ألغى الزواج بجميع أشكاله وأصبح جميع نساءه حقاً مشاعاً لجميع
رجالها . وهذا لم نعر عليه فى أى شعب من الشعوب التى تليح البغاء ولا فى غير
هذه الشعوب .

أهم مراجع هذا الفصل

مذكورة فى التعليقات

(١) والقافة أيضاً الذين يعرفون آثار الأقدام . وأهلهم كانوا يبحثون كذلك آثار الأقدام
التي ذهبت إلى البغى ليعرفوا أصحابها تمهيداً لإلحاق الولد بأحدهم . ولعل هذا كان من بين
الأمور التي كانت تدعو من يغشون منازل المومسات إلى أن يجروا أطراف مآزرهم لتطمس آثار
أرجلهم على الرمال ، فلا يكونوا عرضة لأن يلتحق بنسبهم من تيجى به البغى .

الفصل الثالث

العزوبة التي يوجبها نظام اجتماعي مقرر

يوجد في كثير من المجتمعات عزوبة اضطرارية يوجبها نظام اجتماعي مقرر . وهي على ثلاثة ضروب : عزوبة مفروضة على كافة الناس في حالات خاصة ؛ وعزوبة مفروضة على المشتغلين بوظائف دينية ؛ وعزوبة فرضتها بعض النحل الدينية على جميع معتقبيها . وسنتقف على كل نوع منها فقرة على حدة .

— ١ —

العزوبة المفروضة على كافة الناس في حالات خاصة

لهذا النوع من العزوبة عدة مظاهر في كثير من النظم والشرائع . ففي بعض البلاد الأوروبية يحرم القانون الزواج على كل فرد يتقاضى إعانة من صندوق الإعانات العامة أو الضمان الاجتماعي ؛ لأن فرداً هذا مبلغ عوزه لا يقوى على تكاليف الأسرة (١) . بل إن بعض هذه البلاد قد حرم الزواج تحريماً باتاً ولم يجز إجراء عقده في كل حالة لا يثبت فيها قدرة الطرفين على احتمال الأعباء المادية التي تقتضيها حياة الزوجية (٢) .

والشريعة الإسلامية نفسها تحظر الزواج على كل رجل غير قادر على أعبائه ، لقوله عليه السلام : من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فليصم فإن الصوم له وجاء (٣) . أي من قدر على مستلزمات الزواج فليتزوج ، ومن

(١) Westermarck, op. cit. 390.

(٢) Ibid. 390.

(٣) يطلق الجاء على رض عروق الحصى من غير إخراج فيكون شبيهاً بالخصاء لأنه يكسر الشهوة ، اهـ من المصباح . والمعنى من لم تكن له قدرة على أعباء الزواج فليصم ، فإن في الصيام إضعافاً للتروات ووقاية للعفة وصيانة للنفس من الوقوع في المحذور .

(٨م — غرائب النظم والتقاليد والعادات — ج ٢)

لم تكن له مقدرة على ذلك لا يصح أن يقدم على الزواج ، ويستحب له الصيام فإن في الصيام إضعافاً للنزوات ووقاية للعفة وصيانة للنفس من الوقوع في المحرم (١) وقد أخذ كثير من العلماء والمصلحين يذيعون في الناس أن المصاب بمرض وراثي يغلب انتقاله إلى النسل يقضى عليه واجبه الإنساني ألا يتزوج ، لأنه بزواجه يسمى أكبر إساءة إلى وطنه وإلى نفسه . بل لقد أخذوا ينصحون لأولياء الأمور أن يحظروا الزواج على المصابين بهذا النوع من الأمراض . وقد عمل بهذه الوصايا بعض الأمم المتحضرة ، فأخذت تضع قوانين أو تلجأ إلى وسائل أخرى لحظر الزواج على هذا النوع من المرضى أو لتضييق نطاقه أو لمنع التناسل فيه ، فقد أصدرت الحكومة الألمانية في عام ١٩٣٣ قانوناً بتعقيم غير الصالحين للنتاج السليم لمرض جسمي أو عقلي . وعلى الرغم من محاربة الكنائس المسيحية ، وخاصة الكنيسة الكاثوليكية ، لهذه التدابير واعتبارها إياها مخالفة لشرائع الدين المسيحي ، فإن كثيراً من الأمم المسيحية أخذت قبل الحرب العالمية الأخيرة ترسم خطوات ألمانيا في هذا السبيل . ومن هذه إنجلترا نفسها . فقد ألغت حكومتها عام ١٩٣٣ لجنة خاصة لدراسة الوسائل اللازمة لمقاومة ضعف النسل وانحطاط مستواه الصحي . وأشارت هذه اللجنة في تقريرها الذي قدمته إلى وزارة الصحة في يوليو عام ١٩٣٣ بتعقيم المجرمين شديدي الخطر (ذاهبة في ذلك إلى أبعد مما ذهبت إليه الحكومة الألمانية) وبمنع غير الصالحين للبقاء من الزواج (٢) . وفي معظم الشعوب المتحضرة يحظر الزواج على الرجل والمرأة قبل بلوغ سن معينة تمتد أحياناً إلى نحو العشرين للرجل وما يقرب من ذلك للمرأة . ويعتمد هذا الحظر على أن زواج الصغار الذين لم يبلغوا حد النضج الجسمي والعقلي من شأنه أن ينتج ذرية ضعيفة ويؤدي إلى أضرار اجتماعية واقتصادية بليغة .

(١) ومع ذلك فإنه إذا تزوج غير القادر وقع زواجه صحيحاً في الإسلام ، وترتب عليه جميع آثار الزواج الصحيح وإن كان يجوز للقضاء تطليق الزوجة في بعض هذه الحالات « ينظر في ذلك كتب الفقه الإسلامي » .

(٢) انظر ذلك كتابنا في (الورثة والبيئة) صفحتي ٧٨ ، ٧٩ .

وقد أخذ بهذا المبدأ القانون المصري الحديث فجعل الحد الأدنى للزواج الذي تقبل الجهات الرسمية تسجيله وتسمع الدعوى بشأنه وترتب عليه النتائج القانونية ثمانى عشرة سنة للرجل وست عشرة للمرأة .

وقد أخذ كثير من العلماء والمصلحين يذيعون فى الناس أنه لا يصح للشيوخ الذين أدركهم الضعف والوهن وفاتهم عهد الحيوية الجسمية والعقلية أن يتزوجوا لأنهم إن جاءوا بذرية فلن تكون إلا ذرية ضعيفة ضاوية ، ولأنهم بذلك يحنون على سلالاتهم وعلى وطنهم ، وأخذوا يحثون المشرعين وأولياء الأمور ليسنوا من القوانين ما يحظر الزواج فى هذه المراحل من العمر .

وقد صدرت فى بعض الأمم فى العصر الحاضر قوانين تحظر الزواج على النساء اللاتى يتولين وظائف عامة لا تمكنهن من القيام بأعباء الأسرة ، أو يؤدى زواجهن إلى تقصيرهن فى شئونهن . وكان القانون المصرى إلى عهد قريب يحظر الزواج على من يتولين وظائف التدريس فى المراحل الأولى وما فى مستواها .

وتحظر الديانة المسيحية الزواج على المطلق والمطلقة حتى لو كان طلاقهما لسبب مشروع تقره كنيستهما كما ورد فى إنجيل متى على لسان المسيح إذ يقول : « من يتزوج مطلقة يزنى (١) ، ولما ورد فى إنجيل مرقس على لسان المسيح كذلك إذ يقول : من طلق امرأته وتزوج بأخرى يزنى عليها ؛ وإذا طلقت المرأة من زوجها وتزوجت بأخر ارتكبت جريمة الزنا (٢) . وقد أراد الملك إدوار الثامن ملك إنجلترا وإمبراطور الهند السابق ، أن يتزوج امرأة مطلقة (مسر سمبسون) فوقفت الكنيسة فى وجهه وخير بين أن يمثل لقواعد الإنجيل ويحتفظ بالعرش أو ينزل على حكم قلبه ويتنازل عن الملك . فأثر التنازل عن العرش فى سبيل تحقيق بغيته . وحدث مثل ذلك أخيراً للأميرة مرجريت أخت ملكة إنجلترا الحالية . فقد أرادت أن تتزوج من ضابط أحبته وأحبها (الكابتن تاو فسند) فحيل بينها وبين رغبته ، لأن هذا الضابط قد طلق زوجته له من قبل ؛ وقاعدة

(١) إنجيل متى إصحاح ٥ ، آية ٣٢ .

(٢) إنجيل مرقس إصحاح ١٠ ، آيتى ١١ ، ١٢ .

الكنيسة أن من يتزوج مطلقاً يزني ، مع أن طلاقه هذا كان قد تم وفق الأوضاع المدنية والكنسية نفسها ، لأن زوجته السابقة كان قد ثبت عليها الخيانة الزوجية ، والمذهب البروتستانتي الذي يدين به الإنجليز يبيح الطلاق في هذه الحالة (١) .

وفي بعض الشعوب والديانات كان يجب على المرأة بعد وفاة زوجها أن تظل عزباء طول حياتها أو مدة معينة بعد وفاته . — فعند السكان الأصليين لجمهورية بيرو بأمريكا الجنوبية كانت الأرامل يظللن عادة طول حياتهن بدون زواج . وكان القانون نفسه والعرف الخلق يحثان على ذلك . — وعند قدماء الصين كان يعد عملاً غير لائق أن تتزوج المرأة بعد وفاة زوجها ؛ وإذا ارتكبت ذلك امرأة من طبقة راقية كان عقابها أن تجلد ثمانين جلدة . وفي هذا تقول حكمهم المأثورة وكتبهم المقدسة : « كما أن الوزير الخالص لا يسمح لنفسه أن يخدم ملكين ، كذلك المرأة المخلصة : فإنه لا يصح لها أن تتزوج زوجاً ثانياً بعد وفاة زوجها الأول » .

وتعد هذه القاعدة لديهم من مسلمات عقائدهم المعلومة من دينهم بالضرورة ، ولذلك ينزلونها منزلة التقديس . — وعند قدماء الآريين كان يجب على المرأة أن تحرق نفسها أو تنتحر بطريقة ما عقب وفاة زوجها . وكان معنى ذلك لديهم أنها تقدم نفسها قرباناً له . ثم تطور هذا النظام فيما بعد وخفت قسوته ، فاقصر واجب المرأة على هذه الحالة على ألا تتزوج بعد وفاة زوجها ؛ وكان معنى ذلك لديهم أن تظل خالصة له في حياته وبعد مماته . ولا يزال هذا النظام معمولاً به في معظم بلاد الهند إلى الوقت الحاضر . وفي بعض هذه البلاد يعدأ كبير سبة وإهانة للأرملة أن يقال أنها تفكر في الزواج . وإذا تزوجت أرملة لديهم فإنها ترتكب بذلك في نظرهم أكبر إثم خلق وتجب مقاطعتهم مقاطعة تامة من جميع أفراد مجتمعتها . — وعند قدماء اليونان والرومان كان يعتبر كذلك زواج الأرملة إهانة كبيرة موجبة لزواجها ولروحها . — ولا يزال الأمر كذلك إلى الوقت الحاضر عند صقالبة الجنوب . —

وفي العصور المسيحية الأولى كان ينظر بعين الكراهية الشديدة لزواج الرجل الأرملة وزواج المرأة الأرملة ، بل كان يعد ذلك عند المحافظين من المسيحيين

(١) انظر بعض التفاصيل في موضوع الطلاق في المسيحية والإسلام في كتابنا « حقوق

ضرباً من ضروب الزنا والسفاح . — وفي بعض الشعوب والديانات كان يجب على زوجات الملوك والأمراء وأفراد الطبقة الراقية أن يظلمن بدون زواج (١) . — وتقرر الشريعة الإسلامية أنه لا يجوز لزوجات الرسول عليه الصلاة والسلام أن يتزوجن بعد وفاته ؛ وفي هذا يقول الله تعالى في كتابه الكريم : « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً ، إن ذلكم عند الله عظيم » (٢)

— ٢ —

العزوبة المفروضة على رجال الدين

وفي كثير من المجتمعات يحظر الزواج حظر تحريم أو كراهة على ذوى الوظائف الدينية وما يمت إليها بصلة أو يشبهها من الوظائف العامة ، كالقسيسين والرهبان ورجال الآكليروس والسحرة والمشرفين على المذابح المقدسة أو على تقديم الأضحية والقرايين الآلهة وأرواح الموتى ... وهلم جرا . وقد عثر علماء الإثنوجرافيا على مظاهر كثيرة من هذا النظام لدى كثير من الشعوب البدائية نفسها . فعند قبائل التلنكت Tlinkit يعتقد أن الساحر الذى لا يبتعد عن النساء سقتله الأرواح نفسها التى تقوم بحراسته . — وفي بعض عشائر الجوارانيين Guaraniens بارجوإى (بأمريكا الجنوبية) يتحتم على رجال الدين العزوبة والابتعاد عن النساء طول حياتهم ؛ ومن يتزوج منهم أو يقرب امرأة يفقد وظيفته كما يفقد ثقة الناس به . — وعند السكان الأصليين فى جواتيمالا يأخذ رجال الدين على أنفسهم العهود أن يبتعدوا مدى حياتهم عن قربان النساء . — ولدى الإتشكاتلانيين Ichcatlan يجب على كبير رجال الدين أن يعيش طول حياته فى داخل معبده وألا يقرب النساء ؛ فإن انحرف عن هذا السبيل قطع إربا إربا وعلقت أعضاؤه ليسكون عبرة لسواه ممن يخلفه . — وعند قبائل الأزتک Aztèques

(١) انظر فى موضوع تحريم الزواج على الأرملة فى الشعوب السابق ذكرها وفى غيرها :

Westermarck, op, cit. 434, 435.

(٢) سورة الأحزاب آية ٥٣ .

(وهم السكان الأصليون للمكسيك) كان يجب على الكاهنات والمشرقات على شئون المعابد ألا يتزوجن ولا يقربن الرجال ؛ وحتى في أثناء أدائهن لوظائفهن الدينية كان يجب عليهن أن يظللن بعيدات عن الرجال وأن يفضضن من أبصارهن حتى لا تقع أعينهن على واحد منهم . فإن انحرفت إحداهن عن هذا المنهج كان عقابها الإعدام . وإذا لم يكشف الناس جرمها ولم تقر به وجب عليها فيما بينها وبين ربها أن تكفر عنه بالصوم وتعذيب الجسم حتى تتقي بذلك ما يصعبه الإله من عذاب في الدنيا نفسها على مقترقات هذا الإثم إذ يبتليهن بتقرح الجلود وتعفن الأجسام . — وفي اليوكاتان Yucatan كان يخطر على الكاهنات المشرقات على عبادة الشمس الزواج وقربان الرجال في أثناء مدة معينة ، ثم يباح لهن بعد انقضاء هذه المدة ما يباح لغيرهن من النساء . أما اللائي كن يندرن أنفسهن لخدمة المعابد وتعبد النار المقدسة فكان يجب عليهن أن يظللن طول حياتهن عزبات بعيدات عن الرجال ، فإن زلت إحداهن أعدمتم رميا بالسهم . — وعند عشائر الإنكا Incas في بيرو كان يجب على العذارى اللائي وهبن أنفسهن للشمس والإشراف على معابدها أن يظللن عزبات طول حياتهن وألا يقربن الذكور ، بل كان يحرم عليهن حتى بمجرد الحديث مع الرجال . وكانت تسير لديهم على هذا المنهج نفسه ، ولكن في صورة اختيارية وبقصد التقرب للآلهة ، طائفة الأميرات والنبيلات ، فيندرن لله أن يظللن بعيدات عن الرجال طول حياتهن . وكان الناس ينظرون إلى هذا الصنف الأخير من النساء نظرة إجلال وتقديس ، ويطلقون عليهن اسم « أوكلو ، Ocllo » ، وهو اسم كانوا يطلقونه على من بلغ أرقى منزلة في القداسة الدينية . وبمقدار هذا الاحترام كانت القسوة في عقاب من تنكث بعهدا منها . فكانت تحرق حينئذ حية أو يقذف بها في الماء لتتوت غرقا أو يلقى بها إلى الأسد الجائعة . — وعند عشائر الجولنش Guanches في جزائر كاريانيا Caranis يحرم الزواج حرمة مؤبدة على طائفة من الفتيات يطلق عليهن اسم الموجاد Mogades أو الحاريماجاد hariymagades وتمثل وظائفهن في الإشراف على شئون المعابد والشعائر الدينية تحت إشراف الخبر

الأكبر . وكان يحرم الزواج كذلك لدى هذه العشائر على طائفة أخرى من الفتيات كن يقمن بصب المياه فوق رؤوس الأطفال عقب ولادتهم ، وكان ذلك إجراء دينيا هامالدى هذه الشعوب ؛ ولكن حظر الزواج على هذه الطائفة الأخيرة كان موقوتا بمدة اضطلاعهن بوظائفهن . فكان لكل منهن إذا شاءت أن تترك وظيفتها ؛ وحينئذ كان يحل لها ما يحل لغيرها من النساء . — وفي رأس بدرون في غينيا السفلى Cap Padron en Basse - Guinée كان يجب على من يخلع عليه لقب القسيس — الملك ، أن يعتزل الناس ويتخذ له في غابة مجاورة منزلا يعتكف فيه طول حياته . فلا يسمح له بالخروج منه ولا يباح له أن يمس امرأة في داخله (١) .

وقد وجد هذا النظام كذلك لدى كثير من الشعوب المتحضرة من الجنس الأرى في العصور القديمة وخاصة الرومان واليونان والفرس والهنود .

ففي أقدم عصور الرومان أنشأ الملك نوما پومبيليوس (٢) نظام الكاهنات المشرفات على شئون المعابد ، وكان يجب على كل واحدة منهن أن تظل عزباء في أثناء المدة التي تشرف فيها على شئون المذبح وتقديم الأضحية والقرابين للالهة وإقامة ما يتصل بذلك من شعائر الدين . فإن قاربت واحدة منهن رجلا في أثناء ذلك أدرجت في الأكفان ودفنت حية في لحد ضيق بدون احتفال بمحازنتها ولا صلاة على جثمانها ولا قيام على قبرها . وأما بعد انقضاء هذه المدة فكان يباح لكل واحدة منهن أن تترك وظيفتها ؛ وحينئذ كان يباح لها ما يباح لسائر النساء ؛ غير أن معظمهن كن يؤثرن البقاء في خدمة معابدهن .

(١) انظر تفاصيل هذا النظام في الشعوب البدائية التي ذكرناها وفي غيرها في كتاب :

Westermarck, op. cit. 391, 392.

(٢) هو الملك الثانى من ملوك روما في العصور السابقة للتاريخ وفق ما تحدثنا به

أساطير الرومان (٧١٤ — ٦٧١ ق م) .

وعند قدماء اليونان كان من المقرر في كثير من المدن أن تظل الكاهنات بدون زواج طول حياتهن أو على الأقل في أثناء قيامهن بوظائفهن . ويرى ترتوليان Tertullien (١) أنه في مدينة آجيوم Aegium اليونانية كان يشرف على معبد الإلهة جينون Junon (٢) فتاة عذراء يحرم عليها الزواج ، وأن الكاهنات اللاتي كن يشرفن على معبد الإلهة أبولو ، Appolon (٣) بدلفيا Delphes ، وكن ينفين الناس بما سيحدث لهم بما يتلقين من وحي من الإلهة ، كان يحرم عليهن الزواج حرمة مؤبدة ، وأن المشرفات على معبد الإلهة سيريس Crées (٤) واللاتي كان يطلق عليهن اسم ، الأرامل ، على الرغم من أنهن كن متزوجات ، كان لا يحل لهن في أثناء قيامهن بوظائفهن الاتصال بأزواجهن ولا بأحد من جنس الذكور على الإطلاق ، حتى لقد كان يحظر عليهن أن يقبلن أبناءهن . وفي بعض المدن اليونانية كان يخص القسوس الذين كانوا يشرفون على شئون بعض المعابد حتى لا يتاح لهم الزواج ولا قربان النساء . ومن هؤلاء كان يتألف السدنة المشرفون على معابد الإلهة أرتميس (٥) في إفيزيا Arthémis à Ephèse

(١) من كبار فقهاء الكنيسة المسيحية ١٦٥ — ٢٤٠ م تقريباً .

(٢) هذا هو اسمها اللاتيني ، أما عند اليونان فكانت تسمى «هيرا» Héra ، وهي زوجة جوبيتر أوزوس ، كبير آلهة اليونان ، وهي إلهة الزواج (انظر ص ٤١ من الجزء الأول من هذا الكتاب) .

(٣) هو ابن جوبيتر ، وهو من أشهر آلهة الإغريق . وقد أقاموا له في مختلف مدنها ، وخاصة في دلفيا ، معابد كثيرة كان يحج إليها اليونان وغيرهم ليؤدوا مناسكهم ويشهدوا منافع لهم ويسألوا الكاهنات عما يضرهم لهم الغيب . وهو من أكثر الآلهة وظائف : فهو إله التنبؤات والاخبار بالغيب والطب والشعر والفنون والموسيقى والأنعام والتجارة والقرصنة وحامي التجار واللصوص والترصان (انظر في ذلك ص ٤٥ من الجزء الأول من هذا الكتاب) .
(٤) أو «ديميتير» Démètère وهي إلهة الحبوب والزراعة والأرض عند قدماء اليونان ، (انظر ص ٤٩ من الجزء الأول من هذا الكتاب) .

(٥) أو «ديانا» Diana وهي بنت جوبيتر ، إلهة الصيد ، وقد طلبت إلى أبيها أن تظل عذراء ، وأجابها إلى رغبتها ، وجعلها ملكة على الغابات (انظر ص ٤٦ من الجزء الأول من هذا الكتاب) .

ومعابد الإلهة سيليل^(١) في فريجيا Cybèle de Phrygie .

وعند قدماء الفرس كان يجب على الكاهنات المشرفات على معابد الشمس ألا يقربن الرجال .

وعلى الرغم مما كان للزواج في نفوس الهندوكيين البرهميين من منزلة كبيرة فإنهم كانوا يرون العزوبة واجبة على كل من يصل إلى منزلة القديسين من رجال الدين . وكان يجب لديهم كذلك على البرهما كارين Brahmacarin ، وهو التلميذ في أدوار دراسته الدينية قبل أن يصل إلى مرتبة القسيس ، أن يظل أعزب وألا يقرب النساء حتى يفرغ من دراسته هذه . وقد اتسع نطاق هذا النظام في الديانتين الهندوكيتين الآخرين وهي الجينية والبوذية Jāinisme, Boudhisme ففي الديانة الجينية كان يحظر على الراهب حظراً باتاً أن يتزوج وأن يتمتع بأية متعة جنسية مع أى كائن ، إلاها كان هذا الكائن أم إنسا أم حيواناً ، (حسب النص الوارد في كتبهم المقدسة) ، وكان يجب عليه أن يقاوم شهواته وألا يخوض في أى حديث يتعلق بالنساء ، كما كان يحرم عليه مجرد التفكير أو التأمل في تكوين المرأة الجسمي . وترى الديانة البوذية أن اللذائذ الجنسية تتعارض كل التعارض مع القدسية والحكمة . ومن أجل ذلك ، ينبغي لكل عاقل حكيم (حسب النص الوارد في كتبهم المقدسة) أن يبتعد عن الزواج ويتحاشى الوقوع فيه . كما يتحاشى أن يلقى بنفسه إلى التهلكة في موقد من الفحم المتوهج ، ولذلك تروى أساطيرهم أن أم « بوذا » التي يعتبرونها أظهر امرأة من بنات حواء ، لم تنجب ولداً

(١) أو « ريا » Rhéa وهي زوجة الإله ساتورن Saturne أو كرونوس Cronos (زحل) وأم جوبيتر ، ويرجم إليها الفضل في تخليص ابنها جوبيتر من أياب أبيه ، فبعد أن وضعت ابنها في جزيرة كريت عادت إلى زوجها بحجر مدثر بلفائف ظنه ساتورن المولود الجديد فالتهمه ، لأنه كان قد أخذ على نفسه أن يأكل كل مولود ذكر يولد له حتى يتقوى المصير الذي قنّباً له به العرافون من أن أحد أبنائه سيقتله ويخلفه على العرش (انظر ص ٣٩ من الجزء الأول من هذا الكتاب) .

غيره ، وأنها حملت به بدون أن يمسسها بشر . وتفرض العزوبة فرضاً في الديانة البوذية على كل كاهن ، بل يحرم عليه كل اتصال جنسى « حتى لو كان مع حيوان » حسب النص الوارد في أسفارهم الدينية . وكل كاهن ينحرف قيد أنملة عن واجباته في هذا الصدد يجرّد من جميع وظائفه الدينية ويطرّد من مجمع الإكليروس . — وفي التبت يجوز الزواج لطبقة من رجال الدين ، وهي الطبقة التي يطلق على أفرادها اسم « اللاما ، Lamas » وإن كان غير المتزوجين منهم أكبر منزلة وأحق بالإجلال من المتزوجين . وأما الكهنة الذين يطلق عليهم اسم النونيين Nonnes فيحرم عليهم الزواج وكل اتصال جنسى (١) .

وقد انتقل هذا النظام إلى الصين مع ما انتقل إليها من الديانات والمعتقدات الهندية والآرية . فالقانون الصيني يوجب العزوبة على كل قسيس بوذي أو تاويسي Taoïste (٢) . ويعد التاويسيون في قائمة الخالدين من أفراد نحلهم بعض نساء امتزن عن غيرهن بالمبالغة في حياة الزهد والابتعاد عن جميع لذائد الجنس (٣) .

وساد هذا النظام كذلك لدى كثير من الشعوب المتحضرة من الجنس السامي في العصور القديمة . ففي كثير من معابد « عشروت Astarté, Astaroth » (وهي إلهة السماء عند كثير من الشعوب السامية القديمة . وكان لها معابد عند جميعها وخاصة عند الفينيقيين واليمنيين والآراميين) كان يتألف الكهنة من جماعة من الخصيّان

(١) انظر تفاصيل هذا النظام في الشعوب الآرية التي ذكرناها وغيرها في :

Westermarck; op. cit. 392—394.

(٢) التاوسية Taoïsme ديانة شعبية منتشرة في الصين . وهي أمشاج من عبادة الأرواح وعبادة مظاهر الطبيعة ومن بعض الخرافات والمعتقدات السحرية ومن مبادئ فيلسوف الصين الشهير لاوتسى Lao - Tseu (نشأ في القرن السادس ق م . وقد خلف أسفاراً كثيرة من أشهرها كتابه في « الطريق إلى الفضيلة ») .

(٣) انظر تفاصيل هذا النظام في الصين القديمة في :

Westermarck, op. cit. 394.

كما كان الشأن في معابد الإلهتين أرتميس وسيبيل عند اليونان (١) .
ومنذ العصور المسيحية الأولى كان يحظر على القسيس أن يتزوج امرأة
توفي عنها زوجها ، كما كان يحظر عليه أن يتزوج مرة ثانية بعد وفاة زوجته .
وفي أوائل القرن الرابع الميلادي أصدر مجمع « ألفيرا » Elvira (في أسبانيا)
قراراً بتحريم الزواج والابتعاد عن كل شهوات الجنس على كبار رجال الكنيسة .
وفي أواخر القرن الحادي عشر أصدر البابا جريجوار السابع أمراً بوجوب
العزوبة وتحريم الزواج على جميع القسس والرهبان كبارهم وصغارهم . ومع أن
هذا القرار قد لاقى في مبدأ الأمر معارضة شديدة في كثير من المناطق المسيحية ،
فإنه لم يكدهم ينتهي القرن الثالث عشر الميلادي حتى كان نظاماً مقررأ في الكنيسة
الكاثوليكية ومطابقاً على جميع القسس من الرجال والراهبات من النساء .

— ٣ —

أسباب العزوبة المفروضة على رجال الدين

هذا ويرجع التبتل المفروض على رجال الدين وعلى الراهبات في المسيحية
وغيرها من الأديان إلى عدة أصول وتقوم أسبابه على اعتبارات شتى :
ففي كثير من الشعوب كان ينظر إلى السكاهنة على أنها زوجة الإله الذي
وقفت نفسها على معبده ، فيمكن يحرم عليها لذلك أن تكون في الوقت نفسه
زوجة لإنسان . وقد ساد هذا الاعتقاد لدى كثير من الشعوب البدائية
والمتحضرة .

فعند عشائر الإنكا Inca (وهم السكان الأصليون لجمهورية بيرو في أمريكا
الجنوبية) كان يعتقد أن كل عذراء تنذر نفسها للشمس (وكانت الشمس

(١) انظر صفحتي ١٢٠ ، ١٢١ .

من كبار آلهتهم ومن جنس الذكور في نظرهم) تصبح زوجة لهذا الكوكب .
ومن أجل ذلك كان الاتصال بواحدة من هؤلاء يعد في نظرهم أكبر جريمة
يمكن أن يرتكبها إنسان في جنب الله . — وفي ساحل الذهب كان يجب
على الكاهنات أن يظللن بدون زواج ؛ لأن كل واحدة منهن كانت زوجة
للإله الذي تقوم بخدمة معبده ؛ فما كان يجوز لها مع ذلك أن تجمع بينه وبين
زوج آخر (١) .

وفي بعض معابد الإله *چرپيتير* (*أوزوس*) — وهو كبير آلهة الإغريق
والرومان) في بلاد اليونان ، كان يتحتم على عذراء المعبد أن تبيت في ساحته .
وكان يعتقد أن الإله قد اصطفاها على نساء العالمين واختارها لمتعته وأنه
ينزل إليها من علياء سمائه متمثلاً لها بشراً سوياً ليقضى معها إربته ؛ ولذلك كان
محرم عليها أن تتزوج أو تتصل اتصالاً جنسياً بأي فرد من البشر . — ويرى
المؤرخ اليوناني *هيرودوت* أن هذا الوضع يشبه ما كان يجري عليه العمل في مدينة
طيبة في عصورها الفرعونية القديمة حيث كان يجب على فتاة المعبد أن تبيت
فيه كما كان يحظر عليها حظراً باتاً أن تتصل بالرجال . وكان قدماء المصريين
يعتقدون أن *فرعون ابن الله* بالمعنى الحقيقي لا المجازي ، أي أنه قد نشأ من اتصال
الإله بأمه . ولذلك تطلق النصوص المصرية القديمة على الملكة إسم « الزوجة
المقدسة » أو « الزوجة الإلهية » (*نيترهنت* = *épouse divine*)
لأنها متيهاة لأن تعلق من الإله وتأتي منه بفرعون لمصر يخلف فرعونها الحالي .
وكان السائد في عقائد المصريين ، على ما يروى المؤرخ *بلوطارخوس* ، أن
المرأة يمكن أن تعلق بمجرد اتصال جسمها بروح القدس (٢) .

(١) انظر تفاصيل هذا الموضوع في الشعوب البدائية التي ذكرناها وغيرها في :

Westermarck, op. cit. 397.

(٢) انظر تفاصيل هذا الموضوع في الشعوب المتحضرة القديمة التي ذكرناها وغيرها في :

Westermarck, op. cit. 397, 398.

وقد انتشر في العصور المسيحية الأولى أفكار كثيرة من هذا القبيل .
 فالقديس سيبريان St syrien (١) يتحدث عن نساء نذرن أنفسهن للمسيح
 ، فأصبحن وحده مولاتهن وزوجهن ، وأصبحن يرتبطن معه بزواج روحي .
 وقد عرفت عن متع الجسم مع الأناسي لأنهن قد وهبن للمسيح جسومهن
 وأرواحهن ، (٢) . — وقد ثار هذا القديس ثورة عنيفة على ما كان يحدث
 أحيانا من اتصال بعض القسس ببعض الراهبات ومساكنتهن لهن باسم الاتصال
 الروحي والمساكنة الزوجية . وفي ذلك يقول . « إذا قدم الزوج فوجد امرأته
 مع رجل آخر في فراشه ، فإنه يفضض ويشور ، بل لقد تذهب به الغيرة إلى
 استخدام الحسام . فكيف يكون الحال إذا كان هذا الزوج هو المسيح نفسه ؟
 كيف يكون الحال إذا باغت المسيح عذراء قد نذرت نفسها له تنام مع أحد الرجال ؟
 وأي عذاب ينزل به بمن ينتهك حرمة إلى هذا الحد ؟ إن من يقترب جرما كهذا لا يرتكب
 جريمة الزنا معتديا على فراش زوج من البشر ، بل يرتكبها منتهكا فراش المسيح
 نفسه (٣) . — وفي أحد الإنجيل غير المعتمدة عند المسيحيين ، وهو الإنجيل
 المشهور لديهم باسم ، إنجيل متى غير المعتمد L'Evangile de Pseudo Mathieu
 أن مريم كانت من العذارى اللاتي نذرن أنفسهن للاله (٤) ، ولذلك لم تتزوج
 ولم يمسها بشر (٥) . ويتفق هذا من بعض نواحيه مع ما ورد في القرآن الكريم

(١) من آباء الكنيسة اللاتينية ، وقد استشهد سنة ٢٥٨ م .

(٢) Westermarck, op. cit, 398.

Ibid. (٣)

Ibid. (٤)

(٥) في إنجيل متى المعتمد عند المسيحيين أن مريم كانت زوجة (أو خطيبة كما عبر عنها
 في آية أخرى) ليوسف النجار ، وأنها حملت بالمسيح من قبل أن يقر بها يوسف ، فخالج يوسف
 الشك في أمرها ، وأراد أن يفارقها بدون فضيحة . فبعث الله إليه ملكا أمره بأن يمسك
 عليه زوجه ، وأنبأه أنها قد حملت من روح القدس وأنها ستلد غلاما زكيا ، وأن هذا الغلام
 سيخلص شعبه من خطاياهم ، وطلب إليه أن يسميه عيسى (إنجيل متى ، الإصحاح الاول ،
 آيات ١٩ — ٢١) .

في هذا الصدد إذ يقول : « إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً ، فتقبل مني إنك أنت السميع العليم . فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، وإني سميتها مريم ، وإني أعيدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم . فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً (١) .

وفي كثير من الديانات يعتقد أن الاتصال الجنسي نفسه ينجس المرأة والرجل كليهما . فعند قدماء البابليين والعبريين والعرب وغيرهم من الشعوب يعتبر قربان الرجل للمرأة منجساً لهما معا ، فلا يطهران إلا بالغسل . وفي كثير من الديانات يحرم على الجنب أداء كثير من الأعمال الدينية ودخول كثير من الأماكن المقدسة . بل لقد يصل التخرج في هذا الصدد إلى أبعد من ذلك ، فيعتبر مجرد لمس الرجل للمرأة أو مجرد حديثه معها منجساً لكليهما ومحتاجاً إلى التطهير . فقد روى المؤرخ اليوناني هيرودوت أنه كان من المحرم عند قدماء المصريين وقدماء اليونان على السواء أن يتحدث الرجال مع النساء في المعابد والأماكن المقدسة ، بل لقد كان حديث الرجل مع المرأة خارج المعابد يعتبر منجساً لكليهما ، فلا يجوز لأحدهما دخول المعبد إلا بعد أن يغتسل بالماء ويتطهر من هذا الحديث . — وقد وردت هذه التعليمات في كتاب « الموتى ، نفسه ، وهو من أهم الكتب المقدسة عند المصريين (٢) . — وعند اليهود لا يجوز لجنب أن يدخل المعبد إلا بعد أن يتطهر (٣) . — والإسلام نفسه يعتبر قربان الرجل للمرأة منشأاً للحدث الأكبر وموجباً للغسل على كليهما ، فلا يجوز لأحدهما الصلاة ولا قراءة القرآن ولا دخول المسجد إلا بعد أن يتطهر . بل إن بعض المذاهب الإسلامية

(١) سورة آل عمران آيتي ٣٦، ٣٧ .

(٢) Westemarck. op, cit. 400.

Ibid. (٣)

ليرى أن مجرد لمس الرجل المرأة ناقضا للوضوء في جميع الأحوال أو في بعضها (١) . ويحرم الإسلام كل اتصال جنسى في أثناء أداء فريضة الحج وفي أثناء الصيام وفي أثناء الاعتكاف في المساجد . وفي الحج يقول الله تعالى في كتابه الكريم : الحج أشهر معلومات ؛ فمن فرض فيهن الحج فلا رفث (٢) ولا فسوق ولا جدال في الحج ، (٣) . وفي الصوم والاعتكاف يقول الله تعالى : « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ، هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ، علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم ، فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم ، وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ثم أتموا الصيام إلى الليل ، ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد : تلك حدود الله فلا تقربوها ؛ كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون ، (٤) . — والتعاليم المسيحية توجب على من يريد الاشتراك في بعض الحفلات المقدسة وفي أعياد الكنيسة وبعض الأعمال الدينية أن يهيئ نفسه لها بالامتناع عن كل اتصال جنسى قبل حلول موعدها بيوم أو أكثر فلا يجوز مثلا لأحد الزوجين أن يشترك في أى عيد من الأعياد الكنسية إذا كان في الليلة السابقة لهذا العيد قد اتصل بزوجه (٥) . — وقد تطورت هذه الأفكار في بعض الأمم وبعض الديانات ، فأصبح من المقرر أن عملا هذا شأنه في إحداث النجاسة لا يصح أن يأتيه رجال الدين . ومن ثم حرم عليهم الزواج ووجبت عليهم العزوبة وبجانبه كل اتصال جنسى .

(١) يشترط الإمام مالك أن يقصد اللامس اللذة أو أن يجدها عند اللس . وأما أبو حنيفة فلا يعتبر اللس ناقضا للوضوء ولو صاحبه قصد اللذة أو صاحبه اللذة نفسها .

(٢) من معاني « الرفث » قربان النساء ، وهو المقصود في الآية .

(٣) سورة البقرة آية ١٩٧ .

(٤) سورة البقرة آية ١٨٧ .

(٥) Westermarck, op. cit. 401

وفضلا عن هذا كله ، فإنه من المقرر أن شئون الدين من أسمى الشئون الروحية وأعظمها قيمة وأرقاها منزلة ، وأنها من أبعد الأمور عن مظاهر المادة وشئون الجسم . ومن ثم جاءت الفكرة بأنه لا يجوز أن يتصدى للقوامة على هذه الشئون إلا من تجرد عن مظاهر المادة ، وبعد عن لذائذ الجسم ، وعزف عن زينة الحياة ، وصفت نفسه حتى أصبح روحا خالصة . ولما كانت الشئون الجنسية من أشد الأمور إمعانا في المادة ولذة الجسم ، لذلك كانت على رأس الأمور التي تحظر على القوامين على شئون الدين في كثير من الديانات .

وقد ارتبطت شئون الدين والتصوف في أذهان كثير من الناس بالتقشف وتعذيب الجسم وحرمانه من مطالبه . ومن ثم نشأ الحث على الصيام والزهد في شئون الدنيا والرهابية والاعتكاف في المعابد والعكوف على الصلاة والعبادة والندب إلى التهجّد وقيام الليل ، كما نشأ تعمد تعذيب الجسم في بعض فرق الصوفية في الإسلام وغيره . وغنى عن البيان أن الامتناع عن الزواج مظهر عام من مظاهر هذا الحرمان .

ويضاف إلى هذا كله أن الزواج وما يضعه على كاهل المتزوج من أعباء وما يقتضيه من كدح في الحياة لسد نفقات الأسرة وتوفير ما تحتاج إليه في حياتها المادية والمعنوية ... كل ذلك من شأنه أن يستأثر بقسط كبير من مجهود الإنسان ونشاطه وتفكيره . وأمر هذا شأنه يعتقد في كثير من الشعوب أنه لا يوائم رجال الدين الذين ينبغي أن يستأثر التأمل والعبادة والإرشاد والتعليم بجميع ما يستطيعون بذله من جهد ونشاط وتفكير .

العزوبة التي تفرضها بعض النحل الدينية

على جميع معتنقيها

لا نكاد نعثر على أمثله صريحة له — ذا النوع من النحل إلا في الديانتين اليهودية والمسيحية .

ففي القرن الثامن قبل الميلاد ظهر عند اليهود اتجاهات من هذا القبيل يحمل لواءها جماعة الحسديين أو الإيسينيين أو الآزين Esseniens . فقد كان من أهم مبادئ هذه الفرقة ، حسب ما يحد ثنا به المؤرخ الشهير يوسف Josephه ، الرغبة عن جميع متع الجسم ، والنظر إليها على أنها شرور ، واعتبار التبتل والبعد عن النساء من أمهات الفضائل ، ومن ثم حرموا على أنفسهم الزواج ، (١) .

(١) انقسم بنو اسرائيل في العصور الأخيرة السابقة الميلاد إلى ثلاث فرق : فرقة الفروشين (فروشيم Pharisians) ؛ وفرقة الصادوفيين (صادوفيم Sadducéens) ؛ وفرقة الحسديين (حسديم Esséniens) . ومعنى حسديم المشفقون ، والياء والميم علامة الجمع في العبرية) . وقد امتازت هذه الفرقة الأخيرة عن سائر فرق اليهود في الشؤون الاقتصادية باتجاهات شيوعية عرضنا لها بالتفصيل في كتابنا عن قصة الملكية في العالم ، (انظر صفحتي ٧٠ — ٧١ من الطبعة الثانية من هذا الكتاب) . وامتازت عنها في الشؤون الدينية بالإكثار من الغسل والوضوء وبتحريمها تقديم الأضحية والقرايين وبالذعوة إلى الزهد والتقشف ومحاربة البذخ والترف والحياة الناعمة . وقد طبقت مبادئها هذه على أفرادها الذين اعتزلوا المجتمع الإسرائيلي وعاشوا جماعات حول شواطئ البحر الميت . واقتضت مبادئهم في التقشف والزهد أن يحرموا على أنفسهم استخدام الذهب والفضة واقتناءهما والتعامل بهما . — هذا ، وقد وصلت إلينا أخبار هذه الفرقة عن طريق ما كتبه فيلون الفيلسوف Philon ويوسف المؤرخ Josephه وكلاهما من رجال القرن الأول الميلادي . (انظر كذلك المراجع التي أحلنا عليها في صدد هذه الفرقة في كتابنا « قصة الملكية في العالم » ص ٧٠ من الطبعة الثانية والتعليق المدون في هذه الصفحة) .

ومع أن هذه المبادئ الحسدية لم يكن لها أثر كبير في الديانة اليهودية نفسها ولم تطبق إلا في نطاق جماعة الحسديين وحدهم وفي مواطن منعزلة عن الناس ، فإنها قد تركت آثاراً ذات بال في الديانة المسيحية التي جاءت بعد ذلك . فقد ساد في المسيحية الاعتقاد بأن العزوبة أمثل من الزواج وأن الحصور (١) أدنى إلى الله من يقرب النساء . وفي هذا يقول بولس الرسول في رسالته إلى أهل قورنثة :
« إن من يزوج ابنته يأت عملاً طيباً ، ولكن من لا يزوجها يأت ما هو خير (٢) وإنه من الخير للرجل أن يظل أعزب إلا إن خاف الوقوع في الخطيئة (٣) . وإني لأنصح الأيامي (٤) من الرجال والنساء أن يقتدوا بي فيظلوا على ما هم عليه ؛ فإن لم يقو أحدهم على العفة ، فلا مندوحة له حينئذ عن الزواج : فلأن يتزوج خير من أن يكون وقوداً لنار جهنم ، (٥) .

ويعلق ترتوليان Tertullien (٦) على هذه الفقرة الأخيرة من رسالة بولس الرسول ، فيقول : « إن الأفضل من حالين لا يلزم أن يكون خيراً في ذاته . فلأن يفقد الإنسان عيناً واحدة أفضل من أن يفقد كلتا عينيه . ولكن فقد عين واحدة ليس من الخير في شيء . فكذلك الزواج : فهو لمن لم يقو على العفة أفضل من أن يحرق بنار جهنم . ولكن الخير أن يتقى الإنسان الأمرين معا ، فلا يتزوج ولا يعرض نفسه لعذاب النار . وإن قصارى ما يحققه الزواج

(١) الحصور من لا يأتي النساء وهو قادر على ذلك والممنوع منهن أو من لا يشتهيهن ولا يقربهن . اه من القاموس المحيط . وبالمعنى الأول وحده نستخدم هذا الوصف في بحثنا هذا .

(٢) الرسالة الأولى لبولس إلى أهل قورنثة ، إصحاح ٧ ، آية ٣٨ .

(٣) الرسالة الأولى لبولس إلى أهل قورنثة ، إصحاح ٧ ، آيتي ١ ، ٢ .

(٤) الأيم العزب رجلاً كان أو امرأة والجميع فيهما أيامي . اه مصباح .

(٥) الرسالة الأولى لبولس إلى أهل قورنثة إصحاح ٧ آيتي ٨ ، ٩ .

(٦) من كبار رجال الكنيسة المسيحية (١٦٠ — ٢٤٠ م) .

أنه يعصم الفرد من الخطيئة ، على حين أن التبتل يروض المرء على أعمال القديسين ، ويذل له السبيل إلى منزلة الإشراف ، ويتيح له أن يأتي بالمعجزات . فحسم المسيح نفسه قد جاء من بتول عذراء . والقديس يوحنا المعمدان Jean Baptiste (يحيى بن زكريا) والرسول بولس وجميع إخوانه الحواريين الذين سجلت أسماؤهم في سفر الخلود آثروا التبتل وحشوا الناس عليه . وقد استطاعت مريم البتول أخت موسى (١) أن تعبر البحر هي وجميع من كن يسرن خلفها من النساء فانشق لهن فيه طريق يابس وانتهن إلى الساحل الآخر سالمات . والقديسة البتول تكلا Thècle قد ألقى بها الكفار إلى الأسد الجائعة فوجعت الأسد أمامها ورقدت تحت قدميها بدون أن تمسها بسوء (٢) ... وقد فتح السيد المسيح للخصيان أبواب السماء لأن حالتهم قد باعدت بينهم وبين قربان النساء ... ولو أن آدم لم يعص ربه لعاش طاهراً حصوراً ولتكاثر النوع الإنساني بطرق أخرى غير هذه الطرق البهيمية ولعمرت الجنة بفصيلة من الطاهرين الخالدين (٣) .

(١) هي التي ورد ذكرها في القرآن في قوله تعالى : « وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون . وحرمنا عليه المراضع من قبل ، فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون » سورة القصص آيتي ١١ ، ١٢ .

(٢) تذكر القصص المسيحية أن الشهيذة تكلا Thècle كانت من السابقات الأوليات إلى اعتناق المسيحية في القرن الأول الميلادي على يد بولس الرسول ، وأن الله قد نجحها بمعجزة منه من كثير من أنواع العذاب الذي امتحنها به الوثنيون لينتوها عن عقيدتها . ويحتفل المسيحيون بذكرها في الثالث والعشرين من شهر سبتمبر .

(٣) Tértullien, De Monogamia 3 cité par Westermarck, op. cit. 395, 396 — وقد وافق ترتوليان على ما تضمنته الفقرة الأخيرة الخاصة بآدم ونسله جريجوار النيسى ويوحنا الدمشقي Grégoire de Nysse, Jean de Damas وخائفه في ذلك توماس الإكويني St Thomas d'Aquin الذي يرى أنه منذ بدء الخليقة قد جعل الله بقاء النوع وانتشاره متوقفين على الاتصال الجنسي . ولكن هذا الاتصال — في نظر توماس الإكويني — لم يكن في بدء الخليقة منطوياً على اللذة الجنسية التي امتزجت به بعد أن هبط آدم من الجنة 396. Westermarck, op. cit.

وينظر كثير من فقهاء الكنيسة المسيحية إلى هذه الحقائق على أنها من الأمور المسلمة في الدين بالضرورة ، أى التي لا يجوز إنكارها ولا الشك فيها ، حتى أن مجمع مديولانتس *Médiolanense* المسيحي قد حكم في أواخر القرن الرابع الميلادي على الراهب جوفينيان *Jovenien* بالطرد من الكنيسة لأنه عارض المبدأ المسيحي الذي يقرر أن التبطل خير من الزواج (١) . وينظر هؤلاء الفقهاء كذلك إلى الزواج على أنه مجرد ضرورة لبقاء النوع الإنساني ولصيانة الفرد من الفاحشة . ومن ثم لا ينبغي في نظرهم المسيحي المتزوج أن يطلق لنفسه العنان في إشباع شهواته ، بل ينبغي أن يقيّد من ذلك بقصد واعتدال وفي الحدود التي تحقق الذرية والنسل ، فيكون شأنه شأن الزارع الذي إذا بذر البذرة انتظر الحصاد بدون أن يلقى في الأرض بذراً أخرى (٢) .

وقد ذهب فرقة المارسيين *Marcionites* (وهي فرقة مسيحية اعتنقت مذهب مرسيون *Marcion*) (٣) إلى ما هو أبعد من ذلك ، فحرمت الزواج تحريماً

(١) *westermarck, op. cit. 396.*

(٢) *Ibid.*

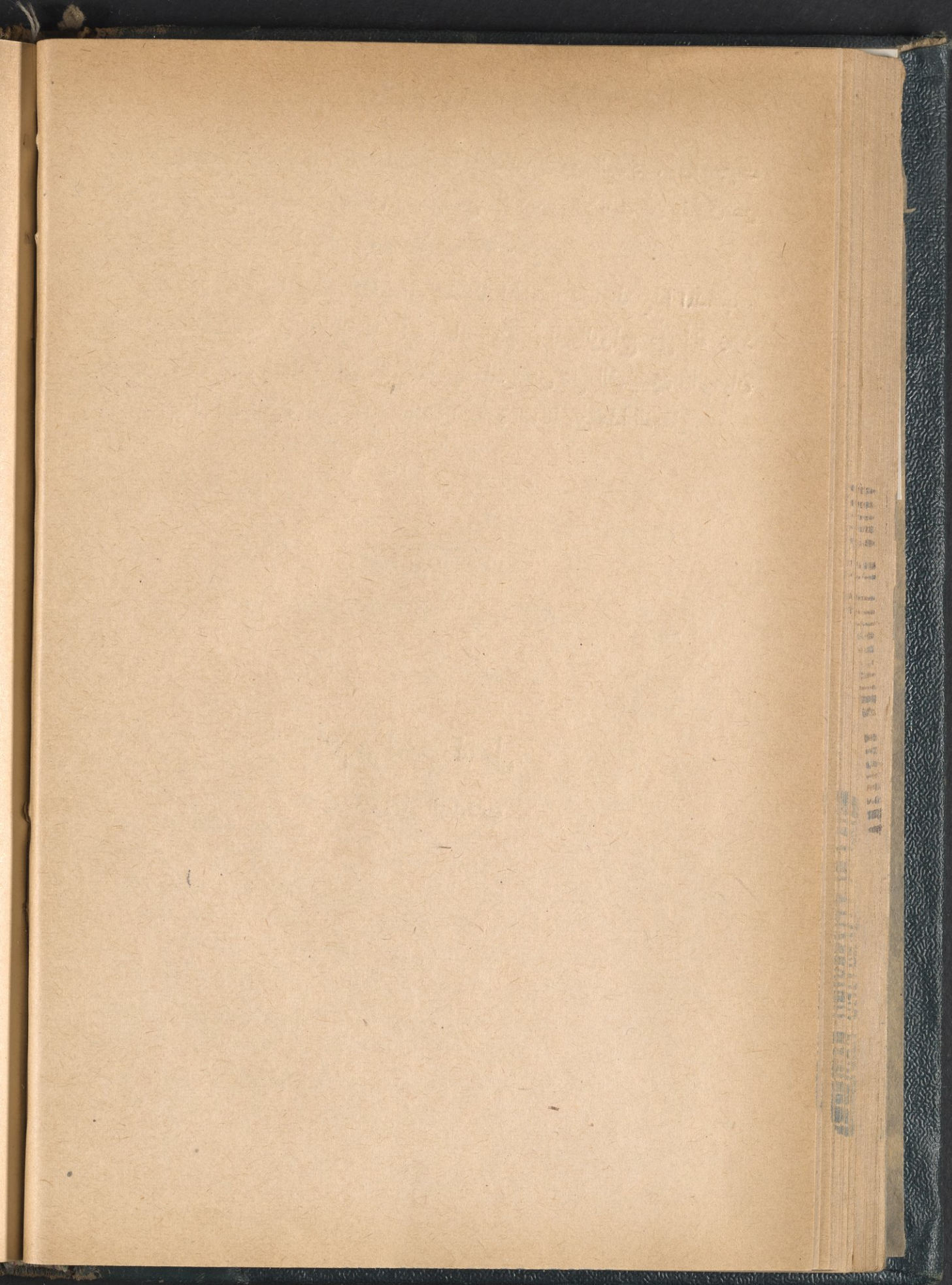
(٣) ولد مارسيون هذا ببلدة سينوب *Sinop* (ميناء على البحر الأسود في تركيا) في أوائل القرن الثاني الميلادي . وكان أبوه قيسا ، ونشأ قيسا كذلك . ولكن حكم عليه بالطرد من الكنيسة لمذهبه المنحرف عن أصول المسيحية . ويقوم مذهبه على اعتقاد أن العالم السفلي من صنع الإله العادل *Dieu Juste* أو الإله ديمورج *Démiurge* وهذا الإله هو الذي اتخذ من بنى إسرائيل شعباً مختاراً وأنزل عليهم التوراة . ولكن سلطان هذا الإله قد انتهى عند ما ظهر الإله الخير *Dieu Bon* متمثلاً في المسيح وخلص الإنسانية من خطاياها ؛ فحينئذ بطلت كل أعمال الإله السابق . — ومن ثم يقوم هذا المذهب على أطراح العهد القديم (كتب اليهود المقدسة) في جملة وتفصيله . أما العهد الجديد (كتب المسيحيين المقدسة) فإن هذا المذهب لا يعترف منه إلا بسفرين : أحدهما إنجيل لوقا ؛ والآخر رسائل بولس الرسول . ولم يعترف بهذين السفرين نفسيهما إلا بعد أن أدخل عليهما تعديلات كثيرة — وعلى الرغم من الحرب الشعواء التي شنتها الكنيسة وشنها المحافظون من كتاب المسيحيين على هذا المذهب ، فإنه قد انتشر وتبعه خلق كثير في إيطاليا وأفريقيا ومصر . وظل كذلك حتى منتصف القرن الثالث ثم أخذ يضمحل بهد ذلك حتى انقرض انقراضاً تاماً في القرن الخامس الميلادي .

باتا على جميع أفراد نحلتهما ، كما فعلت فرقة الحسديين من اليهود ، وأوجبت على كل متزوج يرغب في اعتناق مذهبها من الذكور والإناث أن يفترق عن زوجته ، وبدون ذلك لا يمكن قبوله ولا تعميده .

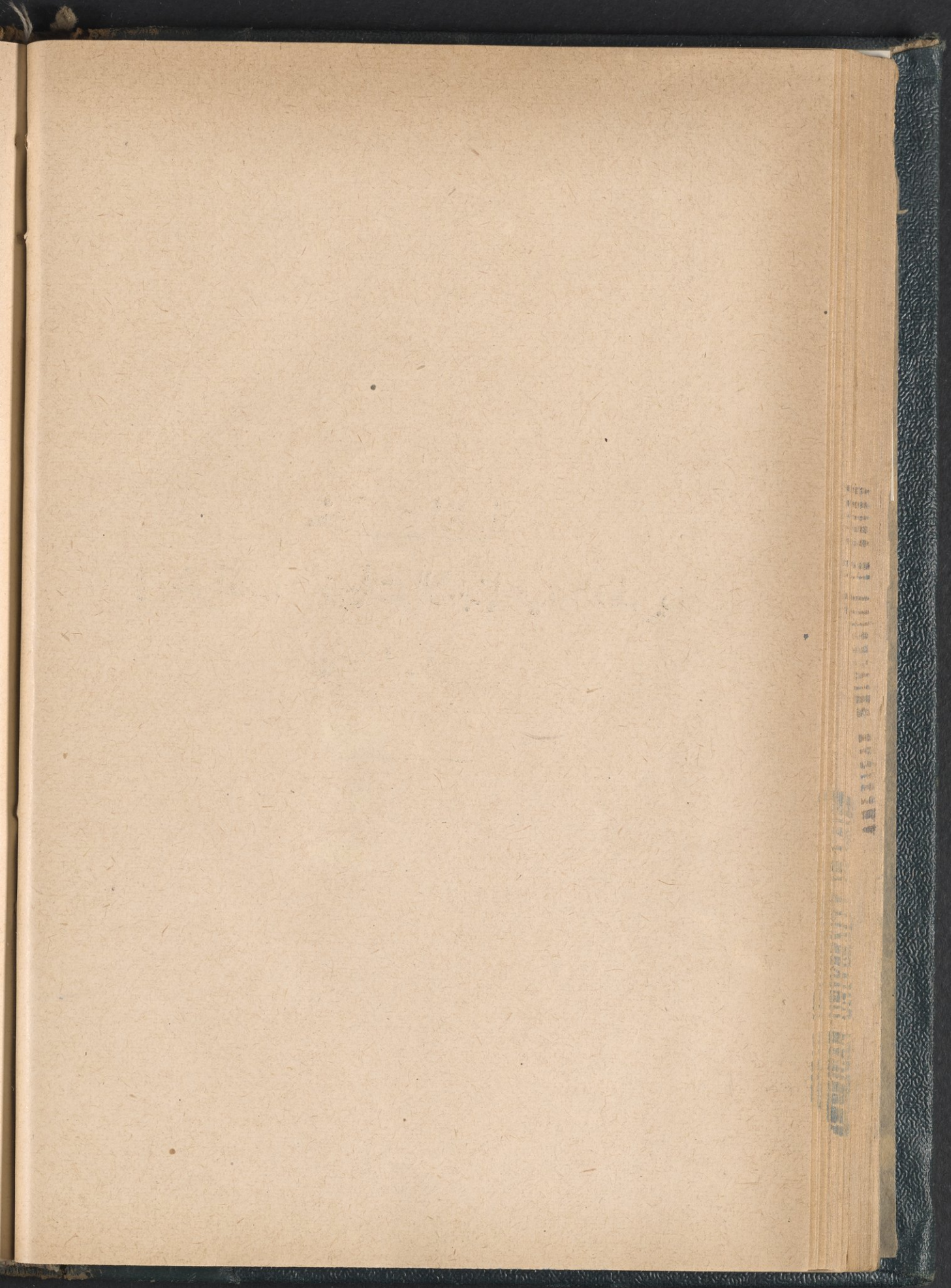
ومع أن الفرق المسيحية الباقية إلى عصرنا الحاضر لم تأخذ بهذا المذهب ، فإن نظرة المسيحية إلى التبتل على أنه الحالة المثلى وإلى الزواج على أنه مجرد ضرورة ، قد أدت بالتدريج إلى نظام العزوبة المفروض على القسيسين والرهبان في المذهب الكاثوليكي والذي تحدثنا عنه في الفقرة الثانية من هذا الفصل .

أهم مراجع الفصل

مذكورة في التعليقات



خاتمة
في غرائب النزعات الاجتماعية الفطرية
عند الحيوان



التعريف بالنزعات الاجتماعية الفطرية

عند الحيوان

توصف النزعة بأنها « اجتماعية » ، إذا كانت تتصل في صورة ما بالحياة في جماعة ، إما لأن الفضل في نشأتها الأولى يرجع إلى هذه الحياة ، وإما لأن وظيفتها تتصل بناحية من نواحي التنسيق الجمعي أو بقاء المجتمع أو النوع ، سواء اتصلت بمجتمع ضيق كمجتمع الآباء وأولادهم ، أم بمجتمع أوسع من ذلك كمجتمع القطيع .

وتوصفت النزعة بأنها « فطرية » ، إذا تأصلت في النوع حتى أصبحت تنتقل بطريق الوراثة من الأصول إلى الفروع ، ولو كانت مكتسبة في نشأتها الأولى (١) .

وقد تستبدل أحيانا كلمة « الغيرية » ، altruiste بكلمة الاجتماعية . ويقصد بهذا الوصف أن موضوع النزعة وغايتها لا يتصلان بذات الكائن المتلبسة به ، وإنما يتصلان بكائن آخر أو بكائنات أخرى غيره . وتقابل النزعات الغيرية بهذا المعنى ما يسمونه بالنزعات الذاتية أو الأنانية egoïstes ؛ وهي التي تتصل في موضوعها وغايتها بذات الكائن المتلبسة به . — ووصف النزعات التي هي موضوع حديثنا بكلمة « الغيرية » ، بهذا المدلول أدق وأشمل من وصفها بكلمة الاجتماعية ، وأكثر منه انطباقا على المعنى الذي نقصده . ولسكننا مع ذلك

(١) لأن النزعة قد تكون مكتسبة في نشأتها الأولى ، ثم ترسخ في النوع فتصبح فطرية ، أي تنتقل بطريق الوراثة من الأصول إلى الفروع . — انظر في ذلك كتابنا في « الوراثة والبيئة » ص ٤٢ — ٤٨ .

آثرنا هذه الكلمة الأخيرة في عنوان هذه الخاتمة لكثرة تداولها على الألسنة ،
ولغرابية الكلمة الأولى .

وقد تستبدل أحيانا كلمة « الغريزية » بكلمة الفطرية . ولكننا آثرنا
استخدام هذه الكلمة الأخيرة ؛ لأن كلمة الغريزة لا تزال غامضة مبهمه ، ولأن
الخلافا لا يزال كبيرا بين الباحثين في تحديد مدلولها وتمييز ما تنطلق عليه من
بين أنواع النزعات الفطرية ، ولأننا قد نعرض لبعض نزعات فطرية لا تسمى
غرائز في نظر بعض العلماء .

ومع أن الإنسان لا يدانيه أى حيوان آخر في نزعاته الاجتماعية وفي دقتها
وتشعبها ، فإن ما هو فطرى عند الإنسان من هذه النزعات ، بالمعنى الذى ذكرناه
لكلمة « فطرى » ، ليس شيئا مذكورا إذا قيس بنظائره عند الحيوان . ويرجع
السبب فى ذلك إلى كثرة ما ينتاب الإنسان من تطور وإلى اختلاف شئونه
باختلاف المجتمعات ، وإلى تدخل العقل والإدارة فى معظم أعماله وضآلة
ما يعتمد منها على الفطرة والوراثة .

وسنقتصر فى هذه الخاتمة على عرض أربعة عشر مثالا من أغرب هذه
النزعات عند الحيوان .

- ٢ -

نزعة التجمع أو التكتل أو الحياة فى جماعة أو تطيع

زود بهذه النزعة فى صورة فطرية عدة فصائل من الحيوانات والحشرات
والطيور منها القردة والفيلة والذئاب والأبقار والأغنام والظباء والقنفذ
والنحل والنمل والنعام والجمع والدجاج والحمام والسمان وعدة أنواع من
العصافير والجراد .

وفي بعض هذه الطوائف يشتد التكتل في فصول خاصة من السنة أو في مناسبات معينة ، وخاصة في مناسبات الهجرة من مكان إلى مكان .

فقطعان الجاموس الوحشى Le bison في أمريكا كان يشتد تكتلها قبيل الشتاء حينما كانت تندفع لطلب السكلا مهاجرة صوب الجنوب ، حتى لقد كان بعض قطعانها في هذه المناسبات يصل عدد أفرادها إلى عدة ملايين ، وحتى إن قطيعا واحدا منها قد شغل في أثناء هجرته مساحة عرضها ستون ألف متر وبلغ طوله أن أنعامه ظلت تتدافع بعضها إثر بعض في سير سريع مطرد مدة خمسة أيام متواليات (١) . وقد ظل هذا الحيوان على هذه الوفرة وعلى هذا النمط من التكتل حتى أواخر القرن التاسع عشر . فقد روى أحد من جاسوا خلال هذه القارة من ثقات الرحالة أنه قد مر في سنة ١٨٧١ بقطيع من هذا الجاموس يبلغ طوله زهاء خمسة وخمسين ألف متر (٢) .

ويلاحظ هذا التكتل الشديد كذلك في فصائل الطيور المهاجرة في مواسم هجرتها من منطقة إلى منطقة كفصائل السمان وأبي فصادة التي تهجر إلى مصر في أواخر الخريف وأوائل الشتاء ؛ ويبلغ أقصى شدته في فصائل الجراد في مواسم هجرتها حتى ليتألف منها سحب متحركة تحجب السماء وضوء الشمس في مساحة واسعة من الأرض .

وقد نجم عن هذه النزعة واتصل بها نزعات أخرى كثيرة أصبح بعضها فطريا ينتقل بطريق الوراثة من السلف إلى الخلف ، بينما لا يزال بعضها الآخر إراديا يخضع للتواضع والاصطلاح .

فمن ذلك نزعة توزيع العمل في المجتمع الحيواني وتقسيمه إلى طوائف تقوم كل طائفة منها بعمل خاص تتوقف عليه حياة الجماعة أو بقاء

(١) انظر ص ٦١ وتوابعها .

(٢) انظر كتابنا عن « الهنود الحمر » صفحات ٩٩ — ١٥٠ . وفي هذه الصفحات

كذلك بيان للأسباب التي أدت إلى انقراض هذا الحيوان من هذه القارة .

نوعها أو استقرار نظامها كما هو الشأن في طوائف النحل والنمل وما إليهما .
ومن ذلك أيضا النزعة إلى نظام حكومي أو إلى الخضوع لرئيس أو رؤساء
كما هو الشأن في طوائف النحل والنمل والقردة والأبقار والأغنام والجاموس
الوحشي والأوعال والفنغر والدجاج .

ومن ذلك أيضا الاصطلاح على أداة إرادية للتفاهم بها بين أفراد المجتمع .
ولشدة غرابة هذه النزعة عند الحيوان سنفرد لها أربع فقرات على حدة .

- ٣ -

التفاهم بالإشارة عند الحيوان

تبدو هذه النزعة على الأخص لدى فصائل النحل والنمل والقردة والأبقار
والأغنام والوعول . فقد ثبت أن كثيرا من الفصائل تستخدم ، في صورة
مقصودة متواضع عليها ، بعض إشارات جسمية للتعبير بها عن بعض شئونها .
ففحل الأوعال (الأيل) يستخدم في أثناء قيادة قطيعه بعض إشارات برأسه
وقرونيه للوقوف فيقف جميع أفراد القطيع ، وبعض إشارات للسير فيسير جميع
أفراد القطيع ، ويستحث المتخلفات بأن ينطح كلا منهما نطحا خفيفا . وتستخدم
كذلك فصائل القردة ، وبخاصة الفصائل العليا منها (الغوريلا ، الشمبزيه ،
الچييون ، الأورانج - أوتانج) ، وفصائل النحل والنمل بعض إشارات من هذا
القبيل . فقد كشف العلامة كوهلر Köhler عند فصائل القردة العليا عن ظواهر
كثيرة من هذا النوع ، منها ما يستعمله الشمبزية حينما يريد أن يرافقه آخر
في طريقه ، أو يرغب في أن يعطيه أحد زملائه شيئا مما في يده ، أو يناديه عن
بعد : فإنه في الحالة الأولى يحتك به بخفة ويجذبه من ذراعه محذقا فيه ومتقدما
بعض خطوات في الطريق التي يود أن يسلكها معا ، وفي الحالة الثانية يمد يده
إلى زميله مد الاستجداء ؛ وفي الحالة الثالثة يمد يده ويقبض كفه ويبسطها كما

نفعل نحن في مثل هذه المناسبة^(١) . وقرر الأساتذة كيربي وسبنسر وبورميستر وهوير وفرانكلين Kirby, Spencer, Burmeister, Huber, Franklin أن كثيرا من طوائف النحل والنمل يستخدم أفرادها بعضها مع بعض إشارات مقصودة للتعبير بها عن بعض شئونها ، وأن هذه الإشارات تتمثل في احتكاك بعض أعضاء المتكلم أو أطرافه أو ذؤاباته بجزء من جسم المخاطب بطريقة خاصة . وقام العلامة لوبوك Lubbock بطائفة كبيرة من التجارب في هذا الصدد فتبين له صدق ما ذهب إليه هؤلاء الباحثون^(٢) .

وقد نشر الأستاذ ، ألن ديشو ، في مجلة « نيتشر مجازين » مقالا تحت عنوان « لغة الحيوان في الغاب » يتضمن حالات كثيرة من هذا النوع . وفيما يلي بعض مقتطفات من هذا المقال الطريف^(٣) :

(١) انظر Köhler : L'Intelligence des Singes Supérieurs. p 264 et suiv.

(٢) V. Ribot : L'Évolution des Idées Générales p. 66, 67; Lubbock : Ants, Bees, and wasps; Romanes : Animal Intelligence — وانظر تفصيل التعبير عند الحيوان في كتابنا « نشأة اللغة عند الإنسان والطفل » . هذا ، وقد أنكر بعض العلماء وجود الإشارات ذات الدلالة المقصودة عند الحيوان . ومن هؤلاء العلامة وازمان Wasman الذي يرى أن كل الإشارات الحيوانية التي يخيل للإنسان أنها من هذا النوع هي في الحقيقة فطرية ، وأنها لا تدل المخاطب على شيء معين بل تقتصر على إثارة نشاطه في ناحية يحددها العمل الذي سيتلو الإشارة ، وتابعه في هذا العلامة دولا كروا :

Wasman : Die Psychischen Fähigkeiten der Ameisen, p. 86; Delacroix : Le Langage et la Pensée p. 77.

(٣) نقلا عن مجلة « المختار » الصادرة في شهر أكتوبر سنة ١٩٤٧ ، وقد لحصت هذه المجلة المقال المشار إليه .

وإذا وجدت النحلة العاملة زهرة حافلة بالرحيق ، عادت طائرة إلى الخلية ، ثم تشرع ترقص محومة في الفضاء رفصا غريبا خاصا يدل دلالة واضحة على معنى رسالتها المستعجلة . فيقوم سائر النحل فحوى هذا العمل ، فإذا به ينضم إليها واحدة في إثر واحدة ، ثم لا يلبث الجمع أن ينسدفع كله قاصدا ينبوع هذا الرحيق . — وإذا أراد الحجل أن ينذر قومه بالخطر طار مسرعا مسافة قصيرة متنقلا من شجرة إلى شجرة ، وهو يصفق بجناحيه تصفيقا شديدا . — وأتى الدببة إذا أرادت أن يسرع إليها ولدها نازلا من أعلى شجرة تسلقها ضربت بكفها جذع الشجرة . — وأتى الطيلاء إذا أرادت أن تقول لحشفها : « اتبعني » ، شالت بذيلها الكك مرة واحدة حتى يرى بياضه الباطن . — ومن أعجب أساليب التفاهم بين الحيوان هو أسلوب الحديث بين الطائر الذي يسمى « الهادي إلى العسل » ، والحيوان المعروف باسم « أبو كعب » ، أو آكل العسل . فهذا الطائر يحب أكل يرقات النحل حين تكون كالديد ، وآكل العسل منهوم بحب العسل . والطائر الهادي إلى العسل لا قبل له بالتغلب على جماعات النحل الساخطة ؛ أما آكل العسل فهو قصير الرجلين ، فلا يستطيع أن يقطع المسافات الطويلة بحثا عن خلايا النحل . فترى الهادي إلى العسل يطير مطوفا في أنحاء الغابة باحثا عن شجرة فيها خلية نحل ؛ ثم يرتد مسرعا إلى القابع الصابر فيحوم فوق رأسه ، وهو يقول له بصوت رفيع عال : « شر ، شر » . ويداف آكل العسل متناقل الخطو على أثر الطائر المرفرف بجناحيه . ولما كان هذا الحيوان في وقاء من جلده الكشيف الشعر فلا يضره لسع النحل ، فهو يهجم على الخلية ويمزقها إربا إربا . ثم يجتمع هو والطائر على المائدة الشهية . — ونحل الشجر في المناطق الاستوائية يتكلم فينتقل كلامه من شجرة إلى شجرة ؛ وذلك بأن يدق دقا شديدا على لحاء الشجر وورقه ، حتى يسمع لدقه صوت كأنه إنهمار رذاذ من مطر . — أما اسراب الفيلة فلا تكف لحظة عن غمغمة تسمع من حديث أو إشارة ؛ وهي لغة أدايتها الإشارة بالآذان والخراطيم .

التفاهم بالرائحة عند الحيوان

هذا وقد كشف بعض الباحثين أنواعا أخرى غريبة من التفاهم بين الحيوان .

فن ذلك ما يمكن تسميته التفاهم بالرائحة . « فقد ذكر علماء الحيوان أن الذئب إذا زاد طعامه عن حاجته دفن جزءا منه في التراب وخلف هناك شيئا من رائحته عالقا بالمسكان ، فيفهم سائر الذئاب لحوى رسالته حق الفهم . والذئب يفصح عن نفسه مرة أخرى بأن يخلف رائحته حيث يريد فتفهمها الذئاب أجود الفهم ، كما يفهم الرحالة من الناس إذا قرأ مذكرات كتبها رجل سبقه إلى هذه الرحلة . والذئاب والشعالب ، وهى فى الحقيقة من فصيلة الكلاب ، تعيش فى عالم لا تعد أرضه أرضا فحسب ، بل هى أرض مفعمة بالرائحة المعبرة . ويقول الأستاذ ف . بايندجك المولدى الذى تولى التجارب الشهيرة فى دراسة نفسية الكلاب : إن الكلب مشغول أبدا بحديث لا ينقطع بينه وبين سائر الكلاب التى فى ناحيته عن طريق الشم (١) . »

التفاهم بين الحيوان بدون صوت ولا رائحة ولا إشارة

وأغرب أنواع التفاهم بين الحيوان هو ما يكون بغير صوت ولا رائحة ولا إشارة ولا أية حركة أخرى . وفى هذا النوع يقول الأستاذ ألن ديشو : « وقد ذهب

بعض علماء الحيوان إلى أنه ضرب من الاستشفاف و « تليبائي » . وذهب آخرون إلى أنه ليس إلا ضرباً من الحواس اللطيفة التي بلغ لطفها مبلغاً تعجز عن إدراك حواس الإنسان . وينكر آخرون ذلك كله إنكاراً باتاً . وأستطيع أنا أن أروي غير متحيز إلى فئة خبر هرتين عندي هما « سيم » و « سام » بينهما علاقة لا تنفصم من الأخوة والود ، وهما لا يختلفان أو يفترقان إلا في شيء واحد : فإن « سيم » يحب الخروج إلى الصيد . أما « سام » فيحب الكسل ، فيقضي الساعات قابعا في البيت . ولكن بعد الشقة بينهما حين يفترقان لا يمنع فيما يظهر أن يظل بينهما ضرب من التفاهم والاتصال . فقد يخرج « سيم » أحيانا يتصيد ، فيغيب نصف يوم ، وإذا بي أرى « سام » يهب من مضجعه على مكنتي يقظان فزعا ، ويرفع أذنيه متلهفا ويميل برأسه كالمنصت المصغى ، وما هو إلا أن يعدو نحو الباب ، فإذا فتحت له الباب انطلق كأنه سهم مقذوف إلى الحقول تارة وإلى الغابة تارة أخرى . ولو بدا لي أن أخرج في إثره لما خامرني ريب فيما سوف أجد . فهذا الصياد « سيم » قد ولي وجهه شطر البيت ومعه صيد صاده لساعته ، فعرف « سام » خبر صاحبه ، وإن كنت لا أدري كيف عرف . قد تقول إنه عجب لا يصدق ! نعم ربما كان كما تقول ! ولكن ما أكثر ما نجعل مما يدور في طوايا حواس الحيوان ونفوسها ، حتى لنرى أن أكثر العلماء علماً وتجربة لا يصرون بإصرار العنيد على إنكار اللغة الصامتة التي يتفاهم بها حيوان الغاب ، أيا كانت طبيعة تلك اللغة ، (١) .

ومن هذا النوع كذلك ما دونه الأستاذ أن ديشو عن الثعالب إذ يقول :
« وقفت مستترا ببعض الشجر أرقب ثلاثة من صغار الثعالب تلعب ، وأمن على باب الوجار تتبعهم البصر راضية مطمئنة ، فإذا بصغير من الثلاثة يعدو موغلا في المرج ، وكان أصغر من أن يباح له أن يخرج وحيدا يطوف في أرجاء هذا

(١) انظر مجلة المختار عدد أكتوبر سنة ١٩٤٧ ص ٤٨ .

العالم . فاستوت الأم قائمة ، وسددت أنفها إلى الناحية التي ذهب فيها ، وبقيت على هذه الهيئة ساكنة صامتة لا تتزحزح ، ولم يند عنها صوت يسمع ، ولكن لم ألبث قليلا حتى رأيت الصغير عائدا أدراجه ، فتلفت يمنة ويسرة ، ثم سدد بصره إلى أمه ، فلم تحول بصرها عنه ، وإذا بالصغير يسرع إلى وجاره كأنما كانت تجذبه بخيط لا تراه العين ، (١) .

— ٦ —

الاصوات عند الحيوان

يرجع أهم ما يلفظه الحيوان من الاصوات إلى ثلاث طوائف :

(الطائفة الأولى) أصوات فطرية الأصل يستخدمها الحيوان قاصدا بها التعبير عن بعض شئونه : كالجمجمة التي يرددها الفرس بشكل إرادي عند رؤية صاحبه للتعبير عن حاجته إلى العلف ، والمواء الذي يلجأ إليه الهر ائنيء به عن جوعه ، والنباح الذي يلفظه الكلب قاصدا به إيقاظ أهل المنزل وإرشادهم إلى أن شخصا يحوم حول البيت ... وهلم جرا .

وهذه الطائفة ليست في الواقع من اللغة الصوتية في شيء ، وأن اشبهتها في ظاهرها ووظيفتها . وذلك أنها أصوات مهمة عارية عن المقاطع والكلمات وغير متميزة العناصر . ومن أهم خصائص الكلام كما لا يخفى اشتماله على مقاطع وكلمات وتميز عناصره بعضها من بعض . هذا إلى أنها في الأصل أصوات فطرية تصحب الانفعالات ، وأن كل ما يعملها الحيوان حيالها في هذه الحالة أن يرددها هي نفسها بشكل إرادي للدلالة على الانفعالات نفسها التي تعبر عنها في شكلها الفطري أو للدلالة على أمور انفعالية قريبة منها (الجوع ، العطش ، الخوف ... الخ) . -

(١) انظر مجلة المختار عدد أكتوبر سنة ١٩٤٧ ص ٤٥ .

وأصوات هذا شأنها لا يصح عدّها كلاماً ؛ لأن أهم خصائص الكلام أنه أصوات موضوعة للدلالة وأنه يعبر به عن معان لا عن انفعالات (١) .

(الطائفة الثانية) أصوات متنوعة تلفظها القردة في اجتماعاتها بطريقة يتبادر منها إلى الذهن أنها وسائل تعبير إرادية ، وأن أفراد القردة تتجاذب بها الحديث بعضها مع بعض . — وتبدو هذه الظاهرة بشكل واضح في الفصائل العليا من القردة وبخاصة د الجيبون ، (٢) .

وهذه الطائفة كذلك ليست في الواقع من اللغة الصوتية في شيء وإن أشبهتها في ظاهرها ومناسبات استخدامها . فقد ظهر بالبحث فيها أن بعضها تعبير طبيعي عن الانفعال ، وبعضها مجرد ترديد إرادي لهذا التعبير (٣) وبعضها من ظواهر التداعي الآلي (٤) أو العدوى الصوتية (٥) أو تقليد الحيوان بطريقة فطرية

(١) يبدو كذلك هذا النوع من الأصوات عند الطفل الإنساني في شهوره الأولى . وقد يلجأ الكبار أنفسهم أحيانا لهذا النوع من التعبير فيضحكون مثلا متكلفين الضحك للتعبير عن السرور .

(٢) ولهذه الأمور وما شاكلها ذهب بعض العلماء إلى أن للقردة لغة تتألف من اثنتين وثلاثين كلمة . ويذهب الدكتور إيرثر جرينهول المدير العام لمخبر الحيوان في ديترويت إلى أن الحيوانات الوحيدة التي تصدر عنها أصوات تشبه اللغة هي الشمبانزي (انظر جريدة الاهرام في عددها الصادر يوم ٨/١٢/١٩٤٨) .

(٣) أي من الأصوات التي سبق ذكرها في الطائفة الأولى .

(٤) وذلك أن يرتبط الصوت بشيء آخر بطريقة تجعله يظهر بشكل غير إرادي كلما ظهر هذا الشيء . وسيأتي بيان ذلك بتفصيل في الطائفة الثالثة .

(٥) تبدو ظاهرة العدوى الصوتية عند كثير من أنواع الحيوانات ، وتبدو كذلك عند الأطفال إذا ضحكهم مكان واحد : يصوت الوليد منهم فيثير صوته أصوات الآخرين ، ويكفي أحدهم فيكفي لسكاته الباقون (انظر تفصيل هذا بكتابتني « في الفرية » الطبعة الثانية ص ٧٠ وتوابعا) .

غير إدارى لأصوات نفسه أو أصوات غيره (١) . — هذا إلى أنها ، على الرغم من تشابه أعضاء النطق عند فصائل القرود وأعضاء النطق الإنسانية ، أصوات مبهممة بسيطة عارية عن المقاطع والكلمات وغير متميزة العناصر . ومن أهم خصائص الكلام اشتراكه على مقاطع وكلمات وتميز عناصره بعضها عن بعض (٢) .

(الطائفة الثالثة) أصوات مركبة ذات مقاطع تلفظها بعض الطيور كالبيغاء وما إليها من الفصائل التي امتازت أعضاء صوتها بخصائص طبيعية يتيح لها إخراج هذا النوع .

وهذه الطائفة كذلك ليست في الواقع من اللغة الصوتية في شيء وإن أشبهتها في الظاهر . وذلك أن الطائر لا يقصد بهذه الأصوات التعبير . فهي تصدر عنه في ثلاث حالات كلها فطرية آلية عارية بتاتا عن هذا القصد :

(الحالة الأولى) حينما يكون الطائر متلبسا بانفعال جسمي أو نفسي . وهي في هذه الحالة من نوع التعبير الطبيعي عن الانفعالات : تصدر عن غير قصد ، ويثيرها بشكل آلي الانفعال المتلبس به الطائر . وإثارتهما مؤسسة على الروابط الطبيعية الفطرية التي تربط أعضاء الصوت بحالات الجسم والنفوس بطريقة تجعل هذه الأعضاء تتحرك وحدها بشكل آلي أو منعكس وتلفظ أصواتا مركبة ذات مقاطع

(١) سيأتى شرح هذا في الطائفة الثالثة .

(٢) انظر في هذا الموضوع بحوث الأستاذ Pfungst الذي درس أكثر من مائتي قرد في حديقة الحيوان ببرلين ، وبحوث Bouton الذي لاحظ في أثناء خمس سنوات نمو قرد من فصيلة الجيرون ، وبحوث كوهلر الذي كتب كثيرا في القرود وبخاصة القرود العليا التي ألف فيها كتابه الشهير « ذكاء القرود العليا » ، وانظر كذلك ما كتبه أستاذي العلامة دولا كروا بهذا الصدد في كتابه « اللغة والتفكير » ص ٧٧ وتوابها .

عند وجود حالة من الحالات الجسمية أو النفسية المرتبطة بها . فهي حينئذ من قبيل الضحك والبكاء وما إليها من مظاهر التعبير الطبيعي السمعى ، وكل ما هنالك أن التعبير الطبيعي السمعى يبدو عند الحيوانات الأخرى في صورة أصوات بسيطة مبهمه ، ويبدو عند هذه الطيور أحيانا في صورة أصوات مركبة ذات مقاطع .

(والحالة الثانية) حينما تكون محاكاة لصوت إنسان سمعه الطائر . وهي في هذه الحالة كذلك تصدر بشكل آلى عار عن قصد التعبير بل عن قصد المحاكاة نفسها .

وذلك أن هذه الفصائل مزودة بروابط طبيعية تربط جهاز سمعها بجهاز صوتها بطريقة تجعل أعضاء الجهاز التالى تتحرك أحيانا وحدها وتلفظ بشكل آلى الأصوات نفسها التى يحسها الجهاز الأول : فكما وصل صوت إلى سمعها فى ظروف خاصة انبعث صدها من أفواهها (١) .

(والحالة الثالثة) قد تسمع الببغاء أحيانا كلمات أو أصواتا فى مناسبة ما فتكررها كلما حدثت هذه المناسبة أو مناسبة أخرى تشبهها بطريقة يتبادر منها إلى الذهن أنها تقصد بها التعبير عن أمر معين : فقد تسمع مثلا أصحابها ينادون طفلا باسمه ، فتكرر هذا الاسم كلما رأت الطفل أو رأت دميته أو متاعا من أمتعته (٢) .

وهذه الأصوات كذلك ليست من اللغة فى شيء وإن التبتت بها فى بادىء النظر . وذلك أن الطائر لا يقصد بها ، فى الواقع ، التعبير عن أمر ما ، وإنما تصدر منه بشكل غير إرادى على الصورة التى تصدر فيها ظواهر « التداعى الآلى » .

(١) انظر تفصيل هذا الموضوع مؤلفى : « فى التربية » الطبعة الثانية صفحتى ٦٩ ، ٧٠ .

(٢) من أهم الملاحظات بهذا الصدد ما دونه الدكتور ولسكس عضو الجمعية الملكية

بصحيفة العلوم العقلية عدد بولية سنة ١٨٧٩ :

فمن كثرة تكرار الكلمة أمام الطائر بحضرة الشخص أو الشيء الذي تدل عليه ترتبط صوته بصورة مدلولها ، فينبعث الصوت من الطائر بشكل آلى كلما ظهر أمامه المدلول أو ما يتصل به (١) .

— ٧ —

نزعة الاسترقاق أو الاستعباد أو تسخير الغير

زود بهذه النزعة كثير من فصائل الحيوان والحشرات ؛ وتبدو أوضح ما يكون في بعض فصائل النمل ؛ وخاصة في فصيلة منها تسمى « الفورميكاروفيسنس » ، *Formica Rufescence* التي تستعبد فصيلة أخرى من النمل تسمى « الفورميكا فوسكا » ، *Formica Fusca* .

فكل قرية من قرى « الفورميكاروفيسنس » تنتظم طائفتين من النمل : إحداهما طائفة الأسياد وتتألف من فصيلة « الفورميكاروفيسنس » نفسها ؛ وثانيها طائفة الاتباع أو الرقيق أو العبيد وتنحدر من فصيلة « القوريكافوسكا » . وتختلف أفراد كلتا الفصيلتين عن أفراد الفصيلة الأخرى اختلافا غير يسير في لونها وحجمها وحركتها واستعدادها ومبلغ نشاطها وما تقوم به من أعمال وتؤديه من وظائف .

أما طائفة الأسياد (الفورميكاروفيسنس) فتتقسم ثلاثة أقسام : الإناث

(١) انظر في هذا الموضوع كتابي الأستاذ رومان : « الذكاء الحيواني » و « الارتقاء العقلي للإنسان » . — وانظر بحثا بهذا الصدد للمامة والسكس في المجلة الفلسفية لسنة ١٨٨٠ *Revue Philosophique* . — وانظر كذلك ما كتبه أستاذي دولا كروافي كتابه « اللغة والفكر » ص ٧٨ .

المنتجات ؛ والذكور ؛ والإناث العقيمات المقاتلات . ولكل قسم من هذه الأقسام الثلاثة عمل لا يتعداه . فعمل الإناث المنتجات مقصور على تلقى اللقاح ووضع البيض ؛ وعمل الذكور مقصور على تلقيح الإناث المنتجات ؛ وعمل الإناث العقيمات مقصور على الغزو والسلب . وذلك بأن تغير ، كلما دعت الحاجة إلى ذلك ، على قرية من قرى الفورميكا فوسكا ، (طائفة الرقيق) وتسلبها ما تعثر عليه في جنباتها من بيض وتحمله إلى أبحارها .

وأما طائفة الرقيق (الفورميكا فوسكا) فهي نتاج هذا البيض بعد أن ينفلق في قرى الأسياذ (الفورميكا روفيسنس) . ويصاب أفراد هذه الطائفة بالعقم إذا نشأت في قرى أسياذها ؛ مع أنها في قراها الأصلية تتوافر لها أسباب التناسل ، فتتنظم ذكورا مخصبة وإناث منتجات . ويقوم أفراد هذه الطائفة وحدها في قرى أسياذها بمختلف الأعمال الضرورية للقرى نفسها ولما تشتمل عليه من حشرات وبيض وديدان . فتقوم وحدها بحفر الأبحار وبناء الخلايا التي يوضع فيها البيض ، وحراسة القرية والذود عنها ، وتعهد ما تبيضه الإناث المنتجات ، وتربية ما ينقف من صغار ، وجلب الغذاء وادخاره ، وإطعام أسياذها الكبار بوضع القوت في أفواهها . وإذا دعت الحاجة إلى تغيير القرية لعدم صلاحيتها للسكنى على أثر حادث طبيعي أو مقصود ، فإن طائفة الرقيق هي التي تقوم وحدها بتصميم القرية الجديدة وتنظيم منازلها وحفر أبحارها ونقل أسياذها إليها ؛ فيحمل كل رقيق في خرطومه سيداً من أسياذه ويعدو به إلى القرية الجديدة ويضعه في موضع يشبه الموضع الذي كان به في القرية القديمة ، ويعود مرة ثانية ليحمل سيداً آخر .. وهكذا دواليك .

وقد لاحظ العلامة بيير هوبير P. Huber ، الذي يرجع له الفضل في الكشف عن هذه النزعة عند هذه الفصائل ، أنه لو تجردت قرية من قرى الفورميكا روفيسنس من رقيقها لغفت القرية وفنى جميع ما فيها في زمن وجيز . وثبت

لديه ذلك من تجربة أجراها على قرية من هذه القرى ، بأن انتزع منها جميع ما كان بها من رقيق . فعلى الرغم من أن هذه القرية كانت تشتمل على كمية كبيرة من القوت المدخر ، ومن أن وجود هذا القوت كان من شأنه أن يثير غريزة طلب الغذاء وخاصة في حالة اشتداد الجوع ، فإن طائفة الأسياد التي كانت بالقرية لم تستطع إطعام نفسها بنفسها ، فمات أكثرها جوعاً والقوت بين يديها . وعلى الرغم من أن القرية كانت تشتمل على كمية كبيرة من بيض النمل وديدانه الصغيرة ، ومن أن وجود هذا البيض وهذه الديدان من شأنه أن يثير عاطفة الأبوة لدى الكبار ، فإن هذه لم تقم نحو بيضها وديدانها بعمل ما حتى نفق معظمها وأشرف ما عدا ذلك على الهلاك .

وحينئذ يادر الأستاذ بيير هوبز بإدخال رقيق واحد من الطائفة التي كان قد انتزعها من القرية . فطفق هذا الرقيق من فوره يعمل على تنظيم القرية وإسعاف ما بقى فيها من أسياده على قيد الحياة ، فحمل القوت للكبار ، وأخذ يضعه في أفواهها ، وتعهّد البيض والديدان ، وحمل إليهما ما كان يعوزها ، وشرع في بناء الخلايا وإصلاح ما تهدم منها . وما هي إلا لحظات حتى دبّت الحياة في القرية ، وعاد كل شيء فيها سيرته الأولى بفضل هذا الرقيق (١) .

(١) انظر في هذه النزعة وما يتصل بها :

P. Huber : Mœurs des Fourmis 194—230.

Bühner : la Vie psychique des Bêtes 199—255.

Letourneau : L'Evolution de l'Esclavage 8—21.

Darwin, L'Origine des Espèces (trd. fr.) Paris 1921.

p. p. 290—295.

نزعة الخضوع للغير

وهي النزعة المقابلة للنزعة السابقة . وتتمثل في استعداد فطري يهيئ الحيوان للخضوع لغيره وخدمته وقضاء حاجياته . وقد تولد هذا الاستعداد ورسخت جذوره شيئاً فشيئاً مع تقدم الزمن حتى أصبح فطرياً عند معظم الحيوانات التي استأنسها الإنسان وسخرها في قضاء حاجاته ، وعلى الأخص عند فصيلة الكلب . وتتوافر كذلك هذه النزعة عند بعض الحيوانات غير المستأنسة وعند بعض فصائل الحشرات . وقد ظهر مما قلناه في النزعة السابقة (نزعة الاسترقاق) أن نزعة الخضوع للغير التي تتكلم عليها قد بلغت أقصى ما يمكن أن تصل إليه نزعة فطرية في دقتها وحسن أدائها لوظيفتها عند فصيلة النمل المسماة « الفورميكا فوسكا » التي تستعبد لها فصيلة « الفورميكا روفيسانس » .

نزعة إيواء الغير وإضافته

تتفق هذه النزعة مع النزعة الثانية (نزعة الاسترقاق) في أن كليهما تقتضى أن تنتقل فصيلة حيوانية إلى حيث تقيم فصيلة أخرى أجنبية عنها فتستقر لديها وتقاسمها في صورة ما شئون حياتها . وتختلفان في أن أولاهما تجعل من أفراد الفصيلة الدخيلة عبيداً تسخر في قضاء حاجات الفصيلة الأصلية ؛ على حين أن الأخرى تجعل من أفراد الفصيلة الدخيلة ضيوفاً ونزلاء . تكرم الفصيلة الأصلية وفادتها وتقدم لها ما تحتاج إليه ، وتؤثرها أحياناً على نفسها .

وقد زود بهذه التزعة عدة طوائف من الحشرات ، وخاصة بعض طوائف من النمل والنحل والبعوض .

فقد لاحظ العلامة وازمان Wasmann أن بعض طوائف النمل تأوى لديها بعض حشرات طفيلية لا تمت بصلة إلى فصائل النمل على الإطلاق ، فيقدم إليها النمل جميع ما تحتاج إليه في غذائها ومقومات حياتها ، وأن بعض هذه الحشرات لا يقنع بما يقدمه لها كبار النمل من غذاء ، بل يسطو على صغاره ويفترسها ، فلا تكاد تحل في قرية حتى ينقرض أهلها ويشيع فيها الخراب والدمار .

ولاحظ العلامة پير هوبير P. Huber أن بعض طوائف البعوض Puceron تجذب إليها أصنافا من النمل الطفيلي وتفرز له من جسمها سائلا يتغذى به . فيحيط بكل بعوضة منها نملة أو نملات تخزن البعوضة بإبر خراطيمها فتفرز لها سائلا سكريا تعتمد عليه في غذائها ، وأن هذا البعوض لا يفرز سائله هذا إلا لهذه الفصائل بالذات . وثبت لديه ذلك من تجربة أجراها على هذا البعوض . فقد عمد إلى نحو اثنتي عشرة بعوضة منه وأبعد عنها ما كان يحيط بها من النمل ، وعمل على ألا تدنو منها نملة ما طوال مدة التجربة التي استغرقت عدة ساعات . فانقطع إفراز البعوض انقطاعا تاما بعد إبعاد النمل عنه . وعبثا حاول هوبير أن يثير إفرازها بوسيلة صناعية إذ استخدم شعرة دقيقة وأخذ يداعب بها بطونها على نحو ما يفعله معها النمل مستعينا بمجهر مكبر ، فإن البعوض لم يستجب لوسيلته هذه وظل منقطعا عن الإفراز عدة ساعات . وحينئذ أطلق عليه نملة واحدة من النمل الذي كان قد انتزعه من حوله ، فطفقت هذه النملة تخزن البعوض بإبرتها ، وما هي إلا لحظة يسيرة حتى أخذ البعوض يفرز سائله السكري ، وأخذت النملة الجائعة تمتص هذا السائل بنهم شديد (١) .

ولاحظ الأستاذ ريموند دتمارز أن يرقات الخنافس المعروفة بالحرقة لا تلبث

أن تنقف عن بيضها الموضوع بين أوراق الأغصان حتى تعتمد إلى جذع شجرة وتنسلقه إلى أن تبلغ زهرتها ، وتظل تترقب مقدم النحل إلى هذه الزهرة ، حتى إذا جاء النحل ركبت ظهرها ، فتحملها النحل إلى خلاياها وتؤويها في مساكنها ، فتظل هناك في رعايتها وضيافتها تتغذى ببيضها حتى تنسلخ من إهاب اليرقة الأولى ، ثم تبقى لتتغذى بعسل النحل حتى تلقى صدفاتها ، ثم تخرج ساعية إلى رزقها ، وهي حينئذ خنفساء قد بلغت أشدها (١) .

— ١٠ —

نزعة التطفل والاعتماد على الغير

وهذه النزعة تقابل النزعة السابقة (نزعة إيواء الغير وإضافته) ، وتعتمد في الغالب عند الطوائف المزودة بها على وجود النزعة السابقة عند طوائف أخرى . وقد زود بنزعة التطفل هذه عدة طوائف من الحشرات ، وخاصة الطوائف الثلاث المتقدم ذكرها في النزعة السابقة .

وزود بها كذلك بعض طوائف من الطيور التي تضع بيضها في أعشاش غيرها وتحرر بذلك من عبء حضائته وتربية صغاره (٢) .

ومن أشهر هذه الطيور ما يسميه الفرنسيون الكوكو الأوربي Coucou (نوع من الكروان) . فهذا الطائر لا يبني لنفسه عشا ، ولا يحاول أن يحضن بيضه ، وإنما تعتمد أنثاه إلى عش طائر آخر فتبيض فيه بيضة وإلى عش آخر فتضع فيه بيضة أخرى ، وهكذا حتى تفرغ ما في عنقودها في بضعة أيام . وبذلك تتحرر من تكاليف حضانة بيضها وتربية صغارها وتلقى بعبء ذلك كله على كاهل الطيور التي باضت في أعشاشها على غير علم منها (فهذه الطيور ليست

(١) مجلة المختار عدد ديسمبر سنة ١٩٤٦ . ملخصا عن مجلة التاريخ الطبيعي الأمريكية .

(٢) انظر أمثلة لذلك في Darwin, op. cit. 285—290

مزوده بنزعة إيواء الغير المتقدم ذكرها ، بل تقدم على ذلك على جهل منها بان ما تؤويه غريب عنها ، وتؤدى له ما تؤديه من حضانة وتغذية ورعاية على أنه من أفرأخها هي) . — ولهذه النزعة الغريبة عند هذا الطائر وظائف حيوية هامة : فمن ذلك أنها تمكن أنثى الكوكو من مغادرة الإقليم الذى باضت فيه كلما دعته إلى ذلك حالة الجو ومقتضيات حياتها وغذائها وغريزة المهاجرة المزودة بها . ولو أنها كانت تحضن بيضها وتقوم بتربية صغارها بنفسها لعاقبها ذلك أحيانا عن هجرتها ، وخاصة لأنها تضع بيضها في أيام متفرقة ، وهذا يطيل من مدة الحضانة والتربية ويضطرها إلى أن تبقى حيث هي أمدا طويلا . ومن ذلك أيضا أن هذه النزعة تتيح لكل فرخ من أفرأخها غذاء كافيا ، إذ يستأثر بجميع الأغذية التى يجلبها الطائر الذى أضافه في عشه على جهل منه . وذلك أنه لا يلبث أن ينقف عن بيضته حتى تبدو لديه نزعة غريبة للتخلص من أفرأخ الطائر الأصيل وإجلائها عن العش ، فيدفعها بظهره دفعا عنيفا حتى يقذف بها إلى الأرض حيث تموت جوعا ، ويستبد هو بالعش ، وتخلص لغذائه ورعايته هو وحده جميع جهود الطائر الكبير . ولو قامت الأم نفسها بتربية أفرأخها هذه ما أتيح لها هذا القدر من الغذاء ، ولقضى بعضها على بعض لنزعة التدافع المزودة بها من جهة ولا اختلافها من جهة أخرى بعضها عن بعض في الحجم وفي القوة تبعا لاختلافها في السن ، لأن بيضها لا يوضع في يوم واحد ، بل في عدة أيام كما تقدم ذلك (١) .

النزعة الجنسية

وتتمثل في ميل فطري يدفع ذكور الحيوانات وإناثها في فصول معينة ن

السنة أو تحت تأثير حالات جسمية ونفسية خاصة إلى التضايف في صورة ما على القيام بعمليات التلقيح والإخصاب وما يتصل بها من أمور تكفل تناسل النوع وتجدهد وبقائه .

وتختلف الوسائل الفطرية التي تلجأ إليها فصائل الحيوانات في هذا السبيل اختلافا كبيرا ، ولكنها ترجع جميعا إلى طريقتين : طريقة التلقيح داخل الجسم ، وطريقة التلقيح خارجه .

(١) فعند جميع الحيوانات العليا والطيور وكثير من الحشرات تتم عملية التلقيح داخل الجسم . ويكون ذلك باستخدام أعضاء خاصة على النحو المتبع عند الإنسان . — وعند بعض فصائل الحشرات وغيرها تتم عملية التلقيح داخل الجسم كذلك ، ولكن باستخدام أعضاء غير خاصة بهذه الوظيفة . ففي فصيلة الغناكب مثلا يستخدم الذكر أطرافه الأمامية في إيصال السائل المنوي إلى داخل جسم الأنثى مع احتفاظه بهذه الأطراف . وفي فصيلة الأخطبوط يستخدم الذكر أحد أطرافه الأمامية كذلك ، ولكن هذا الطرف ينفصل عن جسمه ويبقى بجسم الأنثى . وقد تتم عملية التلقيح داخل الجسم كذلك ، ولكن بدون اتصال الذكر بالأنثى اتصالا مباشرا . ففي بعض الأصداف يلقى الذكر بالسائل المنوي في الماء فتحمله التيارات المائية إلى داخل جسم الأنثى .

(ب) وعند كثير من الحيوانات المائية الدنيا يتم التلقيح خارج الجسم . ففي كثير من فصائل الأصداف يلقى الذكر سائله المنوي والأنثى بويضاتها في الماء فإذا اتفق مرور تيار مائي يحمل سائل الذكر إلى بويضات الأنثى تم التلقيح . وفي الأسماك تتخذ كل من الذكور والإناث احتياطات فطرية لضمان التلقيح خارج الجسم . فتغوص الأنثى إلى قاع المجرى وتحفر فيه حفرة تضع فيها بيضها وتدفع الذكور وراءها بغريزتها متقاتلة متنافسة ، فإذا فرغت الأنثى من عملها تدافعت الذكور نحو الحفرة لتصب سائلها المنوي على ما تحتويه من بيض . وتبالغ الأصداف كذلك بفطرتها فيما تتخذه من حيلة في هذا السبيل . ففي موسم

اللحاح تنتقل الأنثى من مخبئها الشتوى إلى البرك ، فإذا لقيها ذكر اف أطرافه الامامية حولها وقبض عليها قبضا عنيقا ، وظل قابضا عليها حتى تلقى بيضها فى الماء فيصب عليه سائله المنوى ؛ وقد يظل قابضا عليها لهذه الغاية أياما بل أسابيع . ويلاحظ أن أطرافه الامامية تنمو فى هذا الفصل فى صورة تزيدها قوة وتمكنها من أداء هذه الوظيفة على أكمل وجه .

— ١٢ —

نزعة تعهد البيض وحضاته

زود بهذه النزعة الفطرية كثير من فصائل الطيور والحيوانات والحشرات والزواحف . غير أن هذه الفصائل يختلف بعضها عن بعض اختلافا غير يسير فى المناهج التى تسلكها فى هذا التعهد وفى هذه الحضانة .

ففى بعض الفصائل تبدو هذه النزعة لدى الإناث وحدها ؛ فتقوم هى دون الذكور بجميع أعباء الحضانة ، كما هو متبع عند فصائل الدجاج المستأنس . ويسير على هذا المنهج من غير الطيور فصائل أخرى كثيرة من أغربها فى هذا الصدد العنكبوت وقنفذ النمل . أما العنكبوت فتحمل بيضها فى حقيبة من خيوطها تنسجها بنفسها ، فإذا دنا انفلاق البيض عن صفارها مزقت الأم هذه الحقيبة ، فينبعث منها الصفار . وأما قنفذ النمل الذى يعيش فى أستراليا فهو حيوان من ذوات الأربع له شوك كأشواك الشيمم ولسان كلسان آكل النمل ومنقار كمنقار البط . وتضع أنثاه بيضة أو بيضتين عليهما غشاء كالجلد الرقيق وتحملهما فى جرابها ، فإذا انفلقت البيضة عن الجنين الصغير المبهم الشكل الأمرط الذى لا شعر عليه أَرْضَعته من لبنها (١) . — ومن أهم الزواحف التى تحضن أنثاها بيضها التين

(١) ريموند ديمارز . انظر مجلة المختار عدد ديسمبر سنة ١٩٤٦ صفحتى ٥٠ ، ٥١

(ملخصا عن مجلة التاريخ الطبيعى الأمريكية) .

البري أو البيثون Python ، وهو تنين غير سام يصل طوله أحيانا إلى نحو ثمانية أمتار . — وفي بعض فصائل السمك تختزن الإناث بيضها في أفواهها حتى ينفلق عنها الصغار (١) . — وفي كثير من الفصائل التي تسير على هذه الطريقة يقوم الذكر في أثناء حضانة الأم للبيض بحراسة العش أو بتغذية الأنثى أو بأمور أخرى من هذا القبيل . ومن طريف الأمثلة لهذا النوع ما تسير عليه طيور الفصيلة المسماة « بوقير » . فأنثى هذا الطائر تلتصق بوضع بيضها بقرة في جذع شجرة ، ويأتي الذكر بعد أن تستقر أنثاه في هذه النقرة وتأخذ في وضع بيضها فيها فيطوى جوانبها بالطين حتى لا يدع من فم النقرة إلا كوة ضيقة تتسع لإخراج عنق الحبيسة حتى يجلب إليها مؤنثها وطعامها في أثناء حضانتها لبيضها (٢) .

وفي بعض الفصائل تبدو هذه النزعة لدى الذكور وحدها كما هو متبع لدى فصيلة النعام . إذا تجتمع طائفة من إناثه في مكان وتبيض كل منها بيضة فيه ، ثم تنتقل إلى مكان آخر وتبيض فيه مجتمعة كذلك ، وهكذا تفرغ ما في عناقها من بيض ، ثم تأتي الذكور فتوزع على هذه المواضع وتقوم بحضانة ما فيها من بيض . وكذلك تفعل أنثى الحجل في غانه الأمريكية ، إذ تلقى بيضها ثم تطير عنه وتدعه للذكر يتولى حضانته نحو ستة وخمسين يوما ، ثم تعود إلى ذكرها وهو قائم على تعهد صغاره التي لا يكون نموها قد اكتمل بعد فتلقى إياه بيضا آخر ، وتضطره بذلك إلى أن يوزع جهوده بين حضانة البيض الجديد ورعاية الصغار (٣) . وفي بعض فصائل الأسماك تضع الأنثى بيضها ثم تنقله إلى جراب في بطن الذكر ، فيظل في حضانة الذكر على هذه الصورة حتى يفقس (٤) .

وفي معظم أنواع الطيور تبدو هذه النزعة عند الذكور والإناث معا ، فيقوم

(١) المرجع السابق ص ٥١

(٢) المرجع السابق ص ٥٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٥٠ .

(٤) المرجع السابق ص ٥٠ .

الذكر بحضانة البيض في بعض ساعات من اليوم ، وتقوم الانثى بحضاته فيما عدا ذلك . وذلك هو المتبع لدى كثير من طوائف الحمام والعصافير . والغالب أن تحضن الانثى بيضها في جميع ساعات الليل ويقوم الذكر بحراسة العش في أثناء حضانتها هذه ، ثم يتقاسمان الحضانة فيما بينهما في ساعات النهار .

وفي بعض الأنواع تتعاون أفراد الفصيلة جميعا على حفظ البيض ورعايته وحضاته ، وفي بعضها يقع هذا العبء ، على كاهل فريق معين منها يتعاون أفرادها فيما بينهم على القيام به ، كما هو الشأن في ممالك النحل والنمل . ومن أغرب الطرق التي يتم فيها هذا التعاون بين أفراد الفصيلة ما يسير عليه في هذا الصدد طائر البطريق الذي يعيش في المنطقة المتجمدة الجنوبية . فلما كانت هذه المنطقة خالية من كل ما يصلح لبناء عش ، فإن أنثى هذا الطائر ، التي تضع عادة بيضة واحدة ، تحمل بيضتها في إحدى قائمتيها وتطوى عليها قبضتها ، فتتمتع بذلك البيضة من أن تتجمد . فإذا خرجت تلتمس قوتها واقتضاها ذلك أن تبسط قبضتها وتضع البيضة ، فإن آداب طيور البطريق تفرض على أحدها أن يأخذ هذه البيضة ويتعهد بها ، إلى أن يضطر هو بدوره إلى الخروج في طلب الرزق فيسلمها لآخر ، وهكذا نرى بعض طيور البطريق أمانة متداولة بينهم جميعا ذكورا وإناثا (١) .

هذا وقد جرد من هذه النزعة فصائل من الحيوانات منها فصيلة الحيوانات التي تعيش في البر والبحر معا كالأضفاد والملاجم والسمنندل ؛ فهذه الفصيلة تضع إناثها عددا كبيرا من البيض ، ولكنها تهمله إهمالا فلا ينفلق منه إلا القليل (٢) .

(١) المرجع السابق ص ٥٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٥١ .

نزعة التفريخ الصناعي

تعتمد بعض الطيور والزواحف والأسماك إلى طرق صناعية تغنيها من حضانة بيضها وتوفر لها الدفء والحرارة وتكفل تفريخه .

ومن أشهر الطيور المزودة بهذه النزعة ما يسميه الفرنجة بالتاليجال Talégalle وهو طائر يقطن استراليا وغينيا الجديدة ، ويشبه ما نسميه بالديك الرومي . وذلك أن أنثى هذا الطائر تقيم عشها في مساحة واسعة وتجمع فيه كمية كبيرة من أوراق الشجر والعيدان والأعشاب اليابسة ، وتضع هذه الأضغاث بعضها فوق بعض ، فلا يحين موعد بيضها حتى يبلغ حجم عشها عدة أمتار مكعبة . وفي وسط هذه الكومة تضع بيضها تاركة للعوامل الطبيعية شأن تفريخه ، ولذا كر وحده أمر العناية بما يتقف عنه من أفراخ . فيتولد من تعرض هذه المواد لأشعة الشمس درجة حرارة تحيط بالبيض وتكفل فقسه .

وكذلك يفعل التماسح الأمريكى إذ يتخذ من القش والأعواد وكرا كبيرا يضع فيه بيضه ويتركه حتى ينفلق عن صفاره بعد نحو شهرين من جلاء الحرارة التي يولدها تحلل هذه الأعواد (١) .

نزعة تعهد الصغار وتربيتها والقيام على شئونها

تختلف أعباء هذه النزعة تبعا للحالة التي يكون عليها الصغار عقب ولادتها أو عقب خروجها من بيضها ، فتشتد أعباؤها وتكثر تكاليفها كلما كانت

(١) المرجع السابق ص ٥١ .

الصغار حينئذ ضعيفة أو عاجزة عن الحركة أو غير مكتملة الحواس أو الأعضاء أو الأجهزة ، أو غير قادرة على البحث عن غذائها أو على تناوله بنفسها ، أو لا تقوى أجهزتها على تناول الغذاء العادى لفصيلتها بل تحتاج إلى غذاء خاص أو إلى ألبان أمهاتها أو إلى طعام مهضوم فى جوف كبارها ... وهلم جرا . وتخف أعباؤها وتقل تمكاليها إذا نشأت الصغار قوية قادرة على الحركة مكتملة الحواس والأجهزة قادرة على البحث عن غذائها وتناوله بنفسها ؛ فتستحيل النزعة فى هذه الحالة إلى مجرد تعهد ورعاية كما هو الشأن فى صغار الدجاج والبط والإوز .

وتختلف مدتها كذلك باختلاف أمد الطفولة والفترة التى تظل الصغار فى أثنائها غير قادرة على القيام بنفسها بما تحتاج إليه . فقد تصل إلى عدة سنين كما هو الشأن فى فصيلة الفيلة التى لا ينقطع صغارها إلا بعد السنة الثالثة أو الرابعة ولا تستغنى عن رعاية الكبار لها إلا بعد عدة سنين أخرى . وقد لا تتجاوز هذه المدة بضعة أسابيع أو أيام كما هو الشأن فى صغار الحمام والدجاج والوبر (١) .

وترجع أهم أعبائها إلى إطعام الصغار أو إرضاعها أو جلب الغذاء لها أو مساعدتها على البحث عنه ، وإلى تدفيتها ، وتنظيفها ، وحمايتها من الاعتداء ، ومساعدتها على التحرك والانتقال أو حملها فى أثناء انتقال الكبار كما هو الشأن فى كثير من الفصائل الحيوانية والطيور وخاصة لدى القرود والحيوانات ذوات الجراب والخفافيش . فى فصيلة القرود تنتقل الأم وصغيرها متشبث بظهرها أو بطنها أو رقبته . والحيوانات ذوات الجراب كالقنغر والابسوم الأمريكى تحمل صغارها فى جرابها وتنقل بها . فأنثى القنغر Kangourou تظل حاملة صغارها فى جرابها مدة طويلة لإعفائها من الحركة من جهة ولحمايتها من جهة أخرى . ولذلك لا يلبث صغيرها أن يحس أى خطر حتى يقفز مندفعاً كالسهم إلى جراب

(١) يسكون الباء ، وهو حيوان كالأرنب الهندى لا يمضى أسبوع على ولادته حتى يبلغ ربع أمه فى الجسم ويكاد يستغنى عنها (المرجع السابق ص ٤٨) .

أمه (١) . وأما الأبسوم الأمريكى فتضع أنثاه فى البطن الواحدة اثنى عشر صغيراً لا يتجاوز حجمها جميعاً تجويف ملقعة . وتظل حاملة لها فى جرابها حتى تقوى على الحركة وتستغنى عن حماية أمها (٢) . وأنثى الخفاش (وهى من ذوات الشدى القادر على الطيران) من أشد الحيوانات رعاية لصغارها . ولذلك تضم أجنحتها على فلذات أكبادها عند أقل ما يروعها ، وكثيراً ما تحملها وتطير بها ليلاً فى مسابحها . وقد ترى الواحدة منها محلقة فى الجو ، وقد تعلق بها أربعة من صغارها يبلغ مجموع وزنها ما يقرب من وزن الأم نفسها (٣) . وبعض أنواع الخفافيش لا تلد أنثاهما أكثر من ولد واحد . ومن ذلك ما يسمى مصاص الدماء الذى يعيش فى خط الاستواء والوطاويط الضخمة التى تقطن أمريكا الجنوبية . وفى هذه الأنواع كثيراً ما يرى الوليد متعلقاً بصدر أمه حين يكون صغيراً . فإذا كبر رأيت متعلقاً بجنبها قريباً من جناحيها لكي يحمىاه عند الخافة . (٤)

وقد زود بهذه النزعة الأم وحدها فى بعض طوائف الحيوانات كالأنعام المستأنسة والقطط والكلاب ، والآب وحده فى طوائف أخرى كالنعام والحجل والتاليجال ، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك فى النزعتين السابقتين (٥) ، والآب والأم معاً فى كثير من الفصائل كالأسد والعصافير والحمام ، وغير الآب والأم فى بعض فصائل الحشرات ، كما هو الشأن فى فصائل النحل والنمل . وفى فصائل النحل مثلاً تقوم عقيبات الإناث (طوائف العاملات) وحدها بتربية الصغار مدفوعة إلى ذلك بنزعة فطرية ؛ بينما لا تقوم الأم نفسها (اليعسوب) بشيء ما حيال صغارها ؛ وأما الآباء التى تتألف من ذكور النحل المخصبة فتقتلها عقيبات الإناث بمجرد

Larousse du XX^{em} Siècle (Kangourou). (١)

(٢) ريموند دمارز ، المرجع السابق ص ٤٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٩ .

(٤) المرجع السابق ص ٤٩ .

(٥) انظر صفحات ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٠ .

أن يتم تلقيحها لليعسوب . وقد رأينا أنه في بعض قرى النمل يقوم الرقيق ،
الذى تتألف من نمل عقيم ينحدر من فصيلة أخرى تختلف عن الفصيلة التى يخدمها
بترية صفار أسيادها وتوفير ما تحتاج إليه مدفوعة إلى ذلك بفطرتها ، بينما لا يقوم
الآباء ولا الأمهات بشئ ما حيال صفارها ، بل لا تقوم بشئ ما حيال
أنفسها (١) .

هذا ، ولأهمية هذه النزعة وتوقف بقاء الأنواع عليها لا تكاد تخلو منها فصيلة
من فصائل الحيوان .

نزعة ادخار الأغذية لحاجة الصغار أو الكبار أو لكليهما معا

تبدو هذه النزعة عند بعض فصائل الذئاب والثعالب والسنانير إذ تدخر
ما يزيد عن حاجتها من اللحوم في نفرة تحفرها وتغطيها بالتراب ؛ وعند فصيلة
السنجاب التى تحفر فى الأشجار ثقبوا تدخر فيها مدة فصل الصيف ما يعوزها
الحصول عليه من غذائها فى فصل الشتاء من الفواكه والحبوب ؛ وعند طوائف
البجع التى تدخر بقربتها التى تتصل بالشق الأسفل من منقارها ما يفيض عن حاجتها
الراهنه مما تصيده من السمك وما عسى أن تحتاج إليه فى المستقبل لغذائها وغذاء
أفراخها .

ولكن أهم مظاهر هذه النزعة وأدقها وأشدّها طرافة تبدو عند طوائف
الحشرات وخاصة عند النمل ونحل العسل والإكسيلوكوب والسفكس .

أما النمل فقد أصبحت هذه النزعة لديه مضرب الأمثال . فهو لا ينفك

دائبا في طلب الرزق ، وتتجه معظم جهوده إلى الادخار . فيجمع في أبحاره في بعض الفصول الخصبه من السنة ما عسى أن تحتاج إليه كبارها وصغارها من الغذاء في الفصول المجده أو التي لا يقوى في أثناءها على بذل مجهود كبير .

وأما النحل فتقوم إنائه العقيبات (طوائف العاملات) ببناء أقراص عجيبه من الشمع وتخزن فيها من العسل في الفصول التي تغزر فيها الأزهار ما تحتاج إليه الخلية لغذاء كبارها وصغارها في الفصول الأخرى .

وأما الإكسيلوكوب Xylocope (وهي فصيلة من النحل تعيش فرادى لاجتماعات) فتبدو هذه النزعة عند إنائها . حينما تشعر الأثى بدنو وضع البيض تعتمد إلى خشبة يابسة فتحفر فيها ثقباً مستعرضاً واسعاً وتدخر في جزء منه كمية من الأزهار التي يتألف منها غذاء صغارها ، وتضع على الأزهار بيضة ، ثم تصب على الدقيق الذي أخرجته من الخشبة في أثناء ثقبها لها كمية من سائل تفرزه وتخلط الدقيق بهذا السائل فيتألف منهما عجينة تبني بها كرة رقيقة جوفاء تحيط بالبيضة وبما تحتها من الأزهار ، وتكرر أعمالها هذه مع كل بيضة من بيضاتها الثلاث ؛ ثم تغادر الثقب لا تلوى على شئ مما فيها ، ولا تعيش بعد ذلك إلا لحظات . فإذا خرج صغارها من بيضها وجد كل منها في كراته كمية من الأزهار الصالحة لغذائه ، فيعيش عليها حتى يبلغ أشده ، ويثقب الكرة المحيطة به ، وينسل منها إلى حيث يكدرح في سبيل الحياة (١) .

وأما فصيلة السفكس sphex (وهو نوع من الزنابير يتغذى كبارها بالنبات وصغارها بلحوم بعض الحشرات الحية الطازجة) فقد بلغت هذه النزعة لدى إنائها شأواً كبيراً في دقتها وما تقتضيه من حذق ومهارة . حينما تشعر أثنى السفكس بدنو موعد بيضها تحفر في الأرض الرملية شقاً ، ثم تقيم على جوانبه عدة غرف ،

(١) يرجع الفضل في الكشف عن أعمال هذه الحشرات وتوضيحها إلى العلامة ميلن

وتضع بيضة في كل غرفة منها ، ثم تصيد حشرة من الحشرات التي تتغذى بها صفار فصيلتها وتضعها في غرفة من هذه الغرف ، ثم تجرى عليها عملية جراحية دقيقة تشل بها حركتها حتى لا تستطيع مغادرة الغرفة التي وضعت فيها بدون أن تميتها حتى لا تتعفن فتصبح غير صالحة لغذاء صفارها ، وذلك بأن تخز الحشرة بإبرتها تسع وخزات متواليات في مرا كزها العصبية وتدق رأسها دقا خفيفاً بين فكها . وقد ثبت بالتجارب أن أقل من تسع وخزات لا يكفي لشل الحشرة ومنعها من الفرار وأن أكثر منها يقضى على حياتها ، و ثبت أن كذلك أن وخزها في غير الموطن التي تخزها فيها لا يحقق الغرض المقصود . وتكرر أعمالها هذه في جميع الغرف التي أقامت على جانب الشق . فحينما ينقف صفارها عن بيضها يجد كل منها في غرفته حشرة حية طازجة صالحة لغذائه فيعيش عليها حتى يبلغ أشدة ويغادر شقه . ويرجع الفضل إلى العلامة هنري فابر H. Fabre في الكشف عن هذه النزعة عند السفكس وتفصيل أعمالها (١) .

وقد أتيت لي أن ألاحظ بنفسى أعمال نوع من هذه الحشرات في مصر . ففي يوم ٢٧/٨/٨ رأيت واحدة منها تحوم حول ثقب من الثقوب التي تسوى في أعلى الحوائط لتجميع أسلاك الكهرباء ، وبالتأمل في هذا الثقب لمحت فيه خلايا من طين . فصعدت على سلم ونزعت هذه الخلايا ، فإذا بها تتألف من غرفتين إحداهما مسدودة بالطين والأخرى لم تسد بعد . فأزلت سداد أولاهما بدبوس صغير . فوجدت بها نحو عشر حشرات صغيرة ومتوسطة معظمها من فصيلة الغناكب ، ووجدت جميع هذه الحشرات حية ولكن لا تستطيع الحركة .

Henri Fabre : Souvenirs entomologiques; Roustat: (١)

Psychologie, p. 481 : Darwin, op. cit. 290.

ووجدت بينها دودة صغيرة ظهر لى من اختبارها أنها قادرة على الحركة ومن شكل جسمها أنها من صفار الزناير لا العناكب . ثم أفرغت مافى الغرفة الثانية فإذا به يتألف من حشرات يقل عددها عن حشرات الغرفة الأولى (لأن هذه الغرفة لم تكن قد ملئت بعد) ، ووجدت بينها بيضة طويلة صفراء . — ومن هذا يظهر أن النوع الذى لاحظته هبنى فابر ، يختلف قليلا فى أعماله عن النوع الذى لاحظته .

* * *

وإن تأملا فى هذه النزعات الغريبة وماشاكلها ليفسر لنا بعض ما أشار إليه القرآن الكريم فى عبارة موجزة بليغة إذ يقول : « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ^(١) » ، وإذ يقول : « ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ^(٢) » ؛ صدق الله العظيم .

(١) آية ٣٨ من سورة الأنعام .

(٢) وردت هذه العبارة على لسان موسى فى أثناء حوارهِ مو وأخيه هرون مع فرعون : « قال فن ربكما يا موسى ؟ قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » (آبق ٤٩ ؛ ٥٠ من سورة طه) .

أهم مراجع الخاتمة

- 1 — Bühner : La Vie Psychique des Bêtes.
- 2 — Darwin : L'Origine des Espèce.
- 3 — Delacroix : Le Langage et la Pensée.
- 4 — Dumas et Collaborateurs : Traité de Psychologie.
- 5 — Espinas : Des Sociétés animales.
- 6 Fabre (Henri) : Souvenirs entomologiques.
- 7 — Huber (P.) : Mœurs des Fourmis.
- 8 — Köhler. : L'Intelligence des Singes Supérieurs.
- 9 — Larousse du XXe siècle.
- 10 — Letourneau : L'Evolution de l'Esclavage.
- 11 — Lubbock : Ants, Bees, and Wasps.
- 12 — Ribot : l'Evolution des Idées Générales.
- 13 — Romanes : Animal Intelligence.
- 14 — Roustant : Psychologie.
- 15 — مجلة المختار عدد ديسمبر سنة ١٩٤٦ (فصل عنوانه ولادة الحيوان وأولاده ،
مختصر من مجلة « التاريخ الطبيعي » للأستاذ ريموند دتمارز .
- 16 — على عبد الواحد وافي : نشأة اللغة عند الإنسان والطفل
- 17 — على عبد الواحد وافي : اللغة والمجتمع
- 18 — على عبد الواحد وافي : الوراثية والبيئة
- 19 — على عبد الواحد وافي : المنود الحر

[illegible]

فهرس

الموضوع	الصفحة
الباب الخامس : من غرائب الانحراف في الغرائز تحت تأثير النظم والتقاليد والعادات الفصل الأول : أكل لحوم البشر (الانحراف في غريزة الغذاء)	٣ - ٤٨ ٥ - ١٧
١ - مدى انتشار هذه العادة واختلاف مظاهرها وطرائقها باختلاف الشعوب	٥ - ٧
٢ - أسباب هذه العادة وما ترمى إليه	٧ - ١٤
٣ - أكل لحوم البشر لا يستلزم التوحش ولا قسوة الطبع - إشراف هذه العادة على الانقراض	١٥ - ١٧
أهم مراجع هذا الفصل	١٧
الفصل الثاني : انحراف الغريزة الجنسية	١٨ - ٣٩
١ - اختلاف مظاهر هذا الانحراف	١٨
٢ - الانحراف الجنسي حيث تقره نظم الشعب وأخلاقه وعاداته	١٩ - ٢٤
٣ - الانحراف الجنسي حيث تحتمله عادات الشعب وإن حاربه القوانين ونظم الأخلاق	٢٤ - ٢٨

الموضوع	الصفحة
٤ — الانحراف الجنسي حيث لا تفره العادات السائدة ولا القوانين ولا العرف الخلقى	٢٨ — ٣٦
٥ — عوامل الانحراف الجنسي	٣٦ — ٣٩
أهم مراجع هذا الفصل	٣٩
الفصل الثالث : الانتحار الذى توجبه العادات والتقاليد على طريقه ، الهارا كيرى ، وما إليها	٤٠ — ٤٨
١ — مظاهر هذا النوع من الانتحار فى اليابان طريقة (الهارا كيرى)	٤٠ ، ٤١
٢ — مظاهر هذا النوع من الانتحار فى الصين	٤١ ، ٤٢
٣ — مظاهر هذا النوع من الانتحار عند الهنود	٤٣ — ٤٥
٤ — مظاهر هذا النوع من الانتحار عند اليهود	٤٥ ، ٤٦
٥ — مظاهر هذا النوع من الانتحار عند قدامى اليونان والرومان	٤٦ ، ٤٧
٦ — مظاهر هذا النوع من الانتحار عند قدامى رجال الكنيسة المسيحية	٤٧ ، ٤٨
أهم مراجع هذا الفصل	٤٨
الباب السادس : من غرائب التقاليد والعادات	٤٩ — ٨١
الفصل الأول : بعض مظاهر غريبة لمهارة البدائيين	٥١ — ٧٦
١ — مظاهر غريبة من الصيد عند البدائيين	٥٢ — ٦٥

الصفحة	الموضوع
٧٦ — ٦٥	٢ — مظاهر غريبة من الفروسية والقتال عند البدائيين
٧٦	أهم مراجع الفصل
٨١ — ٧٧	الفصل الثانى : لغة الإشارة عند البدائيين
٨١	أهم مراجع الفصل
١٣٤ — ٨٣	الباب السابع . من غرائب نظم الأسرة
١٠١ — ٨٥	<u>الفصل الأول : نظم التعدد الغريبة فى الزواج</u>
٩٣ — ٨٥	١ — وحدة الزوجة مع تعدد الأزواج
٩٧ — ٩٤	٢ — تعدد الأزواج والزوجات معا
١٠١ — ٩٧	٣ — الشيوعية الجنسية
١٠١	أهم مراجع الفصل
١١٧ — ١٠٢	الفصل الثانى البغاء المدنى والبعث المقدس
١٠٥ — ١٠٢	١ — البغاء المدنى
١١٠ — ١٠٥	٢ — البغاء المقدس
١١٧ — ١١٠	٢ — نفور المجتمعات من نظام البغاء على العموم
١١٧	أهم مراجع الفصل
١٣٣ — ١١٣	الفصل الثالث . العزوبة التى يوجبها نظام اجتماعى مقرر
١١٧ — ١١٣	١ — العزوبة المفروضة على كافة الناس فى حالات خاصة
١٢٣ — ١١٧	٢ — العزوبة المفروضة على رجال الدين
١٢٨ — ٢٢٣	٣ — اسباب العزوبة المفروضة على رجال الدين
١٣٣ — ١٢٩	٤ — العزوبة التى تفرضها بعض النحل الدينية على جميع معتقبيها
١٣٣	أهم مراجع الفصل

خاتمة في غرائب النزعات الاجتماعية الفطرية عند الحيوان ١٣٥ — ١٦٨

- ١ — التعريف بالنزعات الاجتماعية الفطرية عند الحيوان ١٣٧ — ١٣٨
- ٢ — نزعة التجمع أو التكتل أو الحياة في جماعة أو قطيع ١٣٨ — ١٤٠
- ٣ — التفاهم بالإشارة عند الحيوان ١٤٠ — ١٤٢
- ٤ — التفاهم بالرأى عند الحيوان ١٤٣
- ٥ — التفاهم بين الحيوان بدون صوت ولا رائحة ولا إشارة ١٤٣ — ١٤٥
- ٦ — الأصوات عند الحيوان ١٤٥ — ١٤٩
- ٧ — نزعة الاسترقاق أو الاستعباد أو تسخير الغير ١٤٩ — ١٥١
- ٨ — نزعة الخضوع للغير ١٥٢
- ٩ — نزعة إيواء الغير وإضافته ١٥٢ — ١٥٤
- ١٠ — نزعة التطفل والاعتماد على الغير ١٥٤ — ١٥٥
- ١١ — النزعة الجنسية ١٥٥ — ١٥٧
- ١٢ — نزعة تعهد البيض وحضانه ١٥٧ — ١٥٩
- ١٣ — نزعة التقريخ الصناعي ١٦٠
- ١٤ — نزعة تعهد الصغار وتربيتها والقيام على شئونها ١٦٠ — ١٦٣
- ١٥ — نزعة ادخار الأغذية لحاجة الصغار والكبار أو كليهما ١٦٣ — ١٦٦
- أهم مراجع الخاتمة ١٦٧

مؤلفات الجمعية الثقافية المصرية

بإشراف الأستاذ عمر المرسوفي

رئيس قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم

جامعة القاهرة

ظهر منها :

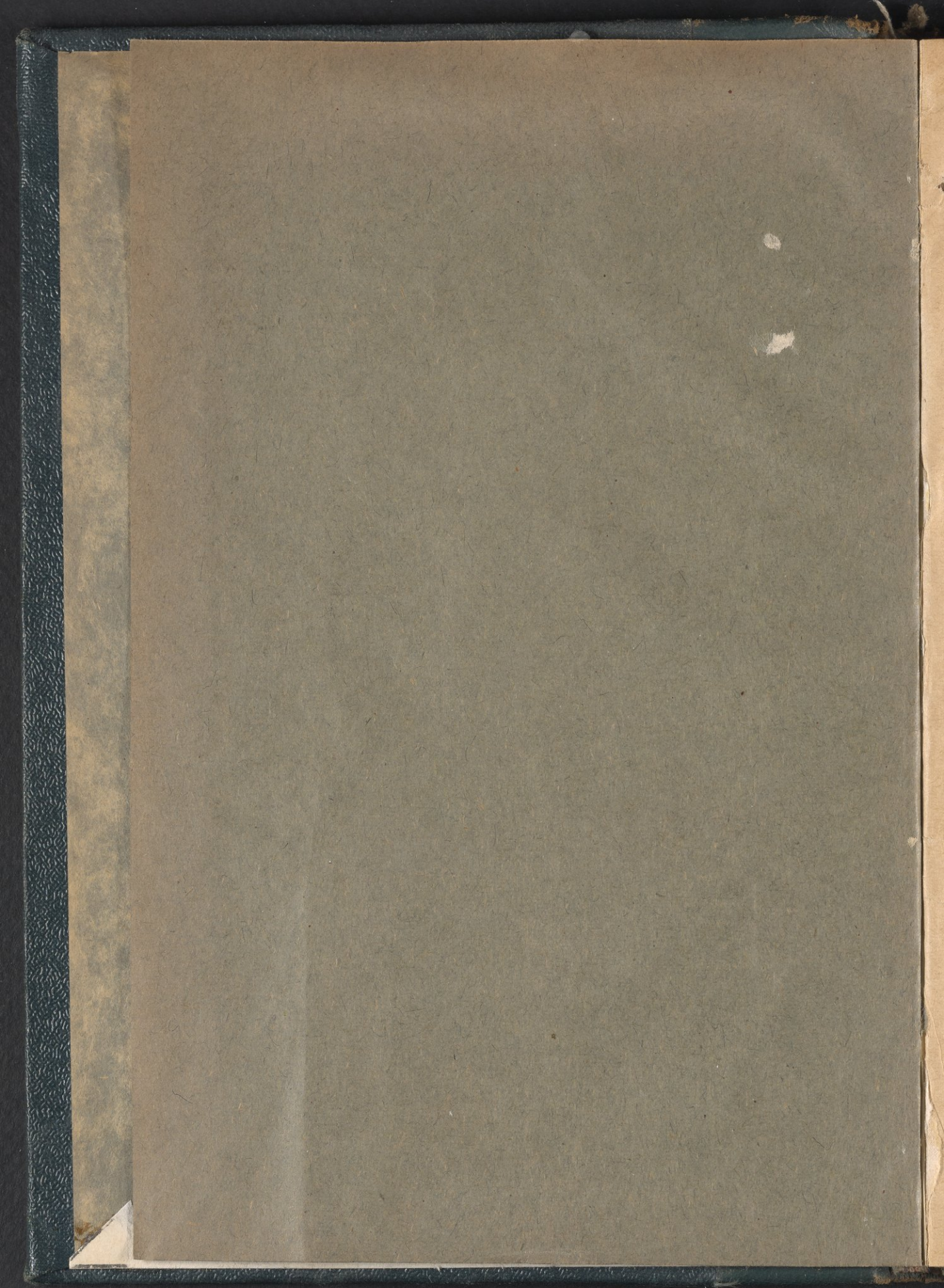
- ١ — ابن الأثير ومقاييسه النقدية :
للدكتور زغلول سلام المدرس بجامعة الإسكندرية
- ٢ — الرمزية في الأدب العربي :
للدكتور درويش الجندي المدرس بكلية دار العلوم جامعة القاهرة
- ٣ — كتب دورية في شتى فنون المعرفة صدر منها :
 - ١ — قصة الملكية في العالم : من سلسلة حياة المجتمعات . تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافي ، والدكتور حسن سعفان .
 - ٢ — الرومانتيكية : من سلسلة المذاهب الأدبية الكبرى تأليف الدكتور محمد غنيمي هلال .
 - ٣ — زرادشت : من سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب تأليف الأستاذ حامد عبد القادر .
 - ٤ — كونفشيوس : من سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب تأليف الدكتور حسن سعفان .
 - ٥ — الفسحة في الأدب العربي (جزآن) : من سلسلة الأدب والنقد تأليف الدكتور أحمد محمد الحوفي .
 - ٦ — قصة الزواج والعزوبة في العالم : من سلسلة حياة المجتمعات تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافي .
 - ٧ — تاريخ الفكر الاقتصادي : من سلسلة الاقتصاد السياسي تأليف الدكتور أيوب شقير .

- ٨ — بين الشريعة الإسلامية والقانون الروماني : من سلسلة الدراسات الإسلامية
تأليف الدكتور صوفى حسين أبو طالب .
- ٩ — ابن خلدون ، منشئ علم الاجتماع : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافي
- ١٠ — السرقات الأدبية : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الدكتور بدوى طبانة .
- ١١ — الحريات العامة بين المذهب الفردى والمذهب الاشتراكى : من سلسلة الاقتصاد والسياسة
تأليف الأستاذ طعيمة الجرف .
- ١٢ — أبو حيان التوحيدى : (جزآن) من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الدكتور أحمد محمد الحوفى .
- ١٣ — هوميروس : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب .
تأليف الدكتور محمد صقر خفاجه .
- ١٤ — حقوق الإنسان فى الإسلام : من سلسلة الدراسات الإسلامية
تأليف الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافي .
- ١٥ — تهذيب الحيوان للجاحظ (الجزء الأول) : من سلسلة الأدب والنقد .
تأليف الأستاذ عبد السلام هارون .
- ١٦ — بوذا : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الأستاذ حامد عبد القادر .
- ١٧ — مونطسكيو : من سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب
تأليف الدكتور حسن سماعيل .
- ١٨ — أبو حنيفة والقيم الإنسانية فى مذهبه : من سلسلة الدراسات الإسلامية
تأليف الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى .
- ١٩ — مع الصحفي المكافح : د أحمد حلمى : من السلسلة التاريخية
تأليف الدكتور أحمد أحمد بدوى
- ٢٠ — تهذيب الحيوان للجاحظ (الجزء الثانى) : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الأستاذ عبد السلام هارون
- ٢١ — من قضايا اللغة والنحو : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الأستاذ على النجدى ناصف .

- ٢٢ — الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط : من السلسلة التاريخية
تأليف الدكتور إبراهيم أحمد العدوى .
- ٢٣ — الذوق الأدبي : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الدكتور علي محمد الجندي .
- ٢٤ — تينو ، حياته وسياسته : من سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب
تأليف الأستاذ إبراهيم حسن حنبل
- ٢٥ — بعض مؤرخي الإسلام : من السلسلة التاريخية
تأليف الأستاذ علي أدهم
- ٢٦ — أدباء الرومانتيكية الفرنسية : من سلسلة النقد الأدبي
تأليف الدكتور محمد غلاب
- ٢٧ — سماحة الإسلام : من سلسلة الدراسات الإسلامية
تأليف الدكتور أحمد محمد الحوفي
- ٢٨ — عبد الله بن المعتز العباسي : من سلسلة الأدب والنقد .
تأليف الدكتور محمد عبد العزيز الكفراوي
- ٢٩ — أثر العلم في المجتمع : من سلسلة حياة المجتمعات .
تأليف الدكتور تمام حسان
- ٣٠ — مشكلات المجتمع المصري والعالم العربي وعلاجهما في ضوء العلم والدين :
من سلسلة حياة المجتمعات : تأليف الأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي
- ٣١ — صور أدبية : من سلسلة النقد الأدبي
تأليف الأستاذ علي أدهم
- ٣٢ — رأى في أدبنا المعاصر : من سلسلة الأدب والنقد
تأليف الأستاذ محمد عطا
- ٣٣ — الغزالي ولحات عن الحياة الفكرية الإسلامية : من سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب
تأليف الدكتور بهي الدين زيان .
- ٣٤ — غرائب النظم والتقاليد والعادات (الجزء الأول) : من سلسلة حياة المجتمعات .
تأليف الأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي
- ٣٥ — قادة التحرير العربي : من السلسلة التاريخية
تأليف الدكتور إبراهيم أحمد العدوى
- ٣٦ — غرائب النظم والتقاليد والعادات (الجزء الثاني) : من سلسلة حياة المجتمعات
تأليف الأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي

مَطْبَعَةُ السَّيِّدَةِ
٣ شارع حَمُودَه المَقَاوِل - عَابِدِيْن

UNIVERSITY OF ALIBAHU BAHIRAH



AUC - LIBRARY



DATE DUE

17 APR 1990

20 DEC 1990
A.U.C.

18 JUL 1985

A.U.C.
3 SEP 1995

A.U.C.
2 SEP 1995

JUN - 1976

GT
99
W3x
v.2



1 0 0 0 0 0 2 5 5 1 3

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

